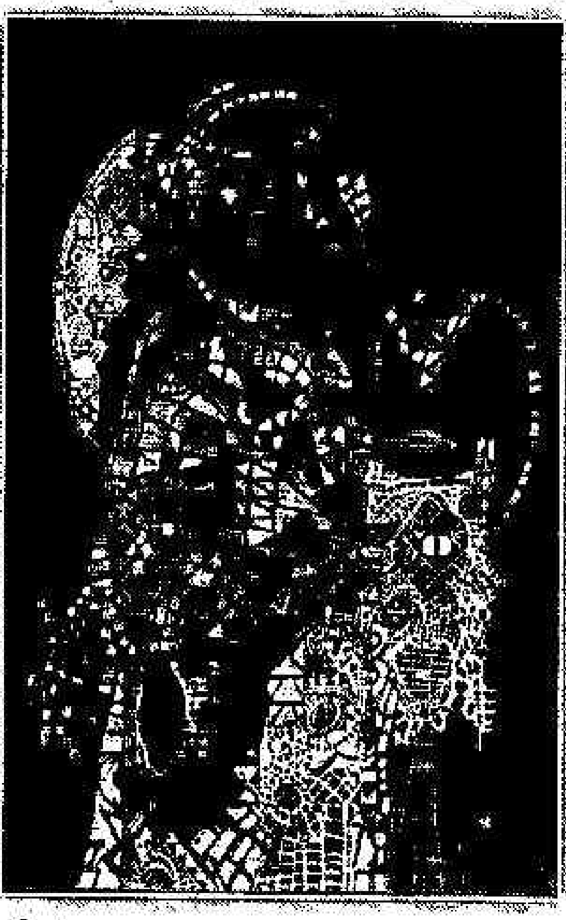
حسن حميد

جسر بنات يعقوب

الرواية الفائزة بجائزة نجيب محفوظ لعام 1999



رواية

الطبعة الثالثة

2002

. جسر بنات يعقوب
. حسن حميد
. الطبعة الثالثة 10 / 2002

. دار السوسن للنشر والطباعة
سورية ـ دمشق ـ المزة
ص.ب : 9063 ،هاتف : 6619334
. توزيع دار السوسن ودار الحصاد
سورية ـ دمشق ـ ص.ب : 4490
هاتف ـ فاكس : 2126326
. موافقة اتحاد الكتاب على الطباعة الأخيرة
رقم 931 تاريخ 22 ـ 9 - 2001
لوحة الغلاف للفنان : محمد الوهيبي

حسن حميد

جسر بنات يعقوب

رواية

الاهـداء

الى أهلي ... في فلسطين

إشارة لا بدَّ منها

وهذا كتاب، فيه مجموعة كتب، وصل إليَّ بالتوارث عن ثلاثة عشر جداً من أجدادي، وقد عثروا عليه في خزانة كتب جدنا الرابع عشر العلامة المقدسي المعروف إلياس الشمنذوري؛ الذي عاش في مدينة القدس في بداية القرن الثالث عشر ميلادي أيام المماليك.

وفي الكتاب تاريخ حياة المهاجر يعقوب وبناته وأخبارهم، وقد عاشوا بجوار الجسر العتيق المبني على نهر الأردن، والذي عُرف فيما بعد بجسر بنات يعقوب (لأسباب سنعرفها لاحقاً)، وبالقرب من قرية الشماصنة التي كان أهلها يتكلمون الآرامية، والواقعة إلى الشمال الغربي من قرية طبريا المعروفة ببحرها الواسع، ومُناخها الدافئ، وأهلها اللطفاء.

وبالسؤال، لم يؤكد أحدٌ من أجدادي الإجابة بأن جدنا العلامة إلياس الشمنذوري هو من دوّن سيرة يعقوب وبناته بخط يده، ولذلك من المفيد القول إنه من الجائز بأن أحداً من أجداد جدنا إلياس هو من قام بتسجيل هذه السيرة، والفضل يعود إلى جدنا إلياس في المحافظة عليها من الضياع والبعثرة، وأيدي الزمان.

وقد عملت كثيراً، بعد أن وصل الكتاب إليَّ، على أخبار يعقوب وبناته من أجل التشذيب والتهذيب بسبب كثرة التفصيلات والأخبار الغريبة والمدهشة أولاً، وبسبب وجود الكثير من المغامرات الجنسية العجيبة والمحيرة ثانياً، وحين وصلت إلى غايتي، وجدت أنني أجهضت

القصة كلّها، وأنني خرّبت نسيجها الرهيف، وضيّعت حيويتها وجمالياتها.. لذلك عدت وعملت على القصة مرة ثانية، وثالثة.. وعاشرة، وكنتُ، كلما وصلت إلى النهاية، وراجعت النص كقارىء أجدُ أن الأصل أجمل وأبهى، وأوفر قيمة ومتعة، وأن البناء الداخلي للعمل اهتزّ وماد، لذلك، وبعد العديد من السنوات، والمحاولات، وتبادل الآراء والحوارات الكثيرة والطويلة، وصلت إلى قناعة راسخة فحواها أن أنشر هذه القصة بتمام تفاصيلها واكتمالها دونما حذف حرف واحد مما جاء فيها، مع الإبقاء على الحواشي والشروحات والآراء الإضافية.

وإنني إذ أنشر اليوم أخبار يعقوب وبناته كاملة، أودّ التأكيد على أنني لم أضف حرفاً واحداً إلى القصة، وأنني أخرجها إلى الناس كما وصلت إليّ عن طريق جدي إلياس الشمندوري رحمه الله، وأعزّه، فإليه يعود الفضل في أننا تعلمنا.. فقرأنا وكتبنا، حتى صارت الكتابةُ والقراءة مهنةً لنا من بعده، وسبباً من أسباب معرفة الناس وتعرفهم إلينا.

والشيء الوحيد الذي قمت به، وعن قناعة تامة، هو أنني قدّمت ما أسماه جدي بالملحق إلى أول الكتاب لإيماني بأن ما من فائدة ترجى منه إذا ما بقي في آخر الكتاب، فهو، أي الملحق، ليس تلخيصاً لما جرى، ولا هو نتيجة أو فائدة، وإنما هو تمهيد لأحداث ستأتي، ومفاجآت ستحدث، وأحلام ورغبات يساهرها الناس، لكي تصير واقعاً، هو تمهيد لا يفسد طزاجة الأحداث وحضورها، ولا رونق سيرورتها واكتمالها، ولا يكشف لطائف شخوصها وشراستهم قبل الأوان، إنه تمهيد من النوع الذي يراوغ كثيراً، ويحاور كثيراً، ويجهد كثيراً قبل أن تستوي المعاني على ألفاظها. إنه تمهيد يسعى إلى معناه ليس قبل بداية الرواية فقط، وإنما بعد الانتهاء منها أيضاً!!.

1 ـ الدير والرهبان

في أعالي الجبل المشجر، المطل على قرية الشماصنة، كانت هامة الدير العتيق، بلونها القرميدي، تطلّ مثل الشمس من بين الأشجار الكثيفة التي لفتها من الجهات كلها، بحنان ودعة، وخضرة، وهفهفات أنسام بليلة.

كان الجبل غابة داكنة الخضرة، وعرة المسالك، والدروب، تآخت الطيور فيها، وكثرت الأعشاش، وتجاورت الزهور والأشواك. ونشطت مجاري المياه، والينابيع الصافية، وتوحدت الموسيقا عبر صوت ألوف، لا صرخة وحش تعكرها، ولا ضربات بلطة لحطاب تؤذيها، ولا صيحات صياد تشوش عليها. دنيا أولى، عفوية، أرضها بساط من العشب الدائم الخضرة، وأطرافها أشجار بالغة الطول، متعددة الأشكال، زاهية الخضرة، وسماء تُدلّي غيومها بلطف كالستائر الشفيفة.

والدير، حيطان من الحجر الأسود، وشبابيك خشبية طويلة مدهونة باللون الأبيض، وستائر حمراء، وسقف مثلثي الشكل من كفوف القرميد المتشابكة في عناقات حميمة، وبوابة من الحديد الأسود، واسعة وعريضة. وغرف عديدة، وصالة كبيرة، ومقاعد، ومذبح، وأخشاب بنية لها رهجة الضوء كأنها مدهونة بالزيت، ونوافذ داخلية، محفورة في الحيطان، لها أبواب من الزجاج النظيف، وكراسٍ، وطاولات، وقدور، وجرار للزيت، وأيقونات ملونة، بديعة في تكويناتها وأشكالها، رهيفة في معانيها

ودلالاتها، أيقونات باعثة على التأمل والتأويل، وباعثة على الألم والحزن، ومحركة لدواخل النفس؛ أيقونات كأنها التطريز البديع على أطراف منديل نظيف شديد البياض والنعومة.

.. وغرف مغلقة، وأخرى مفتوحة، مكتبة، ومهجع للنوم، وغرف جلوس. وأخرى للمؤونة والمعيشة، مدافىء ضخمة محفورة في الحيطان، لها مداخن واسعة مربعة الشكل، شديد الوضوح والبروز في جسم البناء وكتب سميكة وبألوان متعددة ذات أغلفة جلدية ورقها أصفر اللون، رقيق ناعم، وممرات واسعة وضيقة مغطاة ببسط من وبر الجمال والماعز، لها ألوان غامقة، وسقوف عالية، ترابية اللون، تتدلى منها حبال متشابكة على شكل شبكات صيادي الأسماك، فجواتها واسعة ومتراخية، تقرّب السقف وتدنيه، وتجعله أكثر إلفة وانسجاماً مع البناء. وأباريق نحاسية موزعة هنا وهناك داخل الشبابيك المحفورة في الحيطان، وفوق المناضد الخشبية الصغيرة ذات الأفاريز المفرّضة، المشغولة باليد، وبقربها كاسات نحاسية صغيرة، وكبيرة دائرية ومخروطية، وثمة كاسات بلون الفضة المائلة إلى السواد أو الخضرة الداكنة. وعلى الحيطان صوانٍ معلقة، نحاسية وفضية، وشمعدانات نحاسية، وخشبية، وفضية، كأنها مضاءة في طقس احتفالي دائم الحضور. تتراقص ذبالات الشمع مع الأنسام العابرة، فترتسم الخيالات وتتشابك، تقصر وتطول على نحو متناوب، وكلما اشتدت الريح أو انبعثت أكثر. هدوء يكاد يكون مطلقاً، فلا يسمع سوى حفيف الأشجار، وأصوات الحشرات، وخرير المياه. كانت أصوات الغابة منتشرة داخل غرف الدير، لكأنها تنبع منها، فتتردد داخلها بوضوح شديد، وكأن حيطان الدير من النسيج الرهيف لا من الحجارة الكتوم!.

وبالقرب من الدير مهاجع للحيوانات، وساحة مبلطة بالأحجار

السود الرقيقة، ومستودع للحبوب والتبن، والأدوات الزراعية، وعربة خشبية واسعة، وعدة براميل، وسياج من الأشواك. وبغال، وأغنام، وماعز، وكلاب، ووكيل ذو جسم ممتلىء، وشعر طويل أسود، لحيته كثة وشارباه طويلان. رجل كالجدار، يختزن داخل جسده قوة هائلة، يقوم بالمهمات المطلوبة منه داخل الدير وخارجه، فهو حارس، وطباخ، وراعي المواشي، وسايس، وحوذي، وفلاح... يزرع الحواكير الملاصقة للدير بالنعناع واليانسون، والحبق، والخضار والورد. وكيل وهب نفسه لله، وسط غابة كثيفة الأشجار، ليلها مخيف معتم، ونهارها وحيد، وحيد تماماً. وكيل صامت، يدندن ويغني مثلما تفعل الأشجار، والمياه، والدروب، نسي الكلام أو كاد، فهو لا يخالط الرهبان الثلاثة الموجودين في الدير إلا من أجل السؤال عن طلباتهم في الصباح والمساء، كما يعرف الطلبات اليومية الاعتيادية، للرهبان الثلاثة. يداوم على تفقد خبز الدير ونبيذه، وشموعه، وأكياس الزبيب. ينظف المهاجع، ويسخن الماء في القدور يومياً. يحطب، ويقطع الأغصان والجذوع إلى قطع صغيرة لتكون وقوداً تحت القدور، ومن أجل المدافىء أيضاً. يرتّب القطع في السقيفة قطعة قطعة دونما ملل أو ضجر. وكيلٌ قطع علاقاته مع الناس وابتعد عنهم، وارتضى بأن توهب حياته للدير بعدما حدث له ما حدث.

وكان، ولا يزال، شاباً جميلاً وسيماً. قوته كبيرة، وطاعته حاضرة. يعمل بصمت شديد، وهدوء عميم. نادراً ما يدندن، أو يحدث نفسه على مسمع من أحد. وعيناه الواسعتان بلونهما الأزرق، تجولان فيما حوله لكأنهما تختزنان أسراره الكثيرة، وفمه مطبق، مغطى بشاربيه الطويلين، وشعر لحيته الطويل يخفي معالم وجهه. وجنتاه وحدهما هما من يعبر عن جمال وجهه

الذي حاول أن يبدده بلحيته وشعر رأسه المرسل فوق جبينه الواسع، وأطراف أذنيه والذي يلمّه أحياناً في عقدة كبيرة بارزة في مؤخرة رأسه.

جاء إلى الدير ذات ضحى بصحبة أحد الرهبان، فوق عربته الخشبية الواسعة الواقفة قرب المستودعات، مع بغلته البنية اللون، العالية القامة، الكبيرة الرأس. قادهما إلى الدير الدرب الضيق الملتوي وسط أشجار الغابة التي تغطي سفوح الجبل. كانت أصوات قرقعة أخشاب العربة وعجلاتها مسموعة لرهبان الدير الثلاثة الذين وقفوا مجتمعين في إحدى شرفات الدير المطلة على الدرب، وراحوا يراقبون العربة الصاعدة إليهم، وينتظرون وصولها؛ بل كانت أنفاس البغلة المتلاهثة، وضجة حوافرها مسموعة أيضاً.

لقد لاحظ الراهب، والرجل الذي سيصير وكيلاً للدير، أن الأشجار تزاحم الدرب من حولهما، وتضيّق عليه، وأن نباتات عديدة لها إهاب الأشجار نبتت في منتصف الدرب غير عابئة بالخطا، أو العجلات المارة بها. كان الرجلان يتأملان كل ما هو حولهما بصمت عميق، ويسمعان تغريد الطيور ونداءاتها، وحفيف الأشجار واصطفاق أغصانها، وأصوات الأنسام في حنوها، واضطرابها وفزعها، وبدا المكان لهما على حقيقته، في عفويته الأولى، وبكارته البادية.

وحين وصلا إلى الدير، تقدم أحد الرهبان بقامته الطويلة، الناحلة، وفتح البوابة الحديدية السوداء الواسعة بكل أدب

واحترام وابتسامته ترحب بهما. فدخلت العربة وتخطت البوابة، عابرة الساحة بهدوء، وقرب المستودعات وقفت، فترجل الراهب، والرجل الذي سيصير وكيلاً. مضى الراهب القصير القامة بلباسه الأسود المطرز بنقوش فوق الصدر، وفي الأسفل قرب الأذيال؛ مضى نحو الراهب الطويل الواقف قرب البوابة وصافحه بمودة عميقة، وابتسم أحدهما للآخر ابتسامة أظهرت جمال الوجه، والأسنان، والعينين. ومضى الاثنان نحو الراهبين الآخرين اللذين كانا في الشرفة، وقد هبطا الدرج إلى أسفل البناء، فصافحهما الراهب القصير، وقد رفع قبعته السوداء الدائرية بهمة وفرح باديين.

ودخل الجميع إلى إحدى قاعات الجلوس، بينما ظل الرجل حوذي العربة مع بغلته، وقد راح يفك الحبال الجلدية والكتانية التي شُدت بها، وأبعد ذراعي العربة الخشبية عن جنبيها، وأركنهما إلى الأرض؛ فسكنت العربة وانطفأت حركتها؛ وهزّت البغلة جسدها، وانتفضت مرات عديدة حالما رفع صاحبها عنها سرجها الجلدي المحشو بالقش. بدت البغلة عارية من حبالها، وسرجها، ورسنها، وكأنها تستعد لدخول غدير ماء للاغتسال والابتراد. ونفض الرجل يديه مرات عدة وتأملهما، وحين وجد أن الوسخ لا يزال عالقاً بهما تقدم نحو أحد البراميل الرمادية؛ وشرع يغسلهما هناك، ثم غسل وجهه، ومسح لحيته وشعر رأسه بكفيه المبللتين. ونفض الغبار عن ثيابه، ثم خلع حذاءه، وأفرغ ما بداخله من تراب، وعيدان صغيرة، وجلس في فيء أقرب

الحيطان إليه، وراح يمعن النظر في غرف الدير ومستودعاته، والأشجار المحيطة به ليستأنس بها! ولم يطل به الوقت حتى خرج أحد الرهبان الثلاثة، وتقدم منه، وقبل أن يصل إليه دعاه إلى الدخول بإشارة من يده، واستدار الراهب، فتبعه الرجل كأنه مسير تماماً!.

وفي الداخل، كان الراهب القصير الذي جاء مع الرجل الذي سيصير وكيلاً للدير يُقنع الرهبان الثلاثة بأن يتقبلوا أعطية الرب المتمثلة بهذا الرجل القوي، الذي وهب نفسه لله، والذي امتحن مرات ومرات فأبدى إخلاصه، وزهده بالحياة، وصدوده عنها، وتوقه الشديد إلى التقرب من الله، بعدما ترك حياة الناس لأنها آذاته وحيرته كثيراً، وقست عليه بعنف شديد.

وحين جحظت عيون الرهبان الثلاثة، واستغربوا أن تكون الأعطية رجلاً جميلاً، قوياً، ساحر الهيئة، قال الراهب القصير:

وهذا ولدنا حنا، وكيل الدير وحارسه، ونافذته على الدنيا. هو الجسر الواصل ما بينكم وبين الناس، هو الحامل والمحمول، الطاعة ويعرفها، وخدمة الرب بغيته، وسعادته رهينة بتنفيذ أوامركم، أوامر الرب، يعرف أن هذا الدير للرب، وأنكم ثلاثة رجال منذورون لخدمة الرب ورسالته. ولا يعرف شيئاً عن الدير، أو عنكم إلا ما قلته الآن، خالطوا الناس ففي الناس المسرة، وعلى الأرض السلام!.

ونهض الراهب القصير، فنهض الرهبان الثلاثة، وصار الجميع وقوفاً، ومضى حنا إلى ساحة الدير، فلحق به أحد الرهبان الثلاثة، وقاده إلى

مهجع نومه، وغرفته أولاً، ثم أخذه إلى جميع الأمكنة في الدير، وعرّفه بها شارحاً وموضحاً، ثم ا فترقا.

وبينما غط الراهب القصير في نوم عميق، جلس الرهبان الثلاثة المتشابهون بلون البشرة، والطول، وجمال العيون، والنحول، ودقة الأعضاء ورقتها، وحمرة الشفاه، وقصر الأقدام ونعومتها.. جلسوا في إحدى قاعات الجلوس وسط الأيقونات، والشموع المتراقصة، والصواني النحاسية والفضية والخشبية، والصلبان المتعددة الأحجام، والألوان، جلسوا.. والحيرة تسيطر عليهم. بدوا كأنهم في بسطة الشباب الأولى وطراوتها، لا تجاعيد في الوجوه، ولا قسوة، عيون رائقة صافية، تدور في محاجرها بهدوء واستكانة، وشفاه حمراء راعشة، وأنوف صغيرة دقيقة تكاد لا تبدو في مساحة الوجوه الرقيقة، جلسوا وهم يدعكون بأيديهم، وقد أخذهم الاضطراب، بعدما قال أحدهم:

وما العمل؟!.

لقد صارت الغواية بيننا الآن!

وتبادلوا النظرات بقلق وأسى، وقد أسقط في أيديهم. وحاروا ماذا يقولون! وران صمت عميق عليهم، فعلت أصوات الغابة، وشاع حفيف الأشجار داخل القاعة، وامتلأت جوانبها بتغريد الطيور، وخرير شلال الماء المتدفق إلى الأسفل الأسفل رشقات رشقات.

لقد كان الرهبان الثلاثة، ثلاث نساء. اعتزلن الدنيا، وارتضين العيش في هذا الدير، تقرباً من الرب بعدما حدث لهن ما حدث.

[لقد كان الدير منذ البداية، ديراً للراهبات، من أجل تعليم الفتيات فقط، ومن أجل مساعدة النساء في هذه المنطقة، ولم يكن في الدير أي راهب، لكن ومع توالي

الأيام وكرّها، لم يبق في الدير أية راهبة، لأن راهبات كثيرات فضلن العمل في أديرة أخرى أقرب إلى أمكنة الطفولة التي عشن فيها، وفجأة غدا الدير خالياً لا أحد فيه. بعدما ماتت الأخت الكبرى، تلك الراهبة العجوز، التي كانت جزءاً من الدير، ونسيجاً من أنسجته. وظل الدير خالياً إلى أن جاءت هؤلاء الراهبات الثلاث اللواتي لبسن لباس الرجال، من أجل خدمة الجميع لا النساء فقط، وبناء على رغبتهن هن حتى لا يطمع بهن طامع، فالمنطقة موحشة، ونائية، إليها يلجأ بعض الفرازين طلباً للأمان].

2 ـ حنا.. المُحرم المُرّ

وكان حنا ابناً لعجوزين!! تقدم بهما العمر كثيراً، وهما يرجوان الله كثيراً أن يمنّ عليهما بمن يقوم على شيخوختهما في قادم الأيام. فتقرب الرجل العجوز من زوجته مرات ومرات، وحاول كثيراً، وتقربت المرأة العجوز من زوجها مرات ومرات، وحاولت كثيراً، لكن المحاولات ظلت محاولات، والرجاءات ظلت عالقة، والطفل قرة العين لم يأت!.

ومثلما انتفخت بطن المرأة العجوز مرات عديدة، طرحت حملها مرات عديدة أيضاً ولم يأت الطفل!.

فكثرت غصّات المرأة وماتت أحلامها، وانطوت آمالها، فرضيت بعيشتها قرب رجلها العجوز الذي كان كثيراً ما يودع ساعات الليل الأخيرة ببكاء صامت مرّ لأن الدنيا قطعته! وقد اشتهى أن يرى ابنه فيلاعبه، ويلاطفه، ويمازحه، يكبر عليه قاسياً، ويفر منه خائفاً، وسط أصوات ضاجة صاخبة لأمه المتحمسة له والمشجعة بأن يكون ولدها بطلاً شجاعاً ليغلب أباه العجوز!!.

ولكم اشتهت المرأة العجوز الولد الذي تقبّله وتشمه وتطعمه بأصابعها؛ الولد الذي تخاف عليه من ندوة

صدرها، والذي يملأ أذنيها بمناداته عليها، وقد أخذه الغضب والانفعال، وهي ذاهبة في نشوة الأصغاء البعيدة..

وكاد الحلم ينطفيء!.

لكن العجوزين وفي ذات صباح مبكر، استيقظا وهما ممددان في فراشهما، على بكاء طفل صغير، هو ابن يوم أو يومين، يبكي بصوت عال ومتواصل، قربهما في صباح بكر شاسع الهدأة والضياء. فتبادلا النظرات، وحالة من الهلع والخوف تلفهما. وتساءلا بجزع من أين جاء الطفل، وكيف؟! ومن حمله إليهما؟! ولماذا اختيرا هما لا غيرهما ليكونا أبوين له؟! وكيف بمقدورهما العناية به ورعايته وقد تقدمت بهما السن؟! من دون إجابة سوى بكاء الطفل، ونشوة المفاجأة، وعذوبة الاستماع. مسح الرجل العجوز وجهه بأصابع يديه، ولمست المرأة العجوز بطنها، وحاولت النهوض، فما استطاعت. كانت بطنها المنفوخة قد طرحت ما فيها، فغرقت رجلاها بسوائل لزجة، وابتلّ الفراش واللحاف أيضاً. والمرأة العجوز لا تدري ما الذي حدث. لقد أخذها الدفء إلى عوالم النوم، فنامت!

لكنها تستيقظ الآن على حلمها، على طفل صغير، أحمر وجهه، وضجّ بكاؤه، وعجز عن الحركة أو الاستدارة، أو الالتواء. طفل له وجه واسع، وعينان مغمضتان، ويدان منكمشتان، وجسد مكشوف لا ثوب يستره ولا لباس. فمالت المرأة العجوز نحو الطفل، أخذته بين يديها

دهشة، لا تدري ماذا تفعل، أتضحك أم تبكي، تحكي أم تصمت، تضمه إليها أم تمعن النظر إليه. والطفل يبكي. فتأخذه إلى صدرها وتطويه عليه، فيتخافت بكاء الطفل ويهدأ رويداً رويداً، ثم ينقطع، ويعود ثانية، ثم ينقطع ويعود إلى أن سكن الطفل وهدأ، ثم أخلد إلى النوم.

كانت فرحة المرأة العجوز لا تصدق. وكان رجلها العجوز مذهولاً، يسألها بإلحاح، ويهزها بفرح:

وأهو.. لك؟!!.

ولا تجيب المرأة العجوز، بل ترفع لحافها المبلول، عن فراشها المبلول، فتبدو ساقاها المبلولتان بالسائل اللزج، وتبدو بطنها الضامرة. وترتعش شفتا الرجل، وتضطرب يداه، ويهيج وقد أخذته نشوة الحلم، فبدلاً من أن يساعد زوجته على الخلاص من سوائلها، وبرودة فراشها، يقف ويشرع في رقص جنوني، فوضوي لا ضابط له.. يرقص فوق فراشه، ويصياح وهياج وفرح. ثم ينشط باندفاع كبير ليأخذ بيد زوجته، ويرفعها من فوق فراشها، فتقف بصعوبة، دائخة أو تكاد، ويشرع في مراقصتها وضمها، وقد أسندها إلى صدره الضامر. لحظتئذ بدا الاثنان في حالة من الانخطاف الإنساني السامي، وفي حالة نشوة هيّجها عدم القدرة على التأويل أو الكلام. وبينما هما كذلك، دُفع بابهما الخشبي، فصرّ صريراً قصيراً ثم أُغلق مرة ثانية، ثم اندفع مرة أخرى وصرّ، ثم انغلق، وحين تقدم الرجل العجوز منه، وفتحه راعه ما وجد، فقد كانت غزالة بيضاء تميل إلى الشقرة واقفة في الباب، وقد

تدلت أثداؤها وامتلأت، وما أن واجهها حتى ركعت الغزالة على الأرض، ومالت بجسدها فوق أثدائها، فسال الحليب وجرى فوق الأرض. ورأى قربها عدة دجاجات، وبضعة خراف، وفرساً بيضاء، وعربة، وعدة أكياس مملوءة مرتبة بعضها فوق بعض.

وحار الرجل العجوز بما رأى. وتلفت حوله، ودقق النظر في المكان، ليتأكد إن كان هو حقاً في بيته أم أنه في مكان آخر، ولمس جسده ليدرك حقيقة هل هو في يقظة أو في منام!!.

وحين صرخ صرخته المبهمة العالية، لم تنفر الغزالة، ولم تبتعد؛ ظلت على ركوعها، ونظرها معلق عليه، وظلت الدجاجات سارحة تبحث عن طعامها في فناء الدار، بينما الخراف راحت تطارد بعضها بعضاً، وتتقافز بجذل وحبور. وخرجت زوجته العجوز فرأت ما رأى، وأخذها العجب أيضاً. فلقد جاءهما الطفل، وجاءت رزقته معه، حتى الحليب جاءت به الغزالة.

ومن ذلك الصباح سُمي الطفل حناء فنما وكبر على حليب الغزالة التي لم تفارقه أبداً، فعرف بابن الغزالة. ولم يتجرأ العجوزان على نسبة الطفل إليهما، بعدما تقدمت بهما السن، فأقرّا بما آمن عليه الناس في القرية بأن حنا ابن الغزالة، أما كيف، ولماذا؟! فما من أحد يدري!!.

لكن العجوزين كانا على قناعة كبيرة بأن حنا ابنهما، وأن السائل الذي أغرق ساقي الزوجة العجوز ليس إلا

السائل الحاضن لحناء الذي رافقه بكل الحنو والنعومة إلى الدنيا الجديدة. ولكم صارحت المرأة العجوز زوجها بأن ثمة رعشة في صدرها تصطخب وتهيج كلما رأت الطفل، أو حاقت عليه، فيهزّ زوجها رأسه لها ويؤمن على كلامها بأن حنا قطعة منها، وأن الرب أكرمهما، في أواخر أيامهما، بهذه الهدية المباركة.

منذ ذلك الصباح، ما عادت بطن الزوجة العجوز إلى الانتفاخ، وما عادت رأت ذلك السائل الذي ضمخ ساقيها، وما عادت شهوة الأمومة تعاودها أو تراودها كأيام زمان! لقد هدأت الروح ورضيت بحناء حنا الذي صار زينةً في نظر بنات القرية، وضوءاً صافياً، نَدّاهاً أو جاذباً لهن، فتقترب منه، وتحوم حوله كالفراش.

لكن حنا، ما رغب بواحدة منهن، على الرغم من رجاءات أمه الكثيرة، وإلحاح أبيه، بأن يتزوج لتزهو الحياة، وتصير أكثر جمالاً حين يرى العجوزان أحفادهما وقد قبضت الحياة على جذرهما وأبقته دائماً وموصولاً من جيل إلى جيل. ظل حنا زاهداً بصبايا القرية الجميلات، وظللن هن محوّمات حوله، ومواعدات،وممنيات النفس بلقياه، وموافقته أو مخاصرته، أو مؤانسته بعدما امتلأت نفوسهن بحمى عشقه، والتودد إليه.

لقد أحبَّ حنا، امرأة جميلة اسمها بديعة كأنها الضوء أو الماء الصافي الشيث، امرأة.. بستانُ أنوثةٍ ولطفٍ، مُنارة كالنهار، طويلة ممتلئة، وصافية كالرخام. صدرها رابية،

وشعرها الطويل أراجيح للهواء، بعيدة كالحلم، ودانية كالمواقيت في مواعيدها، مشيتها زينة، ووجهها كالفنار.

أحبها حنا وهام بها. وكان كلما تقرب إليها نفرت منه؛ فقد كانت بديعة متزوجة، أحبت زوجها فأخلصت له، ورغدت حياتها معه وزهت، لكن الدنيا عبوس، وحرون، لا تدوم على حال!!.

لقد أصابت حمّى العشق الزوجين، فخرجا في الليالي المقمرة متعانقين، فوق خطو رهو رخيّ، أحدهما يشمّ الآخر، ويسكره بالكلام الحلو، واللمس الناعم الرهيف، والآخر في حالة الانقياد التام للنشوة المحلومة واللذة المستقطرة. كانت مروج الأعشاب الطرية اللامعة سريرهما في أكثر الأحيان، ونجواهما مفتوحة على سماء فسيحة قريبة بغيومها، ونجومها، وقمرها المضيء.

كانت بديعة امرأة من بلّور، شفيفة، وناعمة، لامعة وملساء، صافية وحنون، ريقها حلو وعذب، ورفيف أجفانها دهشة الدنيا وسكرتها، وشفتاها خطان ممتلئان بحب التوت، ونشوتها دائمة. فجنّ بها زوجها، وسوّرها بذراعين من الرجولة واللطف، والأماني البعيدة المشتهاة.

كانت إذا ما أكلت تقسم الطعام نصفين، نصفاً لها، ونصفاً لزوجها، وإذا ما شربت تشرب كأسين واحدة لها وأخرى لزوجها؛ تعيدها إليه قطرات من ريقها الساحر الذي وحّد بينهما فجعل الروحين روحاً، والجسدين جسداً طيّ حمى العشق واللهفة الجارفة.

لكن الدنيا عبوس، وحرون، لا تدوم على حال!! أحبها زوجها، فكانت معه طيفاً، وأنفاساً.. أينما حلّ في ابتعاده وقربه. كانت له هي الدنيا وبهجتها، والسعادة ونشوتها. فحلم بأن يستولدها مئات البنات والأولاد، أن يجعلها هي نبع الحياة وترياقها، لكن بديعة لم تنجب. صبر عليها سنوات وسنوات، وصبرت هي عليه سنوات وسنوات، ولم تنجب، فاعتكرت الحياة فيما بينهما، وصار الجمال الآسر المضيء، عادياً، رؤيةً مألوفةً، ومشهداً معاداً، وصار ريقها السكريّ، البريّ المذاق، ماءً أو يكاد. وغدا صفاء عينيها، ورقص غمازتيها، وأطياف ألوان خديها، نعمةً من الله ومنحة ليس إلا. وباتت طراوة الجسد الرخامي وملامسته، وحنوه وانعطافاته، ورهجته والتماعاته دهشةً لا تأتي أو تستعاد، وصار بلور الجسد مرآة قريبة دانية وحسب، فابتعدت دغدغات الأصابع وتوارت، وانطفأت نشوة اللمس فوق الرقبة الطويلة البيضاء الموشاة بالحمرة القانية، وخلف الأذنين، وعلى الصدر، وما عادت شفاههما تعرف متعة تقبيل زغب الإبطين، ولا استحلاب ندى مفرق النهدين، وما عادت الرؤية تحار بنقاط عرق السرة اللؤلؤية، وهي تتشكل على الحواف كالشموع الصغيرة الموقدة، وما عادت تجنُّ بفتنة الجسدين داخل أحواض الينابيع والغدران، وقد راح أحدهما يدلك جسد الآخر بخضرة النعناع البري ويكتشفه جزءاً جزءاً، وبقعة بقعة، وقد تعددت الألوان، والطيوف، واتسعت الشفافية، وامتدت، ونفرت الروح إلى الروح، فيصير الماء سريراً

من اللدونة، والهمس الألوف.. لجسدين أذابتهما شهوة الرؤية الصاخبة. ابتعد كلُّ هذا، وتوارى، صار اندهش عادياً، والرغبةُ استجابةً مكرورة فقط. ونسي الزوج بأنه هو الذكورة والرجولة والمُشتهى، ونسيت بديعة أنها صفوة الدنيا ولونها الرائق الجميل، فباتت لا تحتش بأنوثتها، ولا بنداءات أعضائها، ولا بهمس روحها ونجواها. صارت مخلوقاً اعتيادياً، لا غموض فيه ولا أسرار، لا دهشة له ولا أحلام!.

لكن الدنيا عبوس، حرون لا تدوم على حال!!.

رآها حنا، فأيقظها على أنوثتها، وشدّها نحوه كحلم بديل. صارت معه تأكل وتشرب وتنام، وصار معها.. يأكل ويشرب وينام، وهما بعيدان! هي عند زوجها، وهو عند والديه العجوزين. مرات ومرات، سعى إليها فما استجابت إليه. بدت له كأنها مصعوقة برؤيته، وجماله، وسحر نظراته. ذكّرها بزوجها، وبأيامها الأولى معه، بسنواتها الأولى، برجولته، ولطفه ونظراته الحالمة، نظراته التي تحكي من دون كلام، ودهشته الأسرة الراغبة من كل هذا الجمال. أحسّ بأن شيئاً ما بات يتحرك داخل روحه تجاهها، فاندفع نحوها بكل مشاعره، وأحست هي بأنه هو من تتمنى، القادر على إعادة نشوة الروح وصحوتها من جديد، وأنه هو من رعشت له الروح، فأومضت بعدما صار زوجها يباساً أو خضرة ذاوية، وبعدها صارت هي حاكورة للخراب! فقد جاءها الآن من ينبي كل شيء..! الدروب، والأدراج،

والغرف، والخضرة، والروائح، والأنسام، والنشوة الذاهلة، جاءها الآن من لا تستطيع لقياه أو مواقفته.. حديثاً، أو سؤالاً، أو محاصرة عابرة. جاءها الحزم المُرّ. القريب البعيد. التوت الدائخ الذي لا يقطف!!.

ورضي حنا بحبها البعيد المنال، وصدودها عنه، وغيابها الدائم، رضي بمناجاتها في وحدته، واستحضار طيفها ومعانقته. كان غير عابيء بكل الأنوثة المتزاحمة حوله، بكل الصبايا الجميلات اللواتي يطاردنه في بيته، وأمام والديه، وفي الدروب، وبين الأشجار، وقرب الينابيع والغدران. كن يطاردنه حلماً، وكان هو يطارد بديعة حلماً أيضاً! غير أن بديعة بعيدة وهو بعيد. ومع الأيام ظلّت بديعة بعيدةً وظلّ هو بعيداً، فقد أحس زوجها بأن الحياة تدير له وجهها المعكر، وأن للذاته باتت سجناً له، وأن ما من دروب جديدة سيمشيها، وأن ما من خطا تدنيه من أحلامه الضامرة، وأنه بات لا شيء. فصارح بديعة ورجاها أن تفهمه، أن تقدر مشاعره، فهو لا يزال يحبها، لكنه غير قادر على إسعادها، فما عاد لديه شيء يعطيه لها، وأن سكرة الماضي ولّت، وأن روح النشوة ذبلت أيضاً. صارحها بأنه يودّ الانفصال عنها لأنه يحبها، ولأنه يريدها أن تبقى حبه الأزلي الخالد، رجاها أن تمضي في درب آخر، وفي دنيا أخرى لتعيش مع رجل آخر غيره قادر على توليد سعادات جديدة لها، أن تمضي في أي اتجاه تريده بعيداً عنه، لأنه صار كالرماد لا دفء فيه ولا حياة. رجاها أن تمضي ليمضي، أن تبتعد ليبتعد!! لكن بديعة التصقت به، ورجته أن يقول كل ما

يجول في خاطره؛ أن ينكشف عليها، لتصارحه هي بأن قلبها مال إلى آخر، أقل جمالاً منه، وأقل عزاً، وجاهاً! قلبها مال إلى رجل كالضباب، وهم أو يكاد، خفق له مرة أخرى، وقد حسبته قد مات من شدة الخفقان. فأجابها الزوج. وقد أحس بصدقها، ولهفتها عليه؛ أحسّ بها أنها بديعة أيام زمان، فصارحها بأن قلبه هو أيضاً قد مال، وخفق لأخرى أقل جمالاً منها، وأقل طولاً، ودهشة، وحضوراً، وصفاء، القلب مال وخفق، وهيهات القلب إذا ما خفق أو مال أن يهدأ أو يستكين! وغصّت بديعة، وصارحته هي أيضاً بالكثير، فانكشف الاثنان مواجهة كصفحتي ورق، واحدة تغطي الثانية، وواحدة تقرأ الثانية وهي موصولة بها، وواحدة لها روح الثانية وجلدوتها الباقية!!.

ولم يدر الاثنان، لا بديعة، ولا زوجها، كيف تواعدا أن يتوادعا قرب ذلك الغدير المسيّج بنباتات الجرجير، وأعواد القصب، وأشجار الصفصاف الحانية، ومشاتل الطرفا الكثيفة، فتسابقا، خطوة خطوة، وابتسامة تستولد ابتسامة، وأحاديث تتناوب مع أحاديث إلى أن وصلا إلى الغدير، فارتمى أحدهما قرب الآخر بصخب طفولي جميل، على مرج من النجيل الأخضر. وماجا معاً فوق الأعشاب الطرية، فتلامست الأيدي، والأقدام، وتعانقت الشفاه، واستطاب أحدهما الآخر، وحنّ إليه، ولملم الاثنان، وقد اشتعلت الرغبة المشتركة، وتطاولت النشوة المنسية المتوارية، وضمّ أحدهما الآخر كمن يضمّ نفسه، وأحس الآخر بأن روعة الماضي تنبت من جديد، وأن

بللور جسد بديعة يتلامع ثانية وبكل الألق الرفيع، وأن رجولة زوجها تظللها، وأن الدنيا راقت لهما مرة أخرى، وأن ثمة بقية من النشوة لا تزال في الذات جمرة حارقة. وسخر الاثنان من اتفاقهما على الموادعة، وهما الموقنان بأن أحدهما خُلق للآخر، وأن الآخر لا حياه له بعداً عن الثاني، فالموادعة كذبة ليس إلا، ومكاشفة ليس أكثر، خطوة عجلى إلى الماضي الجميل. وضحك الاثنان، وتعانقا طويلاً في صمت بعيد، وهدأة لا ضفاف لها! ثم لم يدر أي منهما من قاد الآخر نحو الغدير، ومن ارتمى أولاً في حضن الماء الدافىء الصافي، ومن منهما بدأ يشدّ الآخر نحو قاع الغدير، نحو الأسفل، نحو الوداع. كما لم يدر أيّ منهما من ابتلع الماء أولاً، أو من غرق أولاً، فقد طفا الاثنان بعد وقت قصير فوق وجه الماء بلا أنفاس، وقد تعانقا ذراعاً بذراع، داخل سرير الماء اللدن المسيّج بالخضرة الوارقة!!.

وحين شاع الخبر، عم الحزن، وهجر حنا والديه، والصبايا اللواتي حوّمن حوله طويلاً، ونذر نفسه للدير، بعدما أحسّ بأن بوابة الحياة انغلقت بوجهه. وقد رحلت بديعة!!.

وهو يريد، في الدير، أن يفتح بوابة أخرى تأخذه نحو مرضاة السماء عنه، بعيداً عن النشوات الدنيوية، والغوايات التي قد تصادفه بين الناس. فتنقل من دير إلى دير، وتعلم الكثير الكثير، فأحسّ من هم حوله بأنه مشى أكثر الدرب للوصل إلى مرضاة الله، وبات قريباً جداً

منه، وأحس هو بأن النسيان صعب، وأن الجرح المفتوح (الذي كُتب عليه أن يكون مفتوحاً) سيظل مفتوحاً سواء أعاش في الدير، أم بين الناس. كانت الروح نافرة نحو بديعة، هائجة حيرى بفقدها، وكانت أطيافها التي تتوارى منه في أثناء النهار، تحط فوق قلبه ليلاً، أطباقاً من الجمال، طبقاً فوق طبق، ونشوة فوق نشوة. وحلماً فوق حلم. ولم يكن أمامه من حيلة يأخذ بها لطردها سوى الصلوات، فصلى كثيراً؛ غير أنه وجد أن الصلوات تقرّب بديعة إليه أكثر، تنشرها أمامه مخلوقاً من الثلج الذي يتكون ويتشكل ذرةً ذرة في سقوط بديع، ولا أجمل، من سماء عالية؛ حانية. نسعى إلى إماتة قوة الجسد، بالانقطاع عن تناول الطعام، وبمواصلة العمل القاسي ليل نهار.

لكن ما الذي سيفعله حنا، وقد صار الآن في دير وحيد، منفرد، فيه ثلاث نساء جميلات، راهبات، لكل واحدة منهن قصة؟! ماذا سيفعل لو انكشف جمالهن عليه، في لحظة غفوة بعيدة عن الصلوات، وانطفاء الجسد! ماذا لو درى أنه في حقل الأنوثة المتوارية، لا في دير وحيد منفرد على قمة جبل؟!.

3 ـ الراهبات..

ما من أحد في قرية الشماصنة، يعرف شيئاً عن الراهبات في الدير. الجميع يعرفون بأن عدة رهبان رجال يقومون على شؤون الدير. يتغيرون بين حين وآخر، وأن عددهم يزداد أو يتناقص وفقاً لمعايير يعرفها الرهبان أنفسهم. فمنذ فترة قصيرة، ماتت الأخت الكبرى، ودفنت بجوار الدير، وبذلك صار للدير مقبرته الخاصة. كانت الأخت الكبرى عجوزاً قصيرة، ممتلئة بعض الشيء، دائمة الصلاة في جلوسها ووقوفها، دائبة الحركة، نشطة، تنظف الأمكنة، وتسهر على راحة الرهبان الثلاثة الموجودين الآن في الدير، عفواً على راحة الراهبات الثلاث الموجودات الآن في الدير، وما كانت الأخت الكبرى تعرف أن رهبان الدير راهبات ليس بسبب عدم فطنتها، أو غياب حسها الأنثوي، وإنما لضعف بصرها الذي راحت تفقده شيئاً فشيئاً مع الأيام، حتى صارت في أواخر عمرها ترى الأشياء كالضباب.. متماهية، ومتداخلةً فيما بينها.

ماتت الأخت الكبرى، وانفردت الراهبات الثلاث بالدير، وقد لبسن جميعاً الزي الرجالي فقصرن شعرهن باستمرار، وكلما طال، بحيث يظل في الحد المقبول والمعقول، وأخفين جمالهن بطرق شتى، وابتعدن عن حركات النساء وهجرتها، كما تدربن كثيراً على حركات الرجال وتصرفاتهم حتى اعتدنها، فصارت جزءاً من سلوكهن، لكن ظل أكثر ما

يعذبهن ويحرجهن أمام الآخرين، هو نعومة أعضاء أجسادهن وأنوثتها، وكذلك وجوههن الملط!!

لقد جئن إلى الدير ليتعمّن حيازة رضا الله، ومحبة الناس ومساعدتهم دونما غاية، أو شهوة، أو مآرب.. صغيرةٌ كانت أم كبيرة!

عشن في أديرة كثيرة فترات قصيرة وطويلة، واعتدن الإخلاص، واللهفة على الآخر، وارتضين بأن يكن مراهم شافية لجروح الناس الظاهرة منها والمخفية، وهن اللواتي أخفين جروحهن الكبيرة والعميقة داخل صدورهن دونما مراهم أو عزاء. لقد جمعهن الحزن، والمآسي، والخذلان، في هذا الدير، وكن موقنات بأن يتعلم الأطفال على أيديهن أصول الدين، والصلوات، وأن تتعلم الفتيات أشغال البيت، وأن يتهيأن للحياة الأسرية، وأن يكن قادرات على حل المشكلات، وفض الأحزان، وتقبل الاعترافات وغفرانها.. كن موقنات أن كل هذا سيجعل حياتهن هانئة ورضية، أو أن يجعلها على الأقل بعيدةً عن الماضي، والأحزان، ودروب الشوك الكثيرة التي مشينها بأقدام طرية حافية!!

لكن، وعلى الرغم من الأحزان الدائمة، والوحدة المديدة، وابتعاد الناس عن الدير وانصرافهم إلى شؤون الحياة الأكول، صنعن معاً حياة جميلة داخل الدير، كعش يتسع لثلاث راهبات جميلات، يعملن كثيراً، ويتذكرن كثيراً، ويبكين كثيراً، والواحدة منهن تعترف للأخرى، والثانية تعزي الأولى، والثالثة تستطيب حمّى المرض لتهدّ نزوع النفس نحو دنيا لم تقابلها في يوم من الأيام بصباح دافىء جميل مُرتجى! وكلهن كنّ يكثرن من الصلوات في ساعات القلق الطويلة، ولحظات الخوف المتواصلة، ومواقيت الطمأنينة حين يتآخين في هجعة واحدة فوق سرير واحد، على حلم وحيد انكسر، وما يزال ينكسر، تقصّف أمامهن مثل أعواد الحبق اليابسة!!

كنّ حريصات على أن لا تظل الواحدة منهن وحيدةً كي لا تكرّ عليها مراجع الأيام، وكي لا تدهمها أحزان الماضي. كن مقطورات إلى بعضهن بعضاً بإرادتهن، إن صمتت الواحدة منهن تتحايل الثانية عليها، وتخرجها من شرودها، وتسايرها بأي حديث كي لا يجرحها الصمت بهدوئه الحاد.

كن في البداية متنافرات في أشكالهن، وتصرفاتهن، وطبائع السلوك، لكن الهموم المشتركة، والأيام المتشابهة وثقلها القاسي، وكثرة المعاشرة، والمخالطة، وحّدت تصرفاتهن وطبائع السلوك، حتى كادت أشكالهن تصير نمطاً واحداً مكرراً في الطول، والنحافة، والرقة، وانغلاق الوجه، وتوامض العينين وترامشهما. لقد اتفقن على مواعيد الاستيقاظ، والنوم، ومواعيد الزيارات، وتناول الطعام، واختارت كل واحدة منهن نوع العمل الذي ستؤديه، والواجبات التي ستقوم بها، لكن ذلك لم يلغ خصوصية أي واحدة منهن، ولم يخف تميزها!.

ماريا:

كانت ماريا ابنةً وحيدةً لأمها العجوز المريضة المقعدة. وكان البيت صغيراً وجميلاً في الطرف الشمالي للقرية، له سياج من العليق، وفوقه أراجيح خضراء من دوالي العنب، كانت الأم القصيرة لا تدري شيئاً عما يحدث خارج فراشها، بعدما فقدت السمع، وتورمت ساقاها، وتراجعت صحتها كثيراً. وحارت ماريا بحالها وحال أمها، وودّت لو كان بمقدورها أن تقبض على مفاتيح الدنيا لتخرج أمها من مرضها الذي استدام طويلاً؟ أمها العازمة على الرحيل، بعدما نفضت يديها من الحياة التي كانت تقول عنها بأنها جميلة، لكن لمن ملك الجسد والمال. وها هي أمامها تصير بلا جسد، وبلا مال، فلتبكر بالإياب. كانت أمها تصد عن الطعام، وتعوف الأدوية، وتكره النظافة من أجل أن تتعاون أكثر مع مرضها وصاحب الموت ليأخذها إلى العالم الآخر، الذي ترجوه أن يكون أكثر سعادة، وأقل تجربة!!

وكانت ماريا من حولها، تكاد تلوك نفسها، وهي تراها ممددة في فراشها بانتظار الصرخة الأخيرة والنفس الأخير. وماريا عاجزة عن فعل أي شيء لها يجعلها تقف مرة ثانية على قدميها؛ فتخطو، عاجزة عن إعادة الابتسامة إلى وجهها ولو مرة واحدة، بعدما اصفر لونها، وتساقطت أسنانها، وغاب سمعها، وشحت رؤيتها، وتباطأت حركة أصابع يديها، حتى صارت جزءاً ثابتاً من البيت.

لم تكن الأم واهمة كثيراً، حين قالت لابنتها ماريا؟.

«ودعيني يا بنتي، واشبعي من رؤيتي، فأيامي قربك قليلة، اسأليني أجب، وحدثيني أسمع، اضحكي وافرحي،

وغني لي ليكون هذا زاداً لي في رحيلي القريب نحو العالم البعيد»!!.

فتبكي ماريا، وتنتحب، وتحار ماذا تفعل، فأمها ماضية بلا شك؟! ولم يكن أمامها من ملجأ أو معين سوى الصلوات، والصبر، والأمل!!

كان القلق والخوف من المستقبل همّا من يؤرقان أن حياتها، بعد أن ترحل أمها، فهي وحيدة لا حول لها ولا قوة، سوى جمال وجهها، وحضور جسدها. كان قلبها لهوفاً، جزعاً، وروحها متسامحة، وتصرفاتها على غاية من البساطة، ترضى بالقليل وتدهش به، وقد عانت الكثير من الحرمان، والأمنيات التي لا تهبط على الأرض فتصير واقعاً. أحبت دغماس، وأحبها، وأحست بارتباكه أمامها، ولطافته ورقة مشاعره، وخوفه عليها من الأحزان والأيام، وهي في شدة مرض أمها. كان يتأسى أمامها ويبكي، ويأخذها إلى صدره كمن يأخذ أحزانها ويضمها إلى أحزانه محبة لا شفقة. وكان حين يأخذها إلى صدره، يمسح دموعها، ويهدىء روعها، ووجيب قلبها بكلامه الحلو، ولهفته البادية. يرسم لها المستقبل المشترك بكل زهوه وأمانه وأحلامه القريبة المنال، يعدها بأنه سيكون لها: لها وحدها في الحضور والغياب، وأن لا حياة له بعيداً عنها، فاطمأنت ماريا إليه، وسكنت إلى جواره، وباحت له بمشاعرها، وانكشفت عليه، وأعطته كل ما أراد!!.

كانت تحس صدقه في كل كلمة، ولمسة، وآهة، ودمعة، ولم تدر أنها، ومع الأيام، كانت تبدد صورتها الجميلة في ناظريه، وأنه بات يتقرب إليها بفعل الاعتياد ليس إلا، وحين رحلت أمها وصارت وحيدة، هجرها وأمعن في الغياب، فطاردته، وسألت عنه، لكنه ما عاد يُرى. انتظرته سنوات، ولم يأت، وباتت أخباره لا تصل إليها، فصارت هي

ندبة الأحزان؛ في قرية مكشوفة مثل النهار! وضاقت بها الدنيا، وعبست في وجهها الأيام، في النهار تعمل لتأكل، وفي الليل تسهر على خوفها وقلقها، وقد حوّم حولها الرجال كثيراً كالوحوش، يريدون افتراس الجسد الذي وقع مرة أو مرات مفضوحاً أمام دغّاس الذي غاب!! كانت تصرخ، وتستغيث في الليالي المظلمة، والطامعون بها، من حولها كالسياج. دقٌّ على الأبواب، ودقٌّ على النوافذ وهي في وحدتها، متكورة على قلقها وجزعها.. تصلي. ولم يكن أمامها سوى اللجوء إلى الدير.. لتنسى!!.

اعتراف أولي:

«جاءتني ماريا، فتاة جميلة، طويلة، رقيقة الحواشي، شاحبة الوجه، مُصفرة، نحيلة، عيناها مطفأتان، لا بريق لهما ولا رونق. كانت باكية عاثرة الخطا، واهنة. رأيتها تدخل الدير خلسة، بيدها صرة ثياب، أو صرة طعام (عرفت فيما بعد أنها صرة ثياب وطعام معاً. فيها ثوب لها، وثوب لأمها، وأسوارة من العاج لأمها أوصتها بأن تأخذها حين تموت؛ الإسوارة ذات لون أبيض صافٍ). كانت لا تدري ماذا تفعل، الحيرة تلفها، ونظراتها السائلة تأخذها من مكان إلى مكان. كانت تبحث عن كرسي الاعتراف، بل كانت تود أن تعترف بكل ما لديها، قبل أن تتعرف إلى أحد في الدير. كان الكرسي فارغاً، وكنت أمر بالقرب منه، في أحد الأروقة، رأيتها تنظر إلى الكرسي بوجل وخوف، وقد وقفت قربه تماماً، رأيتها مترددة، ورأت أنني عرفتُ قصدها. أشرت لها بيدي أن تركع، فوراء

الستارة، وراء الشباك، واهب بانتظارها، فتقدمت خطوة أو خطوتين، ووقفت ثانية، ثم وضعت الصرة قربها، وراحت تلتقط حبات الدمع التي تنحدر فوق وجنتيها، وتتساقط فوق صدرها، وثوبها. وبأصابعها راحت تطفىء دموعها، وظلت على هذه الحال إلى أن استدرت وقابلتها. همهمت لها، وقد رأتني، ورجوتها بحرقة أن تقول كل شيء حتى تريح نفسها وأن الله سيغفر لها، ما دمت قبلت بأن تعترف في حضرتي. وهمهمت مرة ثانية، وقد طال صمتها، كانت تشرق بدموعها، وقد اغتسل وجهها تماماً، فما عدت أعرف كيف اختلطت دموعها بندى أنفها. صار وجهها باكياً تماماً. فانتظرتها وقتاً آخر، ولم تقل كلمة واحدة. ثم انتظرتها. ولم تنه بكاءها. كانت حزينة، وذليلة، لا تدري كيف تبدأ بالكلام، ومن أين؟! لذلك قلت لها:

منذ متى وأنت على هذه الحال؟!

فلم تجب. ولم ترفع رأسها مرة ثانية لتراني. كنت قد عرفت الكثيرات، والكثيرين من قبل، والندامة تلفهم، والمسكنة والمذلة تمشي بهم، والخوف والرجاء يقودانهم إليّ، لكنني لم أصادف أو أرَ فتاةً مثل هذه، في أول عمرها، وردة زاهية في أوانها، ونسيت نفسي، ومقامي، وخرجت إليها، أخذتها من ركوعها، أنهضتها ومشيت بها إلى داخل إحدى غرف الدير، وجالستها، سقيتها ماءً، وبعض النبيذ، وسألتها، بعد وقت مضطرب حارق، عن اسمها، ومن أين هي، وما

الذي فعلته، ولماذا كل هذا الحزن وهي في زهوة الشباب ونضارته؟! ولم تجب، بل قامت من مجلسها وركعت أمامي، وهمّت بالكلام، ولحظتئذٍ، أخذتها من ركوعها الثاني، رفعتها، وخرجت بها إلى كرسي الاعتراف مرة ثانية، فمضت عاثرة، متهيبة، وصرة ثيابها وطعامها بيدها، دخلت بشجاعة أكثر، وركعت. رمت الصرة بقربها، وهي لا تزال تبكي. ونظرت إليّ، فرأتني، وهمهمت لها، بأن الله سيغفر لها، فلتقل ما تشاء! وأخبرتني باسمها، ومكانها، وبحبها لدغاس، الذي حملت منه طفلاً، ولدته بالسر، وأعطته بعد عامين من رضاعته لامرأة عجوز في إحدى القرى لتربيه، مقابل بعض النقود تعطيها لها في ذيل كل شهر، فوافقت العجوز وقد أخذت منها مقدماً بعض ما كانت تملكه أمها من ذهب. لكن العجوز لم تهتم كثيراً بطفلها الذي كان سرها، فوقع الطفل في قدر للحليب، كان فوق النار يغلي، ومات!! وحين جاءت تسأل العجوز عن ابنها، أخبرتها بالحقيقة، وأرشدتها إلى قبره، وأعادت إليها ذهبها، فضاقت الدنيا عليها وجنت أو كادت، وتحاملت على نفسها، وصبرت، لعل دغاس يأتي أو يبين، لكن من ذهب ذهب. وأحست أن حياتها مع الناس صارت بلا جدوى، وعبثاً، لذلك جاءت إلى الدير من أجل أن توهب حياتها للآخرين، لكي تكون بخدمة الرب!!.

وصمتت، فعرفتُ أنها انتهت، طالبتها بالمزيد، فلم تقل شيئاً، وطلبت من الله أن يغفر لها، وأوصيتها بالصلاة،

وناولتها بيدي جسد الرب، خبزنا المبلل بالنبيذ المبارك، وقد ندمتْ أشد الندم، فعاودها البكاء.

وفي الدير وجدنا لها مكاناً تنام فيه، بعدما صارت في خدمة الرب. كانت تصلي كثيراً، وتعمل كثيراً. وكانت خادماً مطيعاً، دمعتها تسبق كلمتها. ومع الأيام صارت محبوبة من الجميع بطلتها الحلوة، وكلامها الهادىء المؤثر، وقدرتها الكبيرة على كسب الآخرين، وقد لجأت إلى الإماتة، والانقطاع عن الآخرين مرات ومرات!!.

اعتراف آخر:

وحين انتقلت ماريا من ديرنا، تقصدت قبل رحيلها بساعة أن تلتقي بي، وأن تتحدث إليّ. كنت متعباً، ومكتئباً لا أريد مخالطة أحد أو الاستماع لأحد، لكن إلحاح ماريا جعلني أوافق على الاستماع إليها. قلت لها: اجلسي وتحدثي، قولي ما عندك. فقالت: ليس هنا، أريد أن أعترف. فاستغربت أمرها، وقد رأيت رأسها مدلّى كالمقطوع. ذكّرتني بيوم اعترافها الأول. فقمت من فوري كالمقروص، ومضيت وإياها في ممر واحد، أنا ذهبت إلى كرسي الجلوس، وهي مضت إلى مقابلتي، وركعت، فرأيت دموعها، وانكماش يديها، وارتباكها الشديد، وسألتها:

- ماذا لديك يا ماريا!.

فقالت: لقد التقيت دغاس مرة أخرى. فدهشت، وأنا

الذي أعرف بأنه غائب، لا يعرف مكان وجودها أو شيئاً من أخبارها، لأن ديرنا بعيد عن قريتهم مسافات طويلة جداً.

قلت: كيف؟!!.

قالت: هنا!!.

فسألتها: وماذا حدث؟.

فقالت: منذ لمحته رقص قلبي له وصفق، وغفرت له (أظن بأنني غفرت له قبل أن أراه مرة ثانية، لقد غفرت له منذ زمن بعيد). وخرجت معه راجفةً راعشةً، أكاد أتوحد معه في خطوته، وهمسته، ولمساته، كنت ذائبة فيه، لا أحس بأنني أمتلك جسدي أو زمام خطوتي. كنت مشدودة إليه كأنني أراه للمرة الأولى وقد سحرني، وتحت أول شجرة لائذة وهبت له جسدي من جديد. فأشعرني بأن الحياة هي معه، لا في الدير. ورجوته أن نرحل بعيداً، نبني حياتنا التي حدثني عنها. فوعدني أن يأتي في اليوم التالي، فهو سيأخذني معه من الدير إلى مكان آخر، إلى عشق آخر، إلى دنيا أخرى... ليعوضني أياماً جميلة بدلاً من الأيام الطويلة المرّة التي عشتها بعيداً عنه. لكنه لم يأت، انتظرته أياماً عديدة ولم يأتِ، ثم انتظرته سنوات ولم يأت أيضاً. ولم أستطع أن أطفيء حنيني إليه بالصلوات الكثيرة، فهو معي، يجري في دمي، وأخاف إذا ما أتى مرة ثانية إلى هذا الدير المقدس أن أحل ثوبي له مرة أخرى ليس تحت أول شجرة، وإنما هنا، فأطلبُ المغفرة لي لأنني نادمة، وتائبة توبة الحقيقة

المطلقة؟!!.

وشرعت تبكي بصوت عالٍ تواح، وما أن ضبطت بكاءها ودموعها، حتى سمعتها تقول لي: ولهذا طلبت نقلي من هذا الدير الذي أحببته كثيراً إلى دير آخر بعيد بعيد؟!!.

وتمنت أمامي أن يعجل الربّ بموتها، أو أن يبعده عن التجارب المريرة والشريرة، لأنها ما عادت تحتمل المزيد. وطلبت المغفرة لها مرة ثانية، وناولتها جسد الرب، وسمعت ندمها الحزين،وعرفت أنها صلت كثيراً، ولجأت إلى الإماتة أياماً عديدة.

اعتراف ماريا الأخير:

«هنا في هذا الدير، النائي، الجميل. حاولت أن أقتل شهوة الجسد بالعمل، والصلوات، والركض، والسجود والركوع، وبالإماتة، والنذر، والطاعة، والعفة، ومعرفة مشكلات الناس وأحلامهم، واستطعمت مرات عديدة حلاوة مساعدة الآخرين ومحبتهم وإن كانوا قساة، بغضاء. لكنني لم أستطع نسيان دعّاس، كان معي، في مأكلي ومشربي، وفي قيامي ومضجعي، طيفه يلازمني، رغم قسوته، ونذالته، كنت أحس بأنه قادم إلى هنا، إلى هذا المكان في يوم ما، في ساعة ما، وإني لن أتوانى ولو للحظة واحدة عن فتح ذراعي له، وأخذه إلى صدري في ضمة عمرها ألف عام، معتقة مثل الصلاة الرحيمة الشافية. واقتنعت بأن ألمي وعذابي في جسدي، وأن

جسدي هو بؤرة الرذائل، ومحرقة الأحزان، وجمرها، واختليت بنفسي مرات ومرات، وناجيت الرب، وسألته الخلاص، لكن الحال ظلت هي الحال، ولهفة نفسي للقيا دعاس تمت أكثر كلما اجتهدت في طردها ومحوها. لكن هل سيأتي؟! ثم من أدراني بأن الملاك الحارس، حنا، الذي جاء ديرنا مؤخراً، ما هو إلا دعاس، وقد تخفّى بشعر رأسه الطويل، ولحيته الكثة، وشاربيه اللذين يغطيان فمه وأسنانه. لكن قلبي ما لهف له، ولا أنشد إليه. لم يحرك فيّ شيئاً، لكن لماذا تهجم صورته عليّ الآن، لماذا تتوحد قامته بقامة دعاس، ولماذا أراه بلا لحية، بلا شاربين، لماذا أحسّه الآن هو دعاس حقيقة. لماذا أرتعش ولماذا أقف، ولأي شيء أرتدي ثيابي، «إلى أين أخرج؟! يا إلهي، أين أنت!! أنقذني؟!.

أغلق الأبواب بوجهي، خذ خطوي، أطفىء بصري، وامحُ إحساسي به، إنه يلفني بأنفاسه اللاهثة، إنه يحرقني، أحسّ بحبات عرقه الساخنة تنحدر فوق جسدي تكاد تحرقه أو تثقبه. إنها همهماته، ونظراته العطشى، وأصابعه الشبيهة بالشموع، تمسح جسدي، يا إلهي، أين أنت، أنقذني»؟!.

تذييل - 1:

ولقد ملأت ماريا الدير بالعرائس الصغيرات الجميلات، الزاهيات بثيابهن، وألوانهن الصافية، وبشعرهن الطويل المضفور، والمربوط بالشرائط الحريرية.

كانت تغني لهن، و تهدهدهن في أسرتهن، وتصبّح عليهن في بكور الصباحات، وتنظر إليهن بأسى نظرات الوداع بعد صلاة النوم من كل مساء كانت تحسّ بأن كل عروس هي ولدها الذي كان، وهي حلمها الذي لا ينتهي، وسعادتها الباقية»!.

تذييل - 2:

وأبداً، لم تتوقف ماريا حنا أو تجالسه إلا وكانت في حالة شعور بأنه ليس رجلاً!.

وما لمسته سوى مرة واحدة، حين غسلت له وجهه، ويديه، وصدره، وشعر رأسه، عندما أصيب بسقوط عنيف من فوق إحدى الصخور، كاد أن يحطمه، هذا السقوط الذي ولد له مع الأيام وقعات عدة بالصرع، فزبّد فمه، وزخّه العرق، وغاب عن الوعي مرات ومرات. فكانت الراهبات يتعاونّ على مساعدته، وإعادته إلى صحوه مرة أخرى.

ماريا، وفي واحدة من سقطاته، من فوق صخرة كبيرة وقد قبضت عليه نوبة الصرع، بللت يديها بالماء ومسحت وجهه وصدره، وأزالت زبد فمه، ونشفت عرقه، وحنا ذاهب في غيبوبته، ولم تدر ماريا كيف نسيت نفسها، وهي وحيدة معه، وبمواجهته تماماً، وقد صار بين يديها، في مكان بعيد عن الدير، فارتمت عليه، وشمّته، وقبلته، وهامسته كالمجنونة، ونادته بلهفة:

دعّاس، دعّاس.

ولم يستجب لها، ظلّ ينضح عرقاً، متلاهثاً، متوتراً، مزبّداً، وشكله لا يسرّ أبداً بعدما مال فمه ميلاً شديداً نحو الأسفل، وتغطّى باللعاب المزبد، وانكمش وجهه كالمشلول. وماريا غير عابئة بكل هذا، تقبّله وتشمّه وتهمهم له، دون أن يحسّ بها أو يفيق! ولم تفارقه إلا قسراً، بعدما رفعتها الراهبتان عنه، وقد رسمتا علامة الصليب، بعدما أرعبهما المشهد وهزّهما.

ولامت ماريا نفسها، وقست عليها، وندمت كثيراً وصلّت، وانقطعت إلى الإماتة مدة طويلة من الزمن، حتى نشفت عروقها، وباتت لا تقوى على المشي، أو الكلام، ورجت الراهبتين أن تقبلا اعترافها، فقد أخطأت خطأً كبيراً في دير بعيد، منفرد، فيه حنا جمرة للخطايا، ووكر للثعابين السامة، وبعد طول إلحاح، قالت الراهبتان لها:

- هذا مكان للصمت لا مكان للكلام!!.

وبكت ماريا طويلاً، وتوسلت إليهما، لكن دونما نتيجة، ظلت الراهبتان في صدود عنها، وقد استغلظتها ذنبها، وانفردت ماريا بنفسها طويلاً، ورجت الله أن يغفر لها، لكن نفسها ظلت حائرة وقتاً طويلاً، ولم تهدأ إلا بعدما طالبت الراهبتان من الله أن يغفر لها. ومع الأيام انصرفت ماريا عن حنا، وتجاهلته كأنه غير موجود، وما عادت تراه إلا لمحاً، وحين تراه تسارع إلى التواري والابتعاد عنه كأنه الشيطان، وهو لا يدري لماذا يتحاشاه هذا [الراهب]، ولماذا ينفر منه، ونهضت اللا مبالاة بينهما

كالجدار!!.

تذييل - 3:

«كان حنا، في الأيام القائظة، والشتوية، وحين يطمئن إلى انفراده بالمكان، يخلع ثيابه، قرب الغدير المحاذي للدير، ويغتسل بمتعة وهدوء وحذر، دون أن يدري أن جسده الجميل كان محرقة لنظر ثلاث راهبات رحن ينظرن إليه نظرات عميقة، واحدة تنظر إليه بشهوة لم تتوارَ بعد، وأخرى تنظر إليه لتنسى، وثالثة تنظر إليه لتتذكر ما حرمت نفسها منه طواعية، ودون أن يدري أيضاً أنه يعيش في دير، فيه راهبات لا رهبان»!!.

صفية:

«ذات ضحى ليوم أحد، وفي هذا الدير تماماً، كان الدرب الترابي المتسلل بحنان بين الأشجار التي ضاقت عليه وزاحمته، يقود رجلاً عجوزاً وطفلة صغيرة ابنة أربع أو خمس سنوات صاعداً بهما نحو الدير. كانت الطفلة تنظر إلى الرجل العجوز الذي يدفع قدميه دفعاً نحو الأمام، نحو الدير المطل على الدنيا بقبعته القرميدية القريبة جداً من السماء، وسط خضرة داكنة جميلة، وأنسام رائحة غادية، بليلة بالشذا وثيث الماء، وبرودة المسافات الرائقة، فتحادثه، وتلاعبه طوال وقت المسير على الدرب الطويل الملتوي. كانت الطفلة، واسمها

صفية، تُفلت يدها من يد الرجل العجوز وتركض أمامه فيتراقص ثوبها الأبيض الجميل، ويلتفُّ حول جسمها ممتلئاً بالهواء، فيعلو ويهبط مثل الفراشات الطروب، كانت ممتلئة بالبهجة والسعادة، فهي تأتي إلى الدير صباح كل يوم أحد مع هذا الرجل العجوز، الذي تناديه جدي (وهو في الحق ليس جدها، فقد تبناها صغيرة ابنة عشرة أشهر، لأبوين فقدا في سفرات البحر، ونجت الطفلة بفضل سلتها القشية التي عامت على وجه المركب، وفوق صفحة الماء، من بعد، حين انقلب المركب وغرق بمن فيه). كانت صفية في مشاوير يوم الأحد، جذلى، ضحوكاً، تركض، وتدندن، وتهمهم، وتنادي جدها، وقد أحاطت العديد من جذوع الأشجار بذراعيها الصغيرتين الناعمتين، ودارت حولها لكأنها تمرجح الأشجار أو تلاعبها، وكانت تلتقط فناجين الصمغ الأشقر من فوق سطوح الجذوع، وتريها لجدها، وتقطف الأزهار، وتشمها، ثم تقدمها لجدها أو تجمعها في ضمة كبيرة، وتقدمها للراهبات في الدير، فتدخل السرور والفرح الصباحيين إلى نفوسهن، وهن اللواتي ضحين بجمال الدنيا وسعادتها من أجل الآخرين، وفضاءات العالم الآخر الأكثر سعادة وجمالاً!!.

في ذلك الضحى البديع، كان الجد على غير عادته حزيناً، من دون أن تفارقه الابتسامة حين تسأله أو تعاتبه صفية، كان مكتئباً، وتائهاً، وشارداً أيضاً، فقد كان يعود من تأملاته، وأحزانه الخاصة كلما تكلمت صفية معه أو شدته، ثم لا يلبث أن يعود إلى شروده، وبدا (وصفية

بعيدة عنه، تركض وراء الفراش، أو تقطف الورد، أو تمرجح الأشجار) حائراً، يهز رأسه بأسى، كلما شرد أكثر أو طال في تأملاته. فقد كان فزعاً، وحزيناً لأنه سيسلم صفية للراهبات في الدير، لأنها وحيدة، لا أهل لها سوى الله، وأنه نذرها للدير، بعدما رباها أربع خمس سنوات حتى غدت هي سرّ حياته وسببها، بعدما صار وحيداً بلا ناس! كان يخاف على صفية أن تستيقظ ذات صباح فلا تجده سوى جثة هامدة في فراشه، فتفزع، وتخاف وتنغلق عليها الدنيا وهي طفلة لا تدري من أمورها وويلاتها شيئاً، خاف أن تأتيه صفية ذات صباح أو مساء، فتهزه داعيةً إياه أن يقوم ويغتسل أو يشعل المدفأة، أو يأكل، أو... فلا يستجيب لها، لأن الجسد انتهى، وفرغ من جدواه، ومضى إلى الاستجابة الأخيرة، فتذهل الصغيرة، وترتعب!! لذلك جاء إلى الدير في هذا الصباح الجميل المبارك، مصمماً على قناعته الأخيرة بأن يسلم صفية للدير، لتكون ابنة له، وقيّمة على شؤونه حتى تكبر (وذلك بعدما صمم مرات عديدة أن يسلمها للدير منذ أكثر من سنة، لكنه وفي كل مرة، وأمام حنينه الجارف إليها يعود بها إلى بيته، ويؤجل مفارقتها أسبوعاً آخر) كان الرجل شبحاً أو يكاد، يمشي كالواقف تماماً، يدفع جسده بأنفاسه، ورغبته في الوصول، لا بقوة الجسد، ولا بالخطا. لذلك أحسَّ بأن هذا الصباح هو الصباح الأخير الذي يستطيع خلاله مرافقة صفية إلى الدير، ولو ببطء شديد. كان يهز يديه إلى الأمام وإلى الوراء كي يوهم صفية أنه يحث الخطا

أكثر باتجاه الدير حين تغضب منه، وتصرخ في وجهه مذكرة إياه أنهما تأخرا كثيراً، وأنهما قد لا يجدان أحداً من الأطفال في الدير لترى ثيابهم النظيفة وهدايا يوم الأحد، ولكي تلعب معهم أيضاً، وأخيراً ومع وصولهما إلى الدير كانت الراهبات باستقبالهما، وقد كن على علم بالمفارقة القاسية التي ستحدث بعد قليل، أو بعد ساعات، أو قبيل الغروب!.

في ذلك النهار ركضت صفية كثيراً، ولعبت كثيراً، وأكلت كثيراً، كانت فرحة فرحاً عظيماً، ومن فرط تعبها نامت، وعند تلك اللحظة فقط، نهض الجد، ونوى الرحيل، فأمرت الأخت الكبرى، حوذي الدير بأن يشد العربة على الجود، ويأخذ الجد إلى القرية، وهذا ما حدث فعلاً فقد رحل الجد، بعد أن قبّل صفية مرات عدة، وبعد أن بلّل وجهها ووجهه بالدموع الغزيرة. ودّعها، كمن يودع حياته القادمة، ومضى، والتفاتاته الحزينة موجهة صوب الجسد الطفلي النائم بحريره الأبيض وإغفاءاته الطويلة الهانئة. مضى الجد إلى بيته، ولم تمض عليه سوى أيام قليلة فمات. وصفية في الدير تبكي مجيئه الذي طال، وغيابه الذي ما صار حضوراً، ونمت وكبرت في الدير، تعلمت فيه، وعاشت فيه ثم تنقلت بين أديرة كثيرة إلى أن جاءت إلى هذا الدير، وها هي لا تزال للآن تعيش فيه، وهي لا تتذكر من الرجولة، والحياة الأخرى البعيدة سوى ذلك الجد النحيل، المرتعش، النابت الشعر، الضيق الوجه، الحنون، الذي كانت ضمته الواحدة تساوي عندها الدنيا وما فيها. إنها

الآن في الدير تنظر أحياناً، إلى جسد حنا، وقد تعرى قرب الغدير القريب من الدير، فترى جمال الجسد الرجولي الذي حرمت منه طواعية، وبفعل الظروف وتصاريفها، إنها تقارن ما بين الجسدين، جسد حنا المصقول، وجسد الجد المتراخي، وتعزو ذلك لأن حنا قاسٍ وصلب، ولأن جدها الحنون، ليّن!!.

اعتراف أول:

وأحس بأنني لا أعرف الرجل، وبأنني أخالطه في وحدتي كالحلم وكأنه الهواء، أو نعومة ستائر شباكي، أو ملحفة لحافي الحريرية الملساء. أحسه شيئاً حلواً، ولا أدري لماذا أحسه كذلك، إنه مخلوق جميل شبيه بجدي، الذي كان يقبلني فأطرب لقبلته، وضمته، على الرغم من أنه كان يشوكني بشعر وجهه النابت الذي كان لا يحلقه إلا مرة واحدة في الأسبوع، وصباح يوم الأحد، وقبل شروق الشمس، كنت دائماً أراه في صباح الأحد أكثر جمالاً وشباباً وحلاوة، زاهياً ببدلته الوحيدة التي أحفظ شكلها، وعدد أزرتها، ولونها، وتطريزها الظاهر في القبة والأطراف. فأندفع إلى حضنه بطواعية أكثر، وبأقل نداءات من الرجاءات التي كان يسيلها، يا إلهي إنها صورته التي تملأ فؤادي وقلبي، ولكم ضممت هذه الصورة إلى صدري؛ إلى قلبي وعليها غفوت.

بدأت أتطلع إلى الرجل حين كبرت، أحسست بأن شيئاً داخلياً يشدني إليه، نهد صدري، فتفاجأت، وبدأت أنظر إليه في المرآة، أفك أزرة ثوبي الداخلي وأنظر إلى

صدري. في البداية بكيت، خفت أن يكون الورم أصاب صدري، لكن لا ألم، ولا أوجاع، بكيت وحيدة عدة مرات، واختليت بنفسي مرات، وسألتها ما هذا الذي يحدث، وقد غدوت وحيدة في الدير، بعدما انفضت ثلاث بنات كن يعشن معي هناء لقد انتقلن إلى أديرة قريبة من مكان سكني لأقرباء لهن. وخفت أن أكشف سري أمام الراهبات، لكن ورم صدري صار كبيراً، ولم أصح على نفسي إلا عندما صارحتني واحدة من الراهبات، أخذتني إلى الحمام، وقالت لي، كأنك بدأت الخلوة التي لا بد منها، ولم أفهم من كلامها شيئاً، وأحسست بالحرج أمامها، وقد راحت تنظر إلى صدري الذي حاولت أن أخفيه بثيابي الواسعة، وما كنت أدري أن طولي راح يكشفني أيضاً، وأن عدد ساعات النوم الكثيرة والتعب الشديد، والنزق والانفعال السريعين، كلها كانت من الأمور التي كشفتني، خصوصاً عندما أخذت أتأفف من تناول بعض أصناف الطعام، وأختلي بنفسي وكأنني غاضبة أو حردة لأن الطعام لم يعجبني. قادتني تلك الراهبة إلى الحمام، وأصرت على الدخول معي، لأنكشف عليها، فمانعتها كثيراً، لكنها أصرت، وأفهمتني بأن هذا من الواجبات المفروضة عليها، فتعريت وتعرت هي، وانكشفت عليّ قبل أن أنكشف عليها، فرأيت ورم صدرها واندلاقه قبل أن ترى ورم صدري واندلاقه، ودهشت. وسألتها أنت مريضة أيضاً يا أختي، فضحكت، وشرحت لي كل شيء، تحدثت عن الأنوثة، والمرأة، وطبيعة الجسد، وكيف أنني سأستقبل مع الأيام،

وحالما أنضج أكثر، حالات تغيير أخرى، وشرحت لي أوصافها، وطقوسها، وكيفية مواجهتها، والتغلب عليها، وعدم إظهارها. في ذلك اليوم، وفي الحمام عرفت أشياء كثيرة عن المرأة الأنثى، وفهمت بأنني كراهبة يجب أن أضحي برغبات الجسد ونداءاته من أجل الرب. وأن الرهبنة بكل جمالياتها، وقدسيتها ستُحل مثل الرباط حين تلبى رغبات الجسد ونداءاته مع الآخر كائناً من كان! ووعدتها بأنني سأظل على رباطي مع الله وأن لي في الأم القديسة العذراء القدوة الحميدة لكي أتشبه بها أو أقترب منها.

كنت أظن بأن المحافظة على هذا الرباط أمرٌ هو بمقدوري تماماً، لكنني لم أستطع. فقد نما الجسد، ونهد الصدر، وراحت الروح تطوف ليل نهار بحثاً عن الرجل الذي ما من أحد سواه في الدنيا يطفىء لوعة الأنثى وانشدادها نحوه، وحاولت كثيراً ولم أستطع، فقد كنت لا أقوى على النوم في الليالي الأولى لنفرة الجسد إلا وأنا أضم - وهماً - بين ذراعي رجلاً جميلاً حلواً لأنام على صدره. وفي الصباح أغتسل من رغباتي وأمحوها. ولكم صارحت الأخت الراهبة، فنصحتني بالصلاة، والتقرب إلى الرب أكثر، وكنت أوافقها، وأوافق رغبات جسدي، لكنني لم ألتق رجلاً في الفراش، أو الغابة، لم ألمس جسداً لأي رجل، ظل جدي حاجزاً ما بيني وبين الرجال، وظلّ بيننا... الدير، والصلوات، والجهل بسر المتعة الإنسانية ما بين ذكر وأنثى!!.

اعتراف آخر:

تصارحنا أكثر حين صرنا ثلاث أخوات في الدير، اثنتان منا في رتبة كاهن، وواحدة لا تزال تحنُّ إلى العالم الدنيوي بشوق، هي ماريا، التي أحسسنا كثيراً بأنها قاومت رغباتها بقوة شديدة، فكانت تنتصر حيناً، وتخفق حيناً آخر.

لكن الحنين لا يزال يأخذها إلى المتع الأولى، والدهشة الأولى مع شاب عرفته واسمه دغاس.

تصارحنا كثيراً، وتحدثنا كثيراً أيضاً حول عالم الرجال، وعرفت أشياء كثيرة لم أكن أعرفها، فصار الرجل عندي رؤية، وحلماً، ومتعة، وعالماً غنياً مدهشاً، بعدما كان في نظري غولاً، وجفافاً، وباعثاً على الرذائل، وسببها! وتعرّفنا إلى أساليب كثيرة تستحضر الرجل ولا تقربه، لكننا اتفقنا جميعاً على أن هذه معصيات أيضاً، فابتعدنا عنها!.

وظل الأمر كذلك إلى أن حضر حنا إلى الدير! فاستيقظت الروح المرمدة تجاه الرجل مرة أخرى، لكأن ثمة جماراً لم تنته بعد، حاولنا مرات عديدة أن نبتعد عن حنا، أن نكفّ عن التحويم حول عالمه لنكتشفه إلا أننا أخفقنا كثيراً، كان مثل النار التي تجاورنا، وقد قتلنا الصقيع، كان مثل الماء وقد جفت عروقنا، ولكم حوّمنا حوله وبالقرب منه، ولكم واقفناه وسألناه، وهو في منتهى الحيرة والاضطراب من هذه السيطرة، والمتابعة. كان المسكين يظن بأننا نراقبه من أجل سير سلوكه، لكننا

كنا نراقبه، ونستحضره من أجل أرواحنا التي رأت الرجل وما عرفته، والتي عرفت الرجل وحنّت إليه، والتي رأت الرجل فبنت الحواجز ما بينها وبينه. وحنا لليوم لا يدري حقيقة ما يحدث!.

اعتراف أخير:

وكنت حين أراه عارياً، وأنا في الشباك، ترتجف أعضائي وتختلج. حالة من جفاف الريق تصيبني. رعشات طويلة تأخذني، تبعد نظري عنه، وقوى داخلية تعيدني إليه، فأراه وهو في حالة نشوة يرشق جسده بالماء البارد النظيف، ويدلكه بورق الجوز حيناً، وبورق النعناع حيناً آخر. كنت أحسُّ بأنه يعني روحي، وبأنه ضروري لي، وبأن مخالطته واجب من واجباتي تجاه الله. لكن وحالما ينتهي مشهد الاستحمام تنطفيء هذه الرغبات. يموت شيء في داخلي، مع أول كلمات الصلاة (أبانا...) ولم أتخل عن رؤية جسد حنا العاري، ولم أمنع نفسي عنها، بعدما ارتضيت واقتنعت بأن الرجل عندي هو هذه الرؤية وحسب!.

تذييل - 1:

وكانت صفية أجمل الراهبات، وأكثرهن معرفة، وقرباً من الناس، كانت مولعة بالرسم، فملأت جدران الدير بالأيقونات التي تجسد روح المسيح، والأنصار، والقرى، والسموات من حوله بقناديلها المنارة. كانت الأيقونات خالية من الحزن، والفاجعة، شفيفة وذات حنان خاص.

كان الرسم سعادة صفية، وصوتها الذي يعبر عن دواخل الذات وأحلامها. فكثيراً ما كانت تُرى من قبل أختيها وهي ترقص للأيقونة، وتدور حولها لكي تناجيها، أو تحدثها، أو توجد علاقة ما معها من خلال الرقص الذي لا تكف عنه إلا عندما يصيبها التعب، فترتمي أمام اللوحة متلاهثة، حيرة، وتبكي كثيراً أو قليلاً، وكأنها تخرج اللوحة من صدرها، أو تودعها. ثم تمضي إلى شؤونها وكأن شيئاً لم يحدث، أو لكأن طقس الرقص والبكاء من ألوان اللوحة المتممة لها، والتي لا بد منها».

تذييل ـ 2:

«كثيرة هي اللوحات التي رسمتها صفية، والتي كانت الوجوه فيها شبيهة تماماً بوجه حنا»!!.

تذييل ـ 3:

«وصفية.. هي بيت أسرار الأختين، وأسرار الدير معاً. قولها الختام، ورأيها الدرب. ونظرتها السلوك. وهي الملجأ، والرحمة، وهي المؤاسية، والغفور على الدوام، ولولاها لما كانت الأختان في الدير، ولما كان حنا أيضاً. ولما قطع واحد من أهالي القرى المحيطة بالدير قلفة طفل من أطفالهم، صفية هي التي أجازت ذلك القطع... من أجل النظافة أولاً، ومن أجل المستقبل ثانياً»!.

مرجانة:

حين جاءت مرجانة إلى هذا الدير لم يكن فيه سوى

ماريا، وصفية. كانت امرأة من قرية الشماصنة تأتي لهما بالحاجيات مرتين في الأسبوع، مرة صباح يوم الأحد، ومرة صباح يوم الخميس. وظلت هذه المرأة تأتي إلى الدير حتى بعد مجيء مرجانة.

في حوالي الثلاثين من عمرها، قررت مرجانة أن تهب نفسها للدير بعد أن عاشت حياتها بالطول والعرض، لقد عرفت المتع كلها، والبيوت كلها، وعاشت حنو الرجال وقسوتهم، واستمتعت بأيام جميلة غاية في السعادة.

في البداية، كانت أمنيتها أن تبيت ليلتها، وتأكل لقمتها مع أي كان، وفي أي مكان، وليأخذ مضيفها ما يشاء منها، ولم تكن وحيدة، فأهلها وتعرفهم، لها أخوة وأخوات، وأمها وأبوها يعيشان في بيت جميل، وفي بحبوحة من الرغد والسعادة. لكن مرجانة التي كانت بكرهما، بكرت في معرفة الآخر، انقادت لشاب، ثم لآخر، فآخر، وهي لا تزال طفلة في طور المراهقة، فأحست بالفاجعة وقد فقدت أعزّ ما لديها، فنازعتها فكرة الهروب مع الشاب الذي أحبته، وكان هذا الشاب مجنوناً، طائشاً، ابناً بكراً أيضاً لأبوين غنيين جداً، وسعادتهما مشدودة إليه هو، وحياتهما وقفٌ من أجله وحسب. أخذ مرجانة، وأخذ المال، ومضى بها، فلتاع الأبوان، وبكى أهل مرجانة، ومرت أيام وسنوات سعيدة على الاثنين، لكن الشاب اختفى من حياة مرجانة فجأة دون أن تدري إلى أين ذهب، ولماذا؟! وانتظرته طويلاً لكنه لم يعد، فاضطرت إلى أن تعمل في مهن شتى لكي

توفر أجرة البيت الذي تسكنه، وطمع فيها الآخرون، فسايرتهم، وقد عرفت الكثيرين منهم، منحتهم، ومنحوها، وقاومت كثيراً نزعة الحنين في العودة إلى أهلها، حتى تآلفت مع الأمكنة الغريبة في المدن الكبيرة، وأحست أن الغربة وعلم معرفة الآخرين بها، شكّلا سياجاً لحياتها السرية التي تعيشها، لكن مرجانة مرضت بأمراض كثيرة، كان آخرها الربو حيث ضاق التنفس عليها، وباتت تمضي أكثر أوقات يقظتها في حالات غيبوبة، واضطراب مزاج، وكانت على الرغم من انغماسها في الشهوة ومطاردة رغبات الجسد الذي صار بلا روح تتردد كثيراً، وصباح كل يوم أحد، على الأديرة والكنائس، لتقول، وتبكي، ولتطلب المغفرة، وحين شرعت تعي أن الدنيا نفاق، وكذب، وشهوات، وشراك، وأمزجة، وتبريرات، ونسيان.. راحت تلح عليها فكرة الخلاص من كل هذا العذاب، والعيش في أحد الأديرة نائية، راجية، طالبة المغفرة مساهرةً مع الربّ الذي لا ينام أو يغفو!!.

وعندما اشتدَّ عليها الربو، نصحها الرهبان أن تخلم الرب في أحد الأديرة الجبلية، فمضت إلى أحدها، وعاشت فيه سنوات، قبل مجيئها إلى هنا؛ إلى هذا الدير.

اعتراف أول:

وحين التقيت برهومة لأول مرة في الظلام. حكت أصابعنا وتكلمت، ألهبني حين لاحم خده الحارق

بخدي المتورد. لا أدري بالضبط كيف تعانق كل شيء فينا أنا وإياه. أحسست بتلاحم الأكف والأصابع والأذرع، والخدود، والأنفاس، والشفاه، والشعر، كان كالحمى، وكنت في هيجان. وشعرت وإياه بأن الدنيا وسعادتها مختزلة بهذه الوقفة، في ليل مظلم، خلف حاكورة الدار، وقرب السيّاج وبعيداً عن الناس، والكلام، والطعام، والشراب، بعيداً حتى عن الهواء. ومنذ الجرعة الأولى، منذ اللقاء الأول، واللهفة الأولى، والمكاشفة الأولى، انقدت لبرهومة، وصار حلمي، وأملي، ودنياي. صار خفقان قلبي له، وصارت نظافتي، ودندنتي، وتسريحات شعري، وأساوري، وأقراطي، وضحكتي، ووشوشاتي، ولمساتي، وجمالي، وتورّد وجهي... لا شيء بدونه، صارت كلها له، وله وحده. كنت أتمنى أن لا يأتي النهار، كي أستطيع رؤيته كي أشبع منه. وكان برهومة حنوناً، لهوفاً، ناعماً، مخلوقاً أشبه بالسحر، كان كلامه حلو، ضحكته حلوة، وقبلته مسكرة، وأنفاسه التي ينفخها في وجهي حارقة لكنها جميلة، أجمل من كل شجر العالم، وأجمل من النبع، والأعشاب الندية الطرية في المساء، أجمل من أي شيء عرفته من قبل. أحسست بأن الله خلقني من أجله هو فقط، لا من أجل أهلي أو صديقاتي، ولا من أجل أن أشرب أو آكل، أو ألعب؛ خلقت من أجله هو، صدقت ذلك واقتنعت به، فتقرّبت منه، كنت أحس بلا جدوى الحياة، بقرف ساعاتها وأنا بعيدة عنه. فأطارده نهاراً بنظراتي ومشاويري المفتعلة، وفي الليل، مع أول الليل،

أُلحي سياج الحاكورة، أواقف حجارتها، وألمُس عليها، فأحسها لينة طيعة، وأسمع أصوات الحشرات التي ابتردت، فأنتشي بموسيقاها، ورتابة جرسها. أشعر بأنني، وأنا واقفة، أمشي إلى برهومة، وحين أشرد للحظة، أضطب نفسي على معانقتي إياه، أو الحديث إليه، وعلى الرغم من أن الوقت كان مُراً وأنا في انتظاره، كنت أشعر به جميلاً، فحين يأتي برهومة تتوارى كل الأشياء المفزعة والقبيحة، والمُرّة أيضاً.

برهومة أيقظني على جسدي، فاكتشفته معه. وبرهومة هو من حبب المغامرة إلى نفسي، فمضيت معه بعيداً عن أهلي، فعشت في المدن الكبيرة، وحين مضى برهومة وضاع، مضيت أنا وغبت، لكن برهومة ظلَّ معي كائناً لروحي وحسب، جمالاً لا يتوارى، وروحاً لا غنى لي عنها، على الرغم من كل ما حدث له ولي»!!.

اعتراف آخر:

«بعد برهومة عرفتُ آخرين، اضطرتني الأيام، ونداءات الجسد، إلى معرفتهم، لكنني لم ألمح بينهم وجه برهومة، ولا روح برهومة. أنفاسهم كانت مختلفة جداً، أجل الأنفاس هي من يميز الواحد من الآخر، الأنفاس هي كل شيء، كل شيء»!!.

تذييل ـ 1:

«كانت مرجانة نزوعة نحو النباتات، عرفت عنها الكثير،

فأحبتها وملأت جنبات الدير ومداخله، وغرفه بها، وبالشجيرات الصغيرة. كانت حاكورة الدير بستان مرجانة، ومرجها الطفولي. كانت سعادتها في استنبات نباتات جديدة، ومعرفة فوائدها. لذلك كانت أشبه بالطبيبة داخل الدير لجميع أبناء القرى المحيطة. لكن اهتماماً آخر نازع اهتمام مرجانة بالنباتات هو عكوفها على صنع دمى للطيور وبأشكال قماشية متعددة، فقد بدت الطيور وكأنها أمرٌ متمم للنباتات والشجيرات الصغيرة المتناثرة داخل الدير بألوانها وحجومها المختلفة»!!.

تذييل ـ 2:

«شكلٌ من أشكال الغيبوبة أصاب مرجانة حين رأت حنا لأول مرة عارياً في الغدير. أخذها المشهد وأسكرها لكأنه استجرّ إليها كل الماضي الذي عاشته، وحين رأته مرة ثانية صمت به، لكن في المرات التالية اعتادت الرؤية ثم سلتها وكأنها شيئاً لم يكن، صارت الرؤية من أجل أن تتذكر ما كان ليس إلا، تذكّر لا شهوة فيه ولا رغبة؛ تذكُّر من أجل الذكرى، ومن أجل برهومة الذي غاب»!.

الهوامش:

هذه تعليقات بقلم جدي، على ما حدث في الدير، وعلاقته بيعقوب وبناته، وفيها يقول أفكاراً عديدة على شكل يوميات وملاحظات.

الهامش الأول:

«كان الدير، وكان الرهبان قبل مجيء يعقوب وبناته إلى المنطقة، كما كانوا حين جاء الرجل وبناته، وقد سمع الرهبان بأخبار يعقوب كلها من الناس الذين زاروهم في قرية الشماصنة والقرى القريبة منها، وقالوا جملة واحدة، ظلت في نفوس الآخرين ترنُّ مثل الجرس:

«الرجل تاجر»!!.

وأضافوا شارحين، لمن استوضحهم، بأن الباحث عن المال، يصاب بالحمى، وإن أعيته الحيلة، وعجز عن الوصول إلى المال لا يتوانى عن بيع أي شيء يملكه حتى ولو كان كرامته!!.

وأضافوا أن رأس مال يعقوب وكرامته هما بناته، ورأس مال البنات جمالهن، وحين يذهب يعقوب، ستتحرر بناته، وسيصير لهن حماة، وأعداء، وأن كل شيء، سيزول مع زوال الجمال، ومع اختلاف العصاة الحماة، وزوال الأسباب التي جمعت العدو مع العدو قربهن»!!.

الهامش الثاني:

«وبعد أن عرفوا أن يعقوب يتحدث عن قدراته الخارقة، قالوا: إنه دجّال، وإنه لن يحل مشكلات الناس، ولن يشفي أمراضهم، أو أمراض دوابهم، وأن لا أمان له على الأطفال عندما يقوم بعملية الختان، وأنه لن يزرع شجرة، أو يربي بقرة، أو بغلة لأنه لا يحب الارتباط بالأمكنة مهما طال فيها، فيعقوب وأمثاله، ومنذ أن يخلق الواحد منهم تخلق معه جرثومة حب التنقل من مكان إلى آخر، وحب العزلة والانطواء، لأن الآخرين مثل الضوء يكشفون أعماقه ودواخله، وغاياته الرخيصة»!!.

الهامش الثالث:

«وعندما جاء يعقوب إلى المكان ازداد اهتمام الراهبات بالأطفال كثيراً، وبتعليمهم خصوصاً، ونشطت مرجانة كثيراً في الكشف عن فوائد الأعشاب، ودورها في شفاء الكثير من الأمراض، اجتمعت الراهبات بالنساء اللواتي يذهب إلى يعقوب من أجل أن يرزقن بالمواليد، وتحدثن إليهن طويلاً، ومرات عديدة، بأن ما يفعله الرجل ضرب من الوهم، والسحر، والشعوذة، وفتحن أمامهن بعض الأوراق التي كتبها، وقرأن فيها كلاماً يثير السخرية والمرارة، وبيّنّ أن كثيراً من الحشائش التي يوصي بالتعامل معها سامة، ومضرة بالجسم، وتؤدي إلى العقم، وقلن إن الواجب يقتضي طرد الرجل لأنه خطير وعدو وسيء لكن... تعاليم الدين»!!.

الكتاب الأول

«الأضحية - 1 -»

أبداً،

لم يكن وصول يعقوب وبناته إلى جنوبي قرية الشماصنة لافتاً للانتباه!! لقد بدا لمن رآه هو وبناته رجلاً يجرّ خلفه أحزانه، وبناته البطيئات الحركة، الملتفّات بأثواب برتقالية اللون، زادتها أشعة الشمس توهجاً على لمعان، يمشي الرجل فتمشي بناته خلفه كأنهن مربوطات إليه. ويندفع حماره الأبيض أمامه كمن ينزلق انزلاقاً فوق الأرض الحمراء العارية (كان الوقت في أوائل الخريف، حيث اعتدل المناخ، وطاب الهواء، ونشطت الأنسام الرخية، وغدت البيادر ملاعب للأولاد، ومكاناً للسمر والسهرات الليلية الرائقة). كان يعقوب صامتاً، وبناته متعبات، والحمار يمضي بلا حيوية أو نشاط، يمضي كالهائم على وجهه دونما نهر أو ضجيج، والبنات من خلفه يمشين بهدوء وريث شديدين دونما استعجال أو إلحاح. يحتضن الجميع دربٌ صغير مُترب ناحل؛ تحيط به أشجار الكينا العالية، وشجيرات العليق التي أزهر بعضها، وأثمر بعضها الآخر، وشجيرات الزيزفون التي حفت به من الجانبين حتى لكأنها سياج له.

يدوا كأنهم تكلموا كثيراً. فصمتوا دفعة واحدة، حتى حمارهم قطع شمال القرية، ومر ببيوتها، وكرومها، وحواكيرها، ومواشيها، دون أن

يلتفت أو يستدير أو يبهق. وحده يعقوب كان يحيّي بعض أبناء القرية بإيماءة من يده حيناً أو بهزة من رأسه حيناً آخر.

كان مشهدهم يثير الشفقة والحزن معاً (وقد حسبهم بعض أبناء القرية من الباعة الجوالين، أو أصحاب المهن، كمن يبيضون أواني النحاس، أو الغجر الذين يعالجون الأسنان المنخورة أو الذين يذهبونها بليرات الذهب الحقيقية، أو أولئك الذين يعملون في الأفراح والأسمار فيتكسبون من ورائها ما يتعاشون منه وعليه)... رجل قصير القامة، رثّ الثياب، أحمر الوجه، بارز الأنف والتجاعيد، وفي خريف عمره، يعرج من إحدى رجليه (من اليمنى تحديداً) خطواته أشبه بخطوات الكنغر، ذلك لأنه يبدو في مسيره كأنه يقفز قفزاً، كتفه اليمنى أكثر انخفاضاً من كتفه اليسرى. يتمطق بشفتيه لكأن شعرة أو بقايا طعام لا تزال عالقة في فمه، وهو عبثاً يحاول إخراجها طوال مسيره. يفرك بيديه، ويرقّص حاجبيه بآلية عجيبة، ونظره جائل في كل ما حوله من نباتات يابسة، وطرية، وبيوت، وناس، وحيوانات ووهاد، وأودية،وصخور.. وبناته خلفه بأطوالهن المتفاوتة، ووجوههن الشاحبة، يمشين على الدرب المترب بأرجلهن الحافية، غير عابئات بحرارة التراب أو غباره، وكأن الأحذية التي يحملنها بأيديهن ضاقت على أقدامهن بعد طول المسير وبعده، يمشين كالأسيرات لا يلتفتن ولا يتكلمن... بشفاه مطبقة، ووجوه مغلقة، وقد أخفى الغبارُ والتعبُ لمعانَ وجوههن، وبياض بشرتهن وحمرتها. وبقدر ما كان منظر الأب وبناته حزيناً، كان منظرُ حمارهم الأبيض حزيناً أيضاً، وكأن خرابَ الدنيا كلّه حلّ به، وقد ذبلت حركتُه، وامّحى وبره في بعض أماكن جسده البادية، ودمعت عيناه دمعاً مالحاً أبيض، وقد زُعر ذيله من منبته، وصلمت إحدى أذنيه وتشققت إلى منتصفها، واختفت بطنه وضمرت تحت الحمل الثقيل الكبير الذي يسير به، ودبرت

ركبتاه وسال دمهما، يلتقط هواءه ويزفره دفعة دفعة وبصعوبة كبيرة؛ يُرى بين خطوة وأخرى وقد انخفض تماماً نحو الأرض، ثم وبمشقة كبيرة يعلو عبر حركة دائرية ليواصل مسيره.

مرّ يعقوب وبناته وحمارهم الأبيض من طرف القرية الشمالي دونما إثارة أو ضجيج، لا كلاب تنبح لهم، ولا دجاج يتطاير فزعاً من أمامهم؛ مضوا إلى جنوبي قرية الشماصنة، وعلى مبعدة من بيوتها القريبة من النهر، وقف الحمار أولاً، ثم يعقوب، فالبنات، ودونما تفكير أو استفسار، همهم يعقوب بصوت أجش كأنه خارج من جرة فخار:

وهنا يا بناتي!!

كان المكان قرب الجسر العتيق تماماً، قرب مساحة واسعة من شجيرات القصب، والحلفا، والسعد، والبربير، التي لم تصفرّ أوراقها بعد، والتي علت قاماتها وامتدت حتى جاوزت علو الجسر بأوراقها العريضة الحادة والهاجعة تحت وطأة حر الظهيرة، وقرب الطواحين المدارة بالماء، والتي علا ضجيجها وارتفع، وقد أنشدت إلى الصخور المجاورة لها أرسنةُ الحمير والبغال التي جاءت إليها بأكياس القمح لطحنها من قرية الشماصنة، والقرى المجاورة لها. بدت الطواحين بأبنيتها الحجرية البازلتية السوداء المزنرة بالحوار الأريض شيئاً مؤنساً يطرد وحشة النهر الذي التفّ بأدغال واسعة من أشجار القصب، والعليق، والكينا، والصفصاف، والزيزفون، والحور، والتين، والدوالي، والرمان، والطيّون، والغار. وعلى مبعدة من النهر، وقرب الصخور نهضت أشجار البطم، والخروب، والدلب، والسنديان، والصنوبر، والتوت؛ وحولها بدت أجمات نباتات السلبين التي نمت وامتدت، واستطال شوكها واصفرّ، وعرائش نباتات

الشومر بورقها الأصفر الناعم، وشجيرات البلان الشوكية وقد لازمت الصخور واتحدت بها أو اتكأت عليها؛ الصخور التي ما زالت تحتضن في شقوقها الظليلة بعض النباتات الطرية.

حين همهم يعقوب لبناته:

«هنا... يا بناتي!!»

لم تقل أي منهن كلمة. لم يعترضن، ولم يندهشن أيضاً!! وكأن المكان كان معروفاً لهن رغم غرابته. أجلن النظر فيما حولهن، ثم جمعن البصر ثانيةً دونما معنى، وسارعن إلى أبيهن يساعدنه على فكّ أحزمة الأمتعة التي علت ظهر الحمار، وقد تراخى ببلاهة في وقفته واستسلم.

ولم تمضِ سوى ساعات قليلة حتى ارتفع كوخان صغيران من القصب الأصفر اللامع المضفور بأمراس رفيعة، والمبطن بقماش الخيش من الداخل؛ كوخان متلاصقان لا نوافذ لهما ولا أساسات، يشدهما إلى الأرض مجرى ترابي صغير، حفره يعقوب وبناته على عجل، تحيط بهما حجارة صغيرة وكبيرة مشدودة إلى بعضها بعضاً بلحمة واضحة، ويثبت سقفيهما من الأعلى عدد من أغصان أشجار الكينا والصفصاف وطبقة رقيقة من حصى النهر الصوانية المتناثرة بعيداً بعيداً على ضفتي النهر، وعلى مساحات واسعة. حالما ارتفع الكوخان شرع يعقوب في بري الأغصان ليجعلها أوتاداً يبني عليها سياجاً شائكاً لبيته الذي نهض. في حين كانت بناته يحفرن الحفر لها، وعندما فرغوا من تثبيت الأوتاد في حفرها بالطين والحجارة، وتسوية مدخل الكوخين، جاؤوا بالأشواك وسيّجوا بها الكوخين، وبعدئذٍ أطلقوا البصر في البعيد البعيد، وتنفسوا براحة، فقد صار لهم بيتٌ تحفُّ به الأشجار، وبقربه درب طويل مُترب، وجسر خشبي عتيق، ونهر صخّاب، وطواحين الماء تؤنسه بهديرها الرتيب المتواصل. لحظتئذٍ، انحدروا عبر درب صغير متعرج إلى تحت الجسر، نحو

النهر، وهم يتملون ارتفاعه، وامتداده فوق النهر الذي تناقصت مياهه كثيراً عن الحدِّ الذي كانت عليه في الشتاء، والتي تركت آثار أملاحها البيضاء على أعمدة الجسر، وقد مالت إلى الصفرة قليلاً تحت أشعة الشمس.

قرب الجسر، وفي ظله، شرعوا في إزالة أوساخهم. البنات، انتحين جانباً، تسترن بشجيرات الحلفا والقصب الكثيفة جداً، وبدأن الاغتسال، وقد علا صوت تراشقهن بالماء، كما ارتفع همسهن، وكأن الحياة عادت ودبّت في أجسادهن التي كانت منهكة تماماً، ارتفع همسهن إلى الحد الذي لم يرضَ عنه يعقوب فزجرهن، واستحثهن على الانتهاء سريعاً لأنهم لم ينتهوا بعد من كل أعمال نهارهم، والشمس مالت نحو الغروب، والشمس إذا مالت تذهب بلمحة عين.

كان يعقوب وهو يغتسل ويشرب يجول بنظره فيما حوله، ويتمتم بكلمات غير مفهومة، وجهه ممتلىء بالدهشة والإعجاب، ويداه تلمسان جدران الجسر لمساً ناعماً رقيقاً كأنهما تمسحان شعر طفل هدهدةً لينام!!.

وكان أول ما تناوله ليأكله من ثمر النهر هو توت العليق بألوانه المتعددة وطعومه المختلفة، وعندما ألحَّ في استعجال بناته.. جئن إليه بأثوابهن المبلولة، وقد لصقت بأجسادهن، فأبدت تفاصيلها الصغيرة الجميلة، وملامح أنوثتهن البادية، بدون بوجوههن اللامعة الصافية المُحمرة، وخطاهن القصيرة الرشيقة، وكأن الاغتسال أتى على آخر مظاهر التعب، والرخاوة، واللا مبالاة، وحين وصلن إلى أبيهن، وجدنه حانياً على شجرة عليق يقطف منها ثمارها الحمراء، والسوداء، وعندما التفتَ إليهن، ناولهن بعضاً من الثمار التي امتلأت بها كفّاه، وهو يقول:.

«هذا العلّيق يشبهنا،

منظره وحشي وقاس

وثمره طيب وللذيذ!».

وأخذت شفاه بناته تصطبغ باللون العنابي الجميل، مما زادهن حسناً على حسن. وحوله بدأن ينشطن في التقاط حبات التوت، وبعض حبات التين والرمان المختبئة والمتوارية بين الأغصان والأوراق المائلة إلى الصفرة؛ بدون له، وقد رحن يتراكضن، وأنوثتهن طافحة، كأنهن ربات جمال هبطن فجأة من العالم العلوي لمباركة كل شيء يصادفنه أو يلمسنه أو ينظرن إليه، فطفح صدره بألوان من الفرح التي لم يعرفها من قبل، وشدّ قبضة يده كأنما يشدُّ على الأيام القابلة. ثم أخرج من صدره وريقات صفر، وشرع يقرأ فيها بصوت عالٍ:.

«يصادفك في حياتك صخور، وأشواك، ودروب ملتوية، وتمضي بلا أخ أو أب، لكن الرب سيساعدك وقد وصلت النفس إلى هجيرها ويأسها. فلا تقنط فمن بطون الأشواك يخرج لك طعاماً شهياً، والدروب الملتوية تصل بك إلى ما تودُّ وتشتهي، ومن الناس يسخر لك إخوة وآباء، ومن صلبك يعطيك المعونة والإنس، وعلى الصخور تقف لتبدو، وقد فاقت قامتك قامات الناس، فلا تقنط. وحين تضيق بك الجهات هزّ الحبل الذي يربطك بالرب يستجب لك، فيمسح دمعك وجرحك، ويشد جناحك وخطوك، وينجدك بما تودّ وتشتهي»!!.

ويوزع يعقوب بصره فيما حوله؛ ينثره هنا وهناك، فيرى الصخور، والأشواك، والدروب الملتوية الضيقة، ويرى بناته، فيهزّ رأسه، وكأن

الكلام الذي قرأه مجسدٌ فيما حوله بالصورة والمشهد، فتبتهج نفسه بالرضا. يعيد الأوراق إلى صدره بحركة سريعة، ويرامق السماء بنظرة طويلة، ثم ينادي بناته ليمضوا جميعاً نحو بيتهم الجديد، وهناك، وبالقرب من البيت، وحالما وصلوا، بلعوا ألسنتهم، وبهتت حركتهم، وعاود الشحوب وجوه بناته... حين رأوا رجلاً طويلاً عريضاً مشمراً عن ذراعين قويين لامعتين بانتظارهم. وقف الرجل بجانب صخرة رمادية كبيرة، وراح يقلّب النظر فيهم وهم يصعدون!! وعند سؤاله ليعقوب الذي تقدم نحوه كالمُسيّر هاشاً باشاً.. إن كان هو ضيفاً، أو مهاجراً، أو رحالة، أو مطروداً، أو طالب علم؟! أجابه يعقوب، ودونما شرح طويل أنه حارس الجسر وضامنه، واسمه يعقوب، والبنات اللواتي دخلن الكوخ بناته، وأنه سيحرس الجسر ويضمنه بموجب صك الحراسة والضمانة الممنوح له من السلطان. وهو الآن يتدبر شؤونه ببيت من القصب مبطن بالخيش ريثما يشتغل، وريثما تصل منح السلطان التي ستمكنه من بناء بيت حجري كبير يقيه وبناته وزواره برد الشتاء، وأنه سيعيش في هذا البيت مع بناته بعدما توفيت زوجته. وسارع يعقوب وبحركة مضطربة، وأخرج من بين ثيابه لفافة ورق راح يفتحها أمام نظر الرجل، داعياً إياه أن يقرأ الكلام المخول له بحراسة الجسر وضمانه، وحرص حرصاً شديدة على أن يريه الخاتم والتوقيع، وقال له إنه سيعيش مع بناته قرب الجسر سنة أو أكثر حسب ما تقتضيه الحال، فإن نجح استمر، وإن أخفق مضى إلى مكان آخر، فقد صار التجول حياته، وصارت الأمكنة كلُّها بلا معنى بالنسبة إليه. وودّ أن يشرح للرجل الطويل العريض أشياء وأموراً أخرى، غير أن الرجل قطع عليه حديثه حين تقدم منه مرحباً، وكأن رؤية كتاب السلطان أفسدت عليه كل الشروحات والتفاصيل والأسئلة الأخرى. تقدم من يعقوب أكثر، وصافحه، وهو يقول له.

«مرحباً بك أيها الجار.

أنا شاهين وكيل المعصرة،

أرسلني سيدي لأطمئن على

وصولك.

فحقُّ ضيافتك علينا»!.

وبهت يعقوب، ودهش أيضاً، فمن ذا الذي ينتظر وصوله، وكيف عرف بخبره، وهمَّ بسؤال شاهين عن ذلك، غير أن شاهين استدار ومضى، فاستدار هو نحو بناته، وقد امتلأ وجهه بالدهشة والاستغراب. وعاد إلى بيته الجديد، وهو يدير البصر بين خطوة وأخرى نحو شاهين الذي ابتعد وكاد يغيب وراء الصخور الكثيرة. ومع وصوله إلى بناته الواقفات في مدخل الكوخين، بشَّ لهن، وقال، وقد رأى علامات الحيرة في وجوههن:

«هذا شاهين،

وكيل معصرة الزيتون.

جاء مرحباً»!!

لكأنما القدر وحده، هو الذي ساق شاهين إلى يعقوب ليسأله من هو؟ ومن أين أتى، ولماذا؟! ذلك لأن شاهين، وحالما وصل إلى المعصر نثر أخبار يعقوب وبناته لمن هم في المعصرة، ولأن يعقوب لم يسمع من أي فرد من أهل القرية أسئلة من نوع الأسئلة التي طرحها شاهين؛ أهل القرية الذين تندروا بالعمل الذي جاء يعقوب وبناته من أجله وتساءلوا:

«يا لهذا الرجل المسكين،

ويا لبناته المسكينات!!

فهو سيحرس الجسر ممن؟!

وسيضمنه... كيف؟!.

فالجسر، ومنذ الأزل، لم يحتج إلى حراسة، ولم يضمنه أحد. الناس والحيوانات يعبرون عليه من جهة إلى أخرى دونما إذن أو سؤال، فما بال يعقوب وبناته؟ سؤال ردَّدوه مرات عديدة، ولم يصلوا إلى إجابات عنه، ولم يتضح لهم معنى حراسة الجسر وضمانته إلا بعد وقت طويل!!.

أجل، لم يكن ذلك الموكب الصغير ليعقوب وبناته وحماره لافتاً للانتباه بحق، ذلك لأن معظم أهالي قرية الشماصنة كانوا يقيلون في بيوتهم، ولأن الرجل وبناته بدوا وكأنهم عابرو سبيل ليس إلا؛ لكن ذلك الموكب الصغير، وحالما استقر قرب الجسر، وبعد أن بنى يعقوب وبناته الكوخين، وأوقدوا النار لقضاء شؤونهم وبعد الأخبار التي نقلها شاهين عنهم أخذ يجلب الانتباه رويداً رويداً، وباتت أخباره تنتشر وتتسع كالطيف.

بدت أولى حلقات لفت الانتباه عندما جلس يعقوب على ركبتيه بين بناته، قبالة بيته الجديد، مُسبل اليدين، ناشف الوجه، ثابتاً لا يتحرك، وحين سألنه:

«ما به»؟!.

قال بهدوء عجيب:

تطهرتن يا بناتي»؟!.

فأجبنه بقول واحد:

«أجل يا أبي»!!.

وانتظرن ما سيقوله، لكنه عاد إلى صمته ووجومه. وانقاد إلى دموعه

التي انهمرت على طول خديه، فبللت شعر وجهه النابت، فالتففن حوله ورحن يسألنه عن سبب بكائه وحزنه، وظلَّ هو على صمته وهدوئه دون أن يجيب بكلمة واحدة محاولةً منه في زيادة حيرتهن، وما كان منهن إلا أن تدرعن عنه بأسباب كثيرة، ظنن أنها هي السبب في بكائه وحزنه المفاجئين.

الكبرى، قال:

«أمّنا ونعرفها. كنت تحبها رغم قسوتها عليك.

اطمئن يا أبي لن تدعك وحيداً»!.

وتمتمت الوسطى، وهي تأخذ ماء أنفه الساقط بطرف منديلها:

«لا تحزن يا أبي.

سيأتي أهل القرية ليرحبوا بقدومك...

أما رأيت ذلك الرجل»!!.

وهمست الصغرى:

«أخاف أن تكون جائعاً يا أبي»!!.

وهكذا ظلّت بناته يتحايلن عليه، ويختلقن له الأسباب التي قد تكون دفعته إلى البكاء... لكي يتكلم، فيقول ما الذي أصابه، وما الذي أثار حزنه وبكاءه دفعةً واحدة، غير أنه ظلَّ على هيئته الأولى، طيّ بكائه وصمته وارتعاشه الطويل، الأمر الذي حيّر بناته فعلاً وأقلقهن.

فجأة، توقف يعقوب عن البكاء والارتعاش، وبدّد صمته، حين قال:

«أأنتن حولي يا بناتي»!!

فأجبنه بلهفة واستغراب:

«أجل يا أبي»!!.

وساورتهن الظنون بأن العمى أصاب أباهن فجأة، أو أنه شُلَّ ففقد الإحساس بما حوله، وما عاد يرى.

فاندفعن نحوه أكثر، والتصقن به، ورحن يتحسسنه ويلمسنه بهلع شديد. وحين عرفن أنه لم يشل، وأن بصره في مكانه، عاودن سؤاله عن سبب بكائه، فأجاب ببطء وبرود باديين:

«ما يبكيني، يا بناتي، هو أنه لا مناص لي من تقديم دم طاهر لمباركة مكاننا الجديد هذا، وبغير الدم لن يبارك الرب مقامنا»!!.

ولكأن الدنيا انطفأت فجأة، أو لكأن نهراً صَخاباً جفَّ في التو والحال، أو قطيعاً من البقر الوحشي الهائج غار في جرف ترابي عميق وبعيد... هدأ كل شيء، حالة من السكون المريب سيطرت على يعقوب وبناته، فتبادلوا النظر الحائر بحذر شديد، واقتربت ابنته الكبرى منه، وسألته:

«هل ستشتري شاة يا أبي»؟!.

فأجابها بهزة نافية من رأسه، وسارعت الوسطى إلى القول:

«بقرة»!!

فنفى، وتمتمت الصغرى بشرود:

«عجل»!

فأشاح بيده رافضاً. وعادت الكبرى لتسأله:

«هل ستقتل يا أبي»؟!

فقال دون أن يرفع بصره إليها، وقد كاد رأسه يلتصق بالأرض:

«لا، سأضحي»!.

والتصقت به أكثر، وغمغمت كالمذهولة:

«بمن يا أبي»؟!

فقال دون أن يرمش له جفن:

«بواحدة منكن»!!

وعمّ الصمت ثانية، ما من حركة، أو نأمة. ما من كلمة أو همسة، حتى لكأن الأنفاس انقطعت تماماً.. وفجأة علا صياح البنات، وشمل بكاؤهن المكان، وأحطن بيعقوب، وتعلقن برقبته، رجونه ألا يفعل ذلك، فركن وجهه وصدره، ولمّسن على كفيه اللتين ستضحيان بواحدة منهن. ومسدن شعره القليل في وجهه ورأسه. ونشّفن دموعه بقبلاتهن، وتذللن إليه، وتضرعن، وناديته بأصواتهن الهامسة وقد بُحت، واختفى رنينها:

«أبي، أبي»!!

وهو في هجعته لا يتحرك أبداً، لكأنه تحجر تماماً، تلفّه تمتمات بناته، ونشيج بكائهن، وهمهمات توسلهن الدامعة «أبي، أبي»!!

ولم تتحرك عيناه إلا حين همس بحزن شديد:

«لا حيلة لي، يا بناتي... أتسمعن».

وعلا صوت بكائهن أكثر، وامتدت رنة الحزن واتسعت أكثر، ومضت اللحظات حارقة وكاوية، وهن حوله ملاصقة، وقد تداخلت أطرافهن وانطوت وكأنهن استسلمن لمشيئته. ارتمين عليه تماماً. توازعن جسده وانفقدن لتحيب من، أثقل عليه وأوجعه، فتململ، وضاق صدره بهن، وتجاسرت كبرى بناته وسألته:

«أنا من ستكون الأضحية يا أبي»؟!

فأجابها بهزة نافية من رأسه دون أن ينظر إليها، ولاحمته الصغرى، وسألته السؤال نفسه، فأجابها بهزة مؤكدة من رأسه وهو ينظر إلى وجهها الذي احمرّ واغتسل بالدموع في التو والحال، فصرخت الوسطى كما لم تصرخ من قبل، وكأنها هي التي وقع عليها خيار أبيها، وفرت من بينهم راكضة باتجاه القرية. يسبقها صياحها وبكاؤها العاليان. ولم تعد إلى أبيها أو تلتفت إليه؛ وقد حاول اللحاق بها، إلا ومعها نفرٌ من أهالي القرية.

كانوا جميعاً يخطفون الخُطا خطفاً، كأنهم يمشون على الشوك حفاةً، والأسئلة تمشي معهم، والحيرة تعلو وجوههم. وحين أطلوا على الكوخين، رأوا يعقوب ينهال بيلطته على جذع شجرة ليقطعها. وبالقرب منه شاهدوا ابنتيه تجمعان قطع الخشب المتطايرة هنا وهناك وهما تبكيان، بدت البنت الصغرى، التي وقع عليها اختيار يعقوب، أنشط من أختها الكبرى وهي تجمع شظايا الجذع المتناثرة في البعيد والقريب، وكأن لا علاقة لها بما يحدث!! ومع وصولهم إليه، ترك يعقوب الشجرة والبلطة، ومسح وجهه براحة يده، وتقدم نحوهم مُرحباً.. حاني الظهر، يفرك يديه، وقد سال ندى أنفه، وتطاير شعر رأسه القليل القليل.

وعندما سألوه عن الخبر الذي نقلته ابنته إليهم، أجابهم بأن الخبر صحيح، وأنه ـ كما يشاهدون ـ سيعدُّ من جذع شجرة البلوط التي شارف على قطعها، المذبح. وأنه سيقدم للجسر والنهر معاً أطيب وأطهر ما لديه من دم، وذلك قبل أن تشرق شمس الغد لكي يبارك الرب قدومه ومقامه. فصاحوا به، وتصارخوا جميعاً من حوله لثنيه عما يريد فعله، غير أنه أصرَّ على رأيه، وصاح بهم:

«يا خلق الرب هو الرب! ولا بدَّ من الأضحية»!!

وأحاطوا به، فبدا قصره، وانكسار روحه وتماوتها، ووصفوه بالمجنون لأنه من أجل بدعة قديمة يود القضاء على واحدة من بناته الجميلات. ولم يستجب إليهم، لم يقتنع بما قالوه، وطال الحوار والجدال، وتكررت الأمثلة والحوادث والمرويات، وأخيراً استسلم يعقوب لرغبتهم بالذهاب معهم إلى القرية بعدما ألحوا عليه، وبعدما اقتنعوا بأن الأضحية لا بدَّ منها، ولكنهم يرجونه أن يؤجلها إلى وقت آخر.

بدا، في آخر الحوار، مع الأهالي، كأنه كان بحاجة إلى من يقف دون تنفيذه لما عزم عليه، رغم إصراره الشديد، وحماسته البادية، فانقاد لرغبتهم، ومضى معهم، وبناته من حوله يحطن به كجنود الحراسة المتعبين!!.

حاشية أولى:

«في قرية الشماصنة رجل نحيل طويل، اسمه رحمون، خيط رفيع جداً، عصي على الرؤية والالتقاط يفصل ما بين العقل والجنون عنده، في أحايين كثيرة يبدو في منتهى العقل، وفي أحايين كثيرة أيضاً يبدو في منتهى الجنون والشطط. الرجل حلو، ثيابه رثة أو قل عادية، وجهه مضيء، وصدره واسع غزير الشعر، عيناه واسعتان، وجبينه عريض، وأنفه دقيق وطويل بعض الشيء، حليق الذقن والشارب، محبوب من جميع أهالي قرية الشماصنة والقرى المحيطة بها. ثمة أطفال كثر يشبهون رحمون، لأنه عشيق سري لعدد غير قليل من نساء قرية الشماصنة والقرى الأخرى. دائماً يتحدث عن حبيبته غزالة التي هجرته، وذهبت مع أحد الصيادين الذين مروا بالقرية. أغراها صيادٌ بالعيشة الحلوة في بلاده، وبالكلام الناعم، وبجسده المتناسق... فذهبت معه!!.

هي ذهبت، وجنَّ رحمون!!.

بحث عنها طويلاً في أمكنة كثيرة، وغاب وتشرد من أجلها كثيراً أيضاً إلا أنه لم يعثر عليها. ظلت غزالة متوارية، وبعيدةً؛ وظلَّ رحمون يبحث عنها ليل نهار في الأودية، والقرى، وبين أشجار غابة النهر الكثيفة... ومن دون نتيجة!!.

وقصة ضياع غزالة، أو هروبها مع الصياد الحلو، قديمة، والحديث عنها قديم أيضاً، وأوصافها، كلما كرت الأيام،

صارت أكثر، وجمالها أبلغ وأروع، وحضورها أبعد تأثيراً، حتى صارت في أذهاننا كالملاك السماوي الذي يأكل غير ما نأكل، والذي يلبس غير ما نلبس، والذي له جمال خاص متفرد دونه كل جمال!!.

رحمون هذا، وحين مر يعقوب وبناته وحمارهم الأبيض بطرف القرية، كان لائذاً بظلّ جدار واطىء لأحد الكروم؛ جدار من حجارة بازلتية سوداء بعضها يشد بعضها الآخر كي لا تقع أو تميل، بعد ما أعياه الركض الطويل، والطواف المتعب في الأزقة والزواريب والبراري الواسعة؛ البراري التي يدعي رحمون ملكيتها له وحده، والتي لا تكلم أحداً سواه، والمعتذرة له دائماً لأنها تخفي عنه حبيبته غزالة!! البراري الألوف الحنون التي لا تنهره مثل الآخرين، أو تقسو عليه؛ والبراري التي تسمح له بأن يشم روائح غزالة كلما هبت الأنسام البليلة.

حين مرّ يعقوب وبناته بمحاذاة رحمون، صرخ بهم، وأطال التحديق إليهم، وهو لا يزال ممدداً وقد شابك أصابع يديه تحت رأسه. فوقف يعقوب، وبناته، وحمارهم وكأنهم مخلوقٌ واحد، وقد راحوا جميعاً ينظرون إلى رحمون الذي نهض بحركة رشيقة، فبان طوله، وشعر رأسه الطويل وتقدم منهم. نهر الحمار، فمشى بعيداً عنهم ثم وقف، وتقدم من يعقوب الذي أختفى وراء ظهره بناته اللواتي طاولنه بقاماتهن العالية. بدت معالم الرعب والخوف واضحة على وجه يعقوب وبناته، ورحمون ينظر إليهم نظرات طويلة، سائلة،

مستغربة!! ويعقوب يفرك بيديه، وقد جحظت عيناه، وبناته من خلفه مثل القنافذ ينتظرون ماذا سيقول رحمون، وبماذا سيجيب أبوهن!!.

ودونما كلمة واحدة لا من يعقوب، ولا من رحمون، ولا من بناته. مشى موكب يعقوب الصغير مرة ثانية بعدما استدار رحمون، وعاد إلى ظلّ الجدار البازلتي الأسود وتمدد قربه، وغطّى عينيه بذراعه اليمنى، وكأنه غارق في نومه منذ أمد بعيد، لحظتئذٍ التفت يعقوب نحو بناته، وقلّب كفيه في الهواء، ومشى، فمشت بناته وراءه، وحمارهم الأبيض يتقدمهم بحمله الثقيل بخطا بطيئة واهنة، مشوا وقد خلّفوا وراءهم كروم التين والعنب، والحواكير، والقرية، ورحمون الذي حيّرهم بصمته الطويل المربك. تقدموا نحو هدير الطواحين، ونحو الصخور العالية، التي يمرّ من وسطها الدرب الترابي الضيق، ونحو الجسر العتيق تماماً!!.

تفصيل صغير:

وما من أحد يعرف من أين جاء رحمون! ومن الذي سمّاه رحمون. وكيف أحب الشماصنة وألف أهلها، فعاش فيها. يأخذ لقمته من فوق أغصان الشجر أحياناً، ومن فوق أطباق القش في البيوت أكثر الأحيان. رجل صاحب همة يساعد الناس أيام البيادر، والمواسم، وأوقات الفلاحة، ويرعى الأغنام والأبقار أحياناً، وحوله تروى أقاصيص عجيبة!!.

الكتاب الثاني

«الأضحية ـ 2 ـ»

في الشماصنة، لقي يعقوب وبناته من التكريم والطمأنينة ما جعل بناته يغرقن في نوم عميق، بعدما أيقنَّ حقيقة أنهن نجون من طقس الأضحية الذي أراد أبوهن إقامته، وبعد ذلك البكاء المرّ الذي سيّلنه، وبعد التعب الثقيل الذي أصابهن!!.

ذلك التكريم، وتلك الطمأنينة جعلتا يعقوب أيضاً ينقاد إلى الحديث لمن هم حوله من أهالي القرية. حدثهم عن الأضحية وأهميتها، فهي التي تمحو الشرور القادمة، وتبارك ما يأتي من الأيام، وتبعث الطمأنينة في النفس وتزكيها. وحدثهم عن زوجته راحيل التي شجعته طوال حياتها على الانحناء لها حتى بات يمشي أمامها وأمام الناس على أربع. لقد تعاونت مع الدنيا ضده، فخذلته وأذلته في مواقف وحوادث كثيرة، وجعلت بناته ينقسمن عليه أيضاً. لكن الرب أكرمه بمرضها ثم زاد في كرمه فقطع خيطها، وروى لهم أنه، وقبل مرضها بأيام قليلة استيقظ ليلاً فزعاً معروقاً، فوجد حوله مجموعة من النساء الطويلات النحيلات بوجوه بيضاء مستطيلة، وقد انشغلن وهن واقفات بنسج خيوط صوفية كثيرة، شديدة البياض. بدت الخيوط متناثرة أمامهن في أكوام كبيرة كأنها زبد البحر، تخفيهن إلى أعلى صدورهن. كن صامتات واجمات غير عابئات بوجوده، منظرهن أفزعه، وبعث الرعب والهلع في نفسه.

وقد رأى أيديهن في حركة نشطة لا تهدأ، وأعينهن مطبقة لا ترفُّ ولا ترمش. وحين سأله الملتفون حوله:

وثم ماذا؟!!

قال:

وحين أطلت النظر إليهن، وأنا بين مصدق وغير مصدق لما أراه، جلبتُ ريقي مرات عدة، واستنجدت بصوتي لأبعث الطمأنينة في نفسي. سألتهن كيف دخلن إلى بيتي، وماذا يفعلن، ولماذا هن صامتات وقد استيقظت؟!. وأجبنني دونما تمهل بأنهن مخولات بالدخول إلى أي مكان، وفي أي وقت كان، فهن ربات القبور. ينسجن خيوط الحياة لبني البشر فتدوم أعمارهم، ويقطعنها فيطلوبهم الموت.

وأن ما أراه بين أيديهن من خيوط ليس إلا أعمار البشر، بعضها يطول وبعضها الآخر يقصر، وبعضها يبدأ، وبعضها الآخر ينتهي، وهكذا!! وقد جئن إلى بيتي، في تلك الليلة، لكي يقطعن خيط حياة زوجتي!! وقد أيقظنني من أجل أن يتحن لي الفرصة لكي أفتدي زوجتي إن شئت، أو أن أؤجل موتها إلى وقت آخر إن أحببت، وأنهين إليَّ أنهن على استعداد لمساعدتي على بيان طريقة الفداء أو التأجيل إن رغبت!!.

وصمتن بانتظار إجابتي، وبدل أن أسألهن بماذا أفتدي زوجتي أو كيف أؤجل موتها إلى حين آخر!!.

حرتُ في أمري ودهشتي، فانصرفتُ إلى مراقبة خيطان

الصوف البيضاء التي راحت تفور بين أيديهن وتتلاحم في رغوات زبدية كأنها الحليب المغلي في القدور الكبيرة الواسعة، وحين واتتني الشجاعة والمقدرة طلبتُ منهن أن يمنحني مهلةً من الوقت لأحدد ما أريده على وجه الدقة: أأفديها أم أؤجل موتها إلى حين؟! فتأفف بشدة تأففاً كاد يحرقني، ثم ما لبثن أن توارين في الحال دون كلمة أو نظرة، ولم أدرِ ما أفعله!! فكرت قليلاً بما رأيت وتساءلت كثيراً كيف يحدث هذا، ولماذا؟! ولم أنم!! وفي الصباح أيقنت أنني كنت في حلم أو كابوس ثقيل، فلعنت حياتي مع زوجتي التي تطاردني بالهموم والمشكلات نهاراً، وبالكوابيس والأحلام المرعبة ليلاً. لكن ما حيرني، وأدهشني جداً هو أن زوجتي مرضت في الحال، ورحلت فعلاً دونما إبطاء، فبكيتها كثيراً على الرغم من كل ما فعلته ضدي، بكيتها لأنني ضيعت عليها فرصة إدامة حياتها فترة أخرى من الزمن، ولأنني عجزت في لحظات ضعف بشري من تجاوز طعم الآلام التي سببتها لي فما افتديتها، ولا سعيت إلى ذلك للأسف!!.

وحين انتهى من حديثه، علّق كثيرٌ من الجالسين قربه على ما حدث وقصَّ بعضُ منهم حكايات شبيهة بقصته مع زوجته، وبعضهم الآخر تذكر حوادث وقعت لأجدادهم وجداتهم، وهكذا.. ظلّت الأحاديث والذكريات دائرة إلى ما قبل منتصف الليل بقليل. لحظتئذٍ همَّ يعقوب واقفاً طالباً الإذن بالرحيل مع بناته، إذ لا بدَّ له هو وبناته من أن يبيتوا ليلتهم الأولى فيه. وتذرع بأنه ترك حماره وحيداً مربوطاً إلى وتد من دون طعام أو شراب، وهو يخاف أن يستفرد به الوحش فيأكله، حاول

الحاضرون ثنيه غير أنه عزم على رأيه فاستيقظت بناته على كره منهن، ومضين معه نحو البيت. ومنذ الخطوات الأولى فوق الدرب الذي سيعود بهن إلى البيت شعرن بالخوف منه، لذلك أشارت الكبرى على أختيها أن يجعلنه يمشي في الوسط فوافقتاها، وفي الحال اندفعت الوسطى إلى الأمام، وتأخرت الكبرى إلى المؤخرة جاعلة أختها الصغرى بينها وبين أبيها، حدث ذلك على عجل ودون أن يشعر يعقوب بذلك أو ينتبه إليه. وظلّوا هكذا على هذا الترتيب حتى وصلوا إلى البيت. كان خوف البنات من أبيهن شديداً إلى الحد الذي جعلهن لا يشعرن بأصوات الحشرات المنبعثة من بين الأعشاب التي تندّت، والموزعة على طرفي الدرب، ولا بموسيقا خرير مياه النهر المتدفقة على المنحدرات الصخرية، والأنس الذي تتركه في النفس. كان ما يملأ آذانهن خلال مسيرهن، هو صوت الطواحين الهادرة، وكأنها كتل صخرية تتردى من علٍ.

وعندما وصلوا إلى البيت، بدا يعقوب لهن حنوناً، لطيفاً. ساعدهن على إيقاد النار، وإعداد الطعام وهو يغني أغنية الجاموسة العنيدة بنشاط ملحوظ وصفاء بادٍ، وحين طاب له الغناء وقد رأى نشاط بناته من حوله غنّى لهن أيضاً أغنية البحار العائد إلى بلاده، وهو يحمل الهدايا لصغاره وزوجته، وعشيقته البعيدة الشابة التي تنتظره قرب شباكها الواطىء المسيج بالنباتات الطرية، وقد أعدت شايها الساخن مترقبة ظهوره في كل لحظة وآن!!.

بدا كمن نسي نفسه، وما كان عليه قبل ذهابه إلى القرية. لقد محا حزنه كله، وتقدم منهن متأسفاً ومعتذراً لما بدر منه من قسوة، وقبلهن بلهفة المشتاق، فشاركنه في الطعام، والملاطفة، والود، والمعاتبة، والضحك، والأمنيات القادمة. ثم تمنّى لهن نوماً هانئاً، وأحلاماً رضية، واستدار ماضياً نحو حماره ليتفقده.

وحالما ابتعد عنهن، تهامست بناته أنه ما يزال مصمماً على تقديم أضحية للمكان وأن انشراحه هذا ليس إلا للخداع، وأن قبلاته غير الطبيعية التي أشبعها دفئاً... ما هي إلا قبلات الوداع الأخير لواحدة منهن دون أدنى شك، أو ربما لهن جميعاً؛ لذلك... قررن أن يسهرن ليلتهن كلها حتى الصباح. ونبهت الكبرى أختيها إلى أن ما تعتقده صحيح لأن أباهن كان يلح عليهن بأن يأكلن الطعام كله على غير عادته لقناعته بأن المعدة إذا ما امتلأت أخذت صاحبها قسراً إلى النوم، وقد أكّدت صحة ظنها فيما بعد محاولاته المتعددة للدخول عليهن، وتفقدهن بين وقت وآخر!!.

كان، وكلما أطلَّ عليهن أو اقترب منهن تبادره ابنته الكبرى بالسؤال إن كان بحاجة إلى خدمة ما لتقدمها إليه. وحين يجيبها بالنفي الشديد المرتبك، تسأله الوسطى لماذا لم ينم بعد وقد هدّه التعب؟! فيقول إنه ما أتى إلا ليطمئن إلى نومهن في ليلتهن الأولى، ثم يضيف كلاماً آخر عن المودة، والعناية، والرضا، فيرقُّ صوته ويتلاشى رويداً رويداً، ثم يغيب. فتقوم لحظتئذٍ إحدى بناته لمواساته راجية إياه أن يذهب إلى فراشه وينام، تماماً مثل طفل صغير لا ينام إلا بالهدهدة أو سماع الحكاية السحرية الشائقة.

وحين يغادرهن إلى مفرشه، يؤكد تأكيداً جازماً بأنه سينام نوماً عميقاً حتى وقت متأخر من الصباح. ولأن الأخت الكبرى كانت الأكثر حذراً بين أختيها فقد عمدت إلى ربط قربة الماء التي يشربن منها فوق رأسها تماماً، بعد أن ثقبتها بإبرة الخياطة ثقباً صغيراً راح يتقط فوق وجهها نقطةً نقطةً بين حين وآخر كي لا يأخذها النعاس فيقع لها أو لأختيها ما لا تحبُّ قط!!.

فعلاً، كان ظنُّ البنات بأبيهن حقيقةً، لأن يعقوب لم يعرف طعم

النوم، وقد أوهم بناته مرات عدة أنه نام واستغرق في نومه، غير أنه ما نام قط على الرغم من صوت شخيره الرتيب الذي راح يطلقه بتمثيل شديد الإتقان. كانت ابنته الكبرى واعيةً تماماً لكل حركة يتحركها؛ بل إن نومها طار تماماً حين رأته يحمل بين يديه تلك القرمة الكبيرة التي اقتطعها من جذع شجرة البلوط لتكون المذبح، فأيقظت أختيها، وطلبت منهما أن تستعدا للهرب إن حاول الاقتراب منهما، فتكورت أختاها قربها، وتلاصقتا نَفَساً، وارتعاشاً، ودهشة، وخوفاً. وظلّت هي تهمهم وتسعل لتشعر أباها أنها مستيقظة. ورحن جميعاً يراقبن ما يفعله من شقوق أعواد القصب، وأينه يضع المذبح فوق مكان مرتفع أمام الكوخين وقرب مربط الحمار، ثم وبحركة بائسة لاصق الحمار معانقة، ولفّ عنقه الطويل بذراعيه، وهو يبكي ويتنهد، ونظره ذاهب كالحيران نحو كوخ بناته. ومع كل همهمة تطلقه ابنته الكبرى كان يهزّ رأسه هزات المغلوب على أمره؛ بل هزات الأسف، والعتب، وسوء الحظ الذي لازم ليلته الأولى في مقامه الجديد.

وحين استغرقه الوقت، وهو في جلسته القنفذية، راح يرتعش من البرد، وقد تندّت ملابسه، واقشعر بدنه، ثم خطا نحو الكوخ خطوات بطيئة عاثرة تعيله إلى الوراء أكثر مما تدفعه إلى الأمام؛ مضى إلى الكوخ وصوت دهس قدميه للأعشاب المنداة يصدر حفيفاً باهتاً لا موسيقا فيه ولا رنين. وعندما دخل الكوخ لم يطل المكث فيه، فخرج وبيده سكينه اللامعة، فارتعبت بناته، وندّت عنهن صرخات مكتومة، وقد أدار لهن ظهره طارداً خطاه نحو الحمارة مرة ثانية.

بدا كما لو كان موشكاً على السقوط وقد أخذه الترنح ذات اليمين وذات الشمال، وما أن وصل إلى مكان الحمار، حتى واقفه مقابلة، وراح يلمّس على ظهر الحمار، ورقبته، وأذنيه، وفمه وجبهته، واقترب منه أكثر.

ارتمى على عنقه. احتضن رأسه، وقبّله أكثر من مرة، قبّله وأطال في عناقه، قبّل الدمامل المدماة التي تركتها الأحزمة التي شدّ بها خلال مسيره الطويل، وبلّل كفيه بندى الأعشاب ومسح على حوافر الحمار فتلامعت، وبان سوادها. ثم مرر أصابعه على أسفل بطنه، فاستشعر نعومة وبره الأبيض الناعم الذي لم يسودّ بعد، ثم أشعل بكاءه، فعلا نشيجه. وتصاعد نوبات حزنه وتواترت، وتدافعت تمتماته وغمغماته غير المفهومة. بدا كأنه يساهر ميتاً في حالة النزع الأخير. لحظات، مرت بطيئة دامعة. بعدئذٍ انحنى يعقوب على رباط الحمار بانكسار شديد كرمح من قصب مطواع في يد طفل صغير يثنيه ليعقد طرفيه بخيط. فكَّ الرباط، واقتاد الحمار بهدوء شديد إلى محاذاة المذبح تماماً، لحظتئذٍ بدا الاثنان صاحبين في صورة من أشد الصور مفارقةً، أحدهما يمضي لينتهي، والثاني يمضي ليبدأ.

فجأة وكأن يعقوب أخذه المشهد، أو أنه خاف وارتاع من هذا الانقياد والاستسلام العجيبين للحمار الذي لم يدرِ ما الذي سيحدث له بعد لحظات، فشرع يحثه على الهروب، والتواري، والاختفاء، والابتعاد عنه سواد هذه الليلة فقط، أن يصبح كحبة ملح في نهر جارٍ، أن يذوب، أو أن يُعمى هو فلا يعود يراه!!.

وحين ظلّ الحمار على وقفته هادئاً، بليداً، مستسلماً، على الرغم من أنه حر لا حبل يشدّه إلى وتد أو شجرة راح يعقوب ينهره وهو يبكي، ويدفعه بعيداً عن المذبح الذي قاده إليه، يدعوه أن يهرب بروحه قبل أن تقع الواقعة، غير أن الحمار ما ابتعد، ولا توارى في العتمة أو خلف الأشجار، ظلّ دائماً على مرأى من يعقوب، وفي متناول يده، بينما بناته رحن يلتقطن دمعهن من فوق وجناتهن بأطراف أصابعهن بهدوء وصمت... وأسى!!.

كان يرجوه أن يعانده، أن يركله، أو أن يجري بين الصخور والأشجار ليلحق به ويعيده إلى المذبح وقد أنهك من التعب، وقد جرحت يداه، أو كسرت ساقه. كان يريد، على وجه التحديد، التعبَ حتى يصل إلى عنقه، لذلك راح في آخر حواره مع الحمار، يتوسل إليه أن يركض أو يستدير لينطحه، أو أن يمرّغه على الشوك، أن يسحبه وراءه، وقد أمسك بذيله الأزعر، فوق الصخور والأشواك لعله يرى دمه قبل دم الحمار!!.

كان يريد الفروسية في هذه المواجهة، أن تكون أضحية تعب ومجاهدة، غير أن الحمار خذله، فظلَّ واقفاً وقفة البرودة، والاطمئنان والتسليم بما هو آت، وهذا ما عذّب يعقوب وزاد في أساه وأحزانه الراجفة.

وحين أدركت بناته، اللواتي تجمعن ملاصقةً قرب باب كوخهن، وهن ينظرن إليه... أنه سيذبح الحمار ويقدمه أضحية للرب ليبارك المكان قبل شروق الشمس، تجاسرن ونفرن إليه هلوعات، فطاولنه في وقفته، ورجونه ألا يذبح الحمار الذي ساعدهم كثيراً على قضاء شؤونهم وحاجاتهم، وتساءلن، ويعقوب لا يجيب ولو بكلمة واحدة، ما ذنب الحمار ليذبحه؟!.

وهل دمه طاهر ومبارك؟! وعليه إذا لم يكف عن ذبح الحمار إكراماً لماضيه، أن يكفَّ عن ذبحه إكراماً لمستقبله. بل الأحرى عليه أن يكفَّ عن إراقة الدم في ليلته الأولى في مكانهم الجديد.

لكن يعقوب لا يستجيب لهن كأنه لم يسمع حرفاً واحداً من كلامهن، وكأن الأيدي التي أحاطت بعنقه ولمست على وجهه لم يشعر بها، بل ذهب إلى أن هددهن بأنه سيضحي بواحدة منهن إن منعنه من

تقديم الحمار أضحية للرب، الأمر الذي جعلهن يرضخن لرغبته، بل جعلهن يسارعن طلباً للنجاة، إلى مساعدته على شدّ وثاق الحمار وطرحه على الأرض، ووضع رأسه فوق حافة المذبح.

لحظتئذٍ، أحسَّ الحمار بما يريده يعقوب به!! فاستنفر قوته وعناده، وصحا تماماً، فاستشاط غضباً وانتفض في مكانه مرات ومرات، ونهق نهيقاً غير مألوف من قبل كأنه يوقظ الليل، وامتلأ فمه بالزبد، ودمعت عيناه، وتراقصت أطرافه بارتجاف باد وملموس، وارتعشت أذناه، واضطرب ذيله الأزعر.

وبدا الحمار، لهم، وكأنه جنّ. وما كان يدري المسكين أنه بانتفاضه الشديد، وحركة أطرافه القوية والمتلاحقة كان يحفر لنفسه قبراً بعدما تطاير التراب الطري الذي أشبع بالندى وبات الحمار ينتفض في حفرة بدت معالمها أو أوشكت.

كل هذا أراح يعقوب، فها هو الحمار أخيراً يستجيب لنداءاته المعلنة والمضمرة أن يدافع عن روحه، أن يمحو الاستسلام، أن يبادر إلى السقوط الأخير بعد التعب الجهد والعنيف، أن لا يموت إلا بعد أن يحاول الحياة مرة ومرات، لذلك تركه، وأمر بناته أن يتركنه ليقوم مطروداً كالمقروص، فابتعدوا عنه جميعاً، ولم ينهض! نهره يعقوب فلم يستجب. صرخت به البنات لينجو إلا أنه تماوت برعب شديد. حاولوا جميعاً أن يحملوه، وأن يساعدوه على النهوض غير أنه ظلَّ ممدداً كالميت تماماً!!.

وأسقط في يد يعقوب وبناته، فكان الذي لا بدَّ منه. تعاونوا عليه ثانية، فحشرج الحمار حشرجات الوداع، وتمتم يعقوب، وسكينه الحادة بيده، تمتمات طويلة، ثم هوى فجأة بالسكين على رقبة الحمار، فجرحه جرحاً بليغاً، فانتفض الحمار بقوة وعلا؛ فعلا يعقوب وبناته معه ثم

انطرحوا على الأرض وقد راح الحمار يرتعش بهدوء وخدر حتى همد!! فانكمشت ملامح وجوه بنات يعقوب وانبسطت مرات عدة، وحين أيقنَّ أن ذبح الحمار تمَّ، أحسسن بسعادة النجاة وقد تسللت أصابعهن تبحث عن دفء وحرارة لتشدَّ واحدتهن على يد الثانية!!.

وبأسى، وقد كان الجميع مبللين بدموعهن وحزنهم، نهض يعقوب. نظر إلى بناته، وهو يهمس بخفوت:

«نعم، كان لا بدَّ من هذا.. يا بناتي»!!

في تلك الليلة، لم تنم بنات يعقوب قط. ظللن في حركة، وسهر، وأحاديث هامسة حتى الصباح بعدما عشَّش الشك في صدورهن بأن يعقوب لن يقتنع بأن دم الحمار كافٍ لمباركة المكان، وأن تقديم الحمار أضحية للرب ليس إلا خدعة صنعها لإيهامهن بأنه قضى مراده، وأنه قد ينهض إليهن مع ساعات الصباح الأولى، وهن في حلاوة نومهن فيجرّ واحدة منهن إلى المذبح، ويقدمها أضحيةً مبللةً بالندى مع شروق الشمس، وبذلك يغطي الدمُ البشري دم الحمار الطري الدافيء الذي روّى الأرض قبل قليل. ولكم دهمتهن، في سواد الليل الأخير، التخيلاتُ، فتصورت كلُّ واحدة منهن أختها وقد اقتادها أبوها إلى المذبح البلوطي فنحرها وهي راضية مطمئنة، بينما الحمار ينهق نهيقاً مفزعاً، وقد عاد من موته ليراقب ما يحدث، لذلك واصلن السهر، على الرغم من انشغال أبيهن في سلخ جلد الحمار، وتقطيع لحم جثته إلى قطع صغيرة، وتوزيعها بجلبة واضحة على حدود بيته، وحول الجسر، وهو يتمتم ويدعو بكلمات متداخلة لا تبين. ولم تدر أي من بناته لماذا يفعل ذلك، وتساءلن فيما بينهن عشرات المرات لماذا لا يجرُّ أبوهن جثة الحمار كتلةً واحدة ويواريها بين الأشجار ويتركها هناك طعاماً للوحوش والطيور، وينتهي من ذلك كله وينام؟! بل، لماذا ينشط في توزيع جسد

الحمار قطعةً قطعة على حدود البيت،وحول الجسر وكأنه يصنع بها سياجاً؟! ولم يصلن إلى إجابات شافية.

وظلَّ صوت همهمات يعقوب مسموعاً وواضحاً، وظلَّ صوت تكسيره لعظام الحمار مسموعاً أيضاً وسط أصوات هدير الطواحين، وخرير المياه المنحدرة، وحفيف أوراق الشجر، وأزيز الحشرات اليقظى.

ظلَّتْ بنات يعقوب ساهرات حتى انشقَّ الصباح. في تلك اللحظة، وحين بان الضوء وانتشر، التحمن في عناق ثلاثي مدهش، وتبادلن قبلات صائتة فرحاً بالنجاة. وعلا صياحهن وضجيج أقدامهن، وهن يندفعن إلى خارج الكوخ، ركضن إلى مكان وقوف الحمار، وتفقدن مربطه، ومكان هجعته، والأعشاب التي تناومت تحته، وتأكدن من وجود المذبح، والدم، والحفرة الصغيرة التي حفرتها أطراف الحمار، فأيقنَّ حقيقةً، أن ما حدث ليلة البارحة لم يكن حلماً مزعجاً، فالحمار غاب فعلاً، ومكان الحفرة موجود، والدم واضح تماماً، والدروب التي افترعها أبوهن بين الأشواك الطويلة المحيطة بالبيت والجسر واضحة أيضاً. وعدن إلى التلاحم والعناق مرة أخرى. وحين تباعدن، رأين يعقوب واقفاً بباب الكوخ قصيراً أكثر مما اعتدنه عليه. ذابلاً، مرتجفاً، وجهه مصفر وعيناه غائرتان وفمه يسيّل لعابه باضطراد. كان ينظر إليهن بإشفاق، وحب وانكسار، ودونما إبطاء تقدمن نحوه مندفعات، فتقدم هو خطوة واحدة، وأحطن به وهن يقبّلنه، ويمسحن وجهه، ويمسدن شعر رأسه القليل. بدون وهن يلمسنه كأنهن في شك بأن في داخل ثيابه جسداً يتحرك، فقد بدا لهن شبحاً أو صورة على شكل رجل وسألنه:

«وماذا بعد يا أبي»؟!

فأجاب ببطء، وهو يجاهد لكي يكون نشطاً فرحاً:

«أحتاج إلى التهنئة يا بناتي!

لقد قبل الرب أضحيتي، فباركني، وبارك مقامي»!!

فَفرحن، وتقافزن حوله، واندفعن إلى تقبيله ثانية وسط صخب ومرح باديين دون أن ينتظرن منه أية إضافة أو شرح، ودون أن يسألنه كيف عرف أن الرب قبل الأضحية.. وهي حمار؟!

ومن أخبره بذلك؟ ومتى تسنى له ذلك، وهو الذي لم ينم لحظة واحدة؟! ومن دون أن يعرفن الأجوبة، سألنه مرة أخرى، وبخوف شديد، ولهفة حارة:

«هل نجونا يا أبي»؟!

فهزّ يعقوب رأسه بقوة وتأكيد، وشفتاه ترسمان ابتسامة صغيرة، جاهد كثيراً لإظهارها، وقد انفرطت دموعه على خديه وشعر وجهه. بكى ليشارك بناته فرحتهن وقد اندفعن في بكاء وضحك وتمتمات وعناقات لم يألفنها من قبل.

كان يبكي لأنه لم يقدم واحدة منهن أضحيةً لليلته الفائتة؛ أضحية تليق بمقام الرب وأعطياته القادمة.

وكنَّ يبكين فرحاً لأنهن نجون، لذلك شرعن في الدوران حول أبيهن الذي سقط من فرط حزنه وتعبه، وبصره شاخص إليهن راضياً بما يفعلنه، وبما يراه من سعادة وفرح، ونشاط، وشرعن يرددن بعذوبة، والشمس تواصل نهوضها وعلوها خطوة خطوة في درج السماء العالي:

«أبي، أبي.. يا سيدي

طلع الصبح وبان

فاغفر لنا ما كان

نحن عبداتك طول المدى وخطاك دوماً على العدا

* * *

أبي، أبي يا سيدي

طلع الصبح وبان

فاغفر لنا.. ما كان!!»

بدون، وكأنهن يقمن مشهداً احتفالياً، تعبن كثيراً في إعداده، والتدرب عليه. فقد تبادلن أدوار الغناء الفردي بانتظام وتناسق بديعي، وراقصن أباهن، على الرغم من إعيائه الشديد، وقبّلنه بالمناوبة، ثم أحضرن إليه الماء فشرب وارتوى، ثم غسلن له يديه ووجهه وشعر رأسه، ونفضن الغبار عن ثيابه، وأعددن له طعام الإفطار، وتناوبن على إطعامه مثل طفل صغير لا يقوى على شيء سوى الامتثال لما يطلبن منه. وبعد ذلك رجونه أن ينام بعدما قضى الليل كله ساهراً، فرفض بشدة لأنه من المعيب عليه أن يمضي أيامه الأولى في مقامه الجديد في النوم، وأكّد لهن أن للتعب في أيامه الأولى حلاوته وبهجته، لذلك تركنه يندفع إلى شجرة البلوط التي اقتطع منها المذبح ليلة الأمس، وراح يشقق بعض أغصانها، ويقطعها، ويوزعها تحت أشعة الشمس لتجفّ، وتصبح، بعدئذٍ، وقوداً.

أما بناته، وبعد أن رأين انشغاله بالشجرة، فقد انحدرن مع الدرب نحو النهر، وأصواتهن نافرة في كلام متداخل لكأنهن يستأنسن بالضجيج الصاخب، غير عابئات بالأشواك، والصخور، وأطراف نباتات العليق التي راحت أشواكها تقتات من ثيابهن، كنَّ كمن يقبل على الحياة مع طلوع الصباح، وبكل الحضور والبهجة.

وهناك، على حافة النهر، أخذن يساقطن تعبهن، وشحوب سهر الأمس مع كل رشقة ماء. غسلن أيديهن ووجوههن، وأقدامهن، وسرّحن

شعرهن، وتراشقن بالماء مرات عديدة، ثم ملأن قربة الماء، ونهضن عائدات، سلمن الخُطا للدرب الضيق الصاعد، وهن في نشاط وصخب ومشاغبات ملأى بالحنو والملاطفات الأنوقة. طاردت الواحدة منهن أختيها بأعواد القصب وشجيرات الشوك المقصوفة، وتقاذفن بحبات التوت التي لوّنّ بها خدودهن كيفما اتفق.

كنّ، ومن مكانهن يشاهدن نساء قرية الشماصنة وبناتها على مبعدة منهن، وقد انتشرن كالعناقيد. بعض منهن يغسل أواني الطبخ والصحون، وبعض آخر يغسل الملابس، وأخريات يغسلن جزات الصوف. لم تكن المسافة بين الطرفين بعيدة. كانت مسافة تسمح بالرؤية، وتبادل التحية.

وحين وصلن إلى البيت، رأين أباهن جالساً يستريح قرب أغصان شجرة البلوط التي لم ينته من تقطيعها وتشقيقها بعد، وقد حنى رأسه فوق يديه القابضتين على ذراع بلطته. بدا مهموماً، منهوك القوى، مستغرقاً في شرود طويل. وصرخن به:

«أبي، أبي»!

ففكّ تكوره، وبادرهن بالقول:

«تأخرتن يا بناتي، والشمس علت كثيراً، والنهار مضى، ونحن لم نقضِ أشغالنا بعد»!

وتعابثن حوله، وهن يسألنه:

«ولم العجلة يا أبي»؟!

فقال، وهو يجاهد لينهض:

«أريد الذهاب إلى القرية لشراء ما يلزمنا يا بناتي»!!

لذلك لم يمضِ وقت طويل حتى قصد يعقوب وابنته الكبرى القرية

عبر الدرب الناحل المترب، هو في المقدمة يجرّ خطاه جرّاً، وابنته خلفه تجيل النظر في كل ما حولها وهي دائمة الالتفات إلى الخلف نحو أختيها اللتين طلب منهما أبوهما أن تجلسا فوق ناصية الجسر حتى يعود، وألا تبقيا داخل الكوخ لأمر لم يكشف عنه!!

حاشية ثانية:

ما أن ابتعد يعقوب وابنته الكبرى عن الكوخين، وغابا وراء الصخور الرمادية والبيضاء العالية، وأجمات الشوك الكبيرة المتشابكة، حتى انطلقت ابنتاه الوسطى والصغرى نحو الجسر، عبر الدرب الترابي الضيق المسيَّج بشجيرات العليق، وأشجار الزيزفون والصفصاف، والصاعد إليه. سلمت الفتاتان خطاهما لتموجات الدرب العديدة وصعدتا إلى الجسر؛ إلى ناصيته الشرقية تحديداً وجلستا بهدوء، وقد أطلقتا البصر نحو أبيهما وأختهما الكبرى اللذين كانا يغيبان رويداً رويداً كلما ابتعدا. وبدأتا معاً تستكشفان المنطقة من عل ببصرهما الجائل في كل ما يحيط بهما، رأتا طواحين الماء، ومعصرة الزيتون، وقطعان الماشية المنتشرة في الفضاءات البعيدة عن القرية، وأجمات أعواد القصب، وأشجار التين والرمان، والتوت، والسنديان، وحوّامات لمياه الحلزونية، والسهول الطويلة والعريضة بتربتها الحمراء الممتدة والموغلة في البعيد البعيد، ولفهما صوتُ انحدار المياه الهادرة، وضجيج الطواحين، وصخبُ المعصرة، وتناهى إلى أسماعهما غناء الرعيان، وعزفهم، وشاهدتا معاً الانتشار الكثيف لبنات قرية الشماصنة ونسائها على طول ضفة النهر وهن يقمن بأعمال الغسيل للأواني، والثياب، والصوف، ويُبسط الخرق الملونة. وبدا كل ذلك لا يعنيهما في شيء، إذْ أن البنت الصغرى راحت بانطواء عجيب، وشحوب بادٍ، ولوعة واضحة تسأل

أختها الوسطى عن أمها التي لا تتذكرها إلا كطيف أخلت ملامحه تتبدد وتتوارى كلما تقدمت الأيام وكثرت تترى!!.

كانت الصغرى تسأل أختها عن صفات أمها، والأشغال التي كانت تقوم بها؛ وعلاقتها بأبيها والناس. وكيف كانت تأكل وتشرب؟! وأختها الوسطى ترسم لها صورة أمها في فرحها وحزنها، وفي أوقات أشغالها وأعمالها، فتقول:

كانت زينة!

ضاحكة، ناعمة الحديث. لا تهدأ على حال، تعمل ليل نهار. كانت هي آخر من ينام في البيت سواء أكان أبي موجوداً أم غائباً، وكانت هي أول من يستيقظ في الصباحات. تقول: العمل أمانة وحياة! ومن غير العمل تمضي الحياة بلا سعادة، تصير بليدة ومكروهة.

كانت إذا ما مشت خارج البيت تصير فرجة للنساء قبل الرجال. يلقها البصر من كل جانب. كانت وكأنها الجمال الذي يمشي.

تبدو من بعيد جميلة ورائعة، ومن على قرب أكثر جمالاً؛ تفاصيل جسدها مدهشة، وتقاطيع وجهها ساحرة. كان حديثها صافياً وحلواً، وصمتها لطيفاً ومؤثراً. غير أن حظها مع أبي كان قليلاً. سعادتها لم تكتمل لا بالمال ولا بالأولاد.

ظلَّ أبي يريد الكثير الكثير، وظلت هي قانعة، لكنها لم

تقف في وجهه يوماً؛ لم تقل له هذا.

يصير، وذاك لا يصير. كانت مطيعة إلى درجة الغفلة، وهذا ما كان يرضي أبي تماماً. لكنها، وفي آخر أيامها، جمعتنا ذات مساء وقالت لنا محذرة:

أن لا نأمن أبانا لأنه لم يكن أميناً عليها، ولأنه كان يكلفها بما لا تطيق، وبما يؤذي مشاعرها. لقد عاشت ليالي عديدة مع بعض الرجال من أجل أن تأخذ منهم القليل القليل من المال ليسدد أبي ديونه! وعملت معه طويلاً في المزارع، وتجارة البيض، وسايرت أصحاب الحول والطول وسكتت عن تصرفاتهم المخجلة من أجل أبي والمال معاً.

كان أبي يدفعها أمامه من أجل أن ينال هو، وكأن مشاعرها وأفكارها غير موجودة، ودونما حساب لرضاها أو رفضها.

وكانت هي تقبل بذلك من أجل أن يقف هو على قدميه بين الناس. كانت توافقه على كل ما يطلبه منها من غير تذمر أو جفاء أو مداورة من أجل أن يصير له شأن كبير بين الخلق. لكن ذلك الشأن لم يوجد يوماً، ولم يكن!! حيث ظلّ أبي تائهاً بين مهنة وأخرى، وعاثراً في كل ما تمسه يداه، إن وقف مشت الدنيا، وإن مشت وقف هو!! إلى أن خطرت له فكرة أن يتعلم مهنة الحلاقة عند أحد الحلاقين الأرمن؛ تلك الفكرة التي كانت سبباً من أسباب هجرتنا من الشمال إلى هنا. فقد وعد أبي أمي أن يتعلم مهنة الحلاقة عند الأرمني بسرعة قصوى مقابل

أن تعمل عنده فترة من الزمن؛ أي أن تنظف بيته، وتطبخ طعامه، وتغسل ثيابه لأنه وحيد في بيت شاسع كبير، فوافقت أمي على ذلك! وحين ذهب وإياها إلى دكان الأرمني قال له: هذه أختي، أضعها في خدمتك مقابل تعليمك لي مهنة الحلاقة، فازدادت موافقة الأرمني حرارة بعدما رأى جمال أمي المربك، ووعده خيراً..

غير أن أبي لم يفِ بوعده لأمي لأنه لم يتعلم المهنة الجديدة لا في أيام ولا في شهور، ظل يريد المزيد المزيد من المعرفة والأسرار، وقد تباطأ الأرمني أيضاً في تعليمه بعدما راقت له أمي التي راحت تشكوه لأبي. وأبي يقول لها اصبري!! قالت له: إن الأرمني يغازلها فقال:

اصبري! وأنه يحتضنها، فقال: اصبري!.

وأنه يجبرها على خلع ثيابها، فقال: اصبري!.

وهكذا إلى أن قالت له، وقد طار صوابها:

إن الأرمني يريدها زوجة شرعاً وعلى مرأى من الناس وبمعرفته/. فقال لها حاولي إقناعه أن يتم الزواج سراً!! فجنت أمي تماماً!!.

لأنها ما كانت تتوقع أن يصل زهد أبي بها إلى هذه الدرجة!!.

آنذاك كانت قد مرت شهور عديدة، وأبي يتعلم مهنة الحلاقة وكل شؤونها وملحقاتها عند الأرمني، وآنذاك أيضاً واجهت أمي، لأول مرة في حياتها، أبي!! قالت له: لا!!.

وطلبت منه أن يقول للأرمني بأنها زوجته لا أخته!! فلم يوافقها، ورجاها أن تصبر قليلاً حتى يقضي شؤونه، ويصل إلى غايته، ولم توافقه هي أيضاً! وطال الصراع بينهما، أحدهما يصبر من أجل أن ينال، وآخر يصبر وهو تحت الأذى والإهانات. ومرت أيام كثيرة إلى أن واجهت أمي الأرمني، وقد ضاقت بتصرفاته ذرعاً، وكأنه زوجها تماماً، وقالت له الحقيقة!! فهاج الأرمني، وغضب غضباً شديداً، فطرد أبي من دكانه، وأشاع خبره بين الناس؛ الأمر الذي جعل أبي يهاجر من الشمال بعدما حقّره الآخرون، ولاموه كثيراً، وراح يقضي أيامه التالية مع أمي في تنقل موجع من مكان إلى آخر.

كنّا، آنذاك، صغيرات لا ندري من أمور الدنيا شيئاً، وكنّا، كما تقول أمي، السبب في بقائها مع أبي صابرة، وقد نسيت بهجة الحياة وجمالها.

وصمتت الأختان، وقد أقلقهما الماضي، وبينما هما توزعان البصر فيما حولهما، شاهدتا شاباً جميلاً يتعرى تحتهما تماماً بالقرب من قواعد الجسر ليغتسل وكأن ما من أحد يعنيه، أو يثير خوفه!! بدا لهما بجسده المتناسق، وشعره الطويل، وهدوئه الشديد، مطمئناً تماماً. وتبادلت كل منهما النظر إلى وجه أختها، وابتسمتا معاً، فقد عرفت كل منهما الشاب! إنه رحمون الذي أوقف مركبهم نهار الأمس في منتصف الدرب، وهم في طريقهم إلى الجسر، وقد دهشن بجماله، وهدوئه، وطوله. شاهدتاه عارياً تماماً وسط الماء، وبالقرب من

الخضرة المحيطة بالنهر من كل جانب. يفرك جسده بنباتات النعناع البري حيناً، وبأوراق الطيون الخضراء الطرية حيناً آخر، وكأنه سها عن الدنيا وما فيها وانشغل ببرودة الماء، وجمال النهر والخضرة الرائعة التي تحيط به!.

ظلتا تراقبان رحمون وهو يغتسل دون أن تنتبها إلى هدير الطواحين، وصوت المعصرة، ولا لعزف الرعيان وغنائهم، ولا لصخب النهر المنحدر فوق الصخور. كانتا غارقتين بالتمتع والرؤية.. ورحمون لا يلقي لهما بالاً! تساءلتا مرات عديدة، هل رآهما، وهل تقصد أن يغتسل بالقرب منهما، وتحت بصرهما، أم ماذا؟! وحين أدركتا أنه لا يحفل بهما، شاع الاطمئنان إليه في نفسيهما أكثر فأكثر، وراحت كل واحدة منهما تفكر أمام أختها بصوت عال، وتبني أحلامها وهواجسها وخيالاتها بوضوح تماماً، وقد تمدد رحمون على عشب النهر الطري عارياً تماماً. وضع ذراعيه تحت رأسه ونام. كان جسده الجميل مكشوفاً، ومربكاً، ومحيراً بالنسبة للأختين!! وبعد حوار، وغمز، وتشجيع، وبعد تسييل عشرات الأفكار والأحلام، تجرأت الأخت الصغرى، وقالت لأختها:

- سأنزل إليه!!.

فأجابتها الوسطى:

- وبقربه تصنعي المفاجأة والدهشة، وارتمي عليه!!.

فابتسمت الصغرى، ولملمت أطراف ثوبها الطويل،

وهبطت بحذر شديد من فوق ناصية الجسر، وتقدمت فوق خطاها، وبهدوء شديد من مكان نوم رحمون، الذي استند، وراح يراقب قدومها قبل أن تصل إليه، كان يبتسم، وكانت هي تبتسم أيضاً.. ونهض هو، وظلّت هي تتقدم نحوه، وما أن وصلت إليه، حتى ارتمت في حضنه تماماً فأخذها رحمون بين ذراعيه وادعة لينة، وكأنها تعرفه، ويعرفها، من ألف عام. كان يضمها ويبعدها عنه.. وهو ينظر إليها بدهشة وجنون. كان يحدثها، ويتمتم لها، وكانت هي تبتسم. وعلى عجل نظرت نحو أختها القاعدة فوق الجسر، واستشعرت رضاها وموافقتها، ولم تدر كيف حملها رحمون وركض بها نحو النهر، وصوتها يتعالى برنّة من الخوف الجميل، غطّها بالماء الصافي، الأزرق اللون، البارد تماماً، فعلا صراخها الأنثوي المهيج، ورماها في النهر، فصرخت أكثر، واندفع نحوها، وأخذها إليه، وأخرجها مبتلة تماماً، فبدت مفاتنها زينة، ونشوة لا تقاوم، وحملها بين ذراعيه القويتين، ومضى بها إلى تحت إحدى شجيرات التوت الضخمة، وفوق مفرش عشبي نثرها، وراح يخلع ملابسها المبتلة قطعةً قطعةً، وينشرها فوق أغصان شجرة التوت، وراح، على مهل وبهدوء رخي تماماً، ينشف جسدها بخفيف أنفاسه، وهي راضية، ألوف، ملتصقة به، وكأنها تعرفه منذ الأزل بدت لينة، وطرية، ومطواعة، بين ذراعيه، تشتهيه أكثر مما يشتهيها، ولم يطل بهما الوقت حتى توحّد الجسدان،

وغابا في تفصيل واحد، لجسد بشري حائر وعطش، يهدأ، ويتلوى، كأنما الأنسام الليلية هي التي تحركه بلطف شديد الأسر والنعومة، شديد اللهفة والعذوبة!!.

بدا الجسدان فعلاً جسداً بشرياً واحداً، شيئاً له بكورته، وأسراره، وجمال بريته، ومتعته الخالصة، ورقّته الطافحة. ولم يمض الزمن، لم يتحرك أو يرمش. توقف تماماً. حتى صخب النهر ولى، والدنيا ضاقت حتى صارت سريراً ناعماً دافئاً لذيذاً من العشب المندّى الطري لمخلوقين تعارفا قبل لحظات فقط، فأحتما بالنشوة المحلومة قرب الماء، وبين هفهفات أوراق الأشجار الكثيفة المتشابكة، فتوحدا في غيمة الرغبة الذاهلة، وغابا وقتاً كان من خمرة وأطياف وريحان وشذا، وقتاً لم يخطر ببالهما قط، وقتاً هارباً إليهما بكل ألقه وحضوره ونشوته الصافية!!.

ولم يدر رحمون، كيف تبادلت الأختان ولرات عنة، مواقع الحراسة، وملاصقته! كان غائباً تماماً في سحر العذوبة الأنثوية البعيدة المنال، كان أشبه بالنائخ الذي لا يقع، وبالساهر الذي ذبلت عيناه، فازدادت رهافة أصابعه، ونعومة جلده، بدا كما لو أنه جسد من الأثير يرى ولا يرى. وبدت الأختان بقربه، وبملاصقته، وبتوحدهما معه، وكأنهما الدنيا التي يشتهي فتوحّد بهما، وأنبت كل لطافته، ولفّهما، دون أن يدري بأنهما اثنتان، بالعذوبة التي أذابتهما، وأوقدت نارهما حتى صارتا كالتنور رؤية وجمالاً وحساً!!.

وظلّت الحال كذلك، النهر في مجراه، والصخب في شؤونه، والطواحين وناسها وهديرها، والمعصرة ورتابة صوتها، والماشية والرعيان في عزفهم وابتعادهم، وبنات القرية وأعمالهن وأشغالهن في الطرف البعيد البعيد من النهر، ورحمون وسعادته، والأختان وجرأتهما النادرة، إلى أن أطل موكب يعقوب وابنته الكبرى عائدين من القرية، يتقدمهما حمار، علت على ظهره الأكياس المملوءة. لحظتئذٍ انطفأت الدنيا، غاب بريقها، ولت سعادة النهر، إنطوت طراوة النباتات، طارت الألوان وعاد الصخب إلى النهر، واستيقظت المخاوف، عاد العقل إلى قسوته. فهبطت الأخت الحارسة فوق الجسر، وأخبرت أختها، ومضتا معاً بعيداً عن رحمون، الذي دهش بأن المخلوق الأنثوي الذي أحبّ صار اثنين! وراح يتابع بنظره خطاهما المرتبكة، ويسمع همسهما اللطيف، والتفاتاتهما الحنون، وانكمش على نفسه كمن فقد عزيزاً، وانطوى»!!.

تفصيل صغير جداً:

«بدت الأختان، في عمر واحد وكأنهما توأمان طولهما زينة، بوجهين مدورين أبيضين، وشعر كستنائي، وآخر أسود، ولكن منهما عمارتان تأخذان من القلب غصّة.

كانتا ممتلئتين، كأنهما تنوران مملوءان بالجمر المدهش بحرارته، ولونه العصي على التوصيف، فلا هو أحمر، ولا ناري، ولا زهري، جمر له علاقة بالأنثوية المشتهاة. بدتا، وكأنهما أقبلتا على جماليات الدنيا وأسرارها

الرغبوية على نحو مبكر، لكأنهما عرفتا أسرار الرجل وذكورته قبل مئات السنين»!!.

تعليق صغير أيضاً:

«لقد منحت الأختان جمالهما، وأنوثتهما لرحمون، بعد أن اتفقتا على أن يكون هو وحده لا غيره حارساً لهما، ولأختهما في هذه المنطقة. أن يكون هو لهما دون علم أبيهما. سيكون هو مؤنس الليل، وطارد وحشته، وقبول الدنيا وبهجتها»!!.

تذييل ختامي:

«بعد رحيلهما بوقت، وصعودهما في الدرب الملتوي الذاهب إلى الكوخين، والمسيّج بالصخور وشجيرات العليق.. رمى رحمون جسده في النهر، واغتسل طويلاً، ثم خرج ولبس ثيابه، وركع تحت شجرة التوت، فوق مفرش العشب الطري، وصلّى صلاة طويلة للرب الذي أعاد إليه غزالة فجأة، وحين توارت الأختان عنه كان لا يزال ماضياً في صلاته الطويلة الطويلة..!!.

ولم ينته من صلاته إلا عندما رأى المخلوق الأنثوي الجميل وقد عاد إليه بزي آخر، وجمال آخر، وبهيئة أخرى، فقام من صلاته، وأخذ أنثاه بين ذراعيه، وتقدم بها نحو النهر، وهو يشمها، ويتذوقها، وهي راضية مطمئنة، تولّد له الابتسام، والمذاق الطيب، وطيوف الألوان البكر، وغاب وإياها، في توحد نادر، حتى جفّت ملابسها، وحتى آخر حلقة من حلقات البقعة الأرجوانية

التي لفتهما. ولم يكن ذلك المخلوق الأنثوي سوى الأخت الكبرى، ابنة يعقوب التي عادت لتوها من القرية، متعبة، لم يعدها إلى الحياة إلا سر رحمون الذي أفضت به إليها أختاها، فتحايلت على أبيها بمساعدة أختيها، وهبطت الدرب.. إلى حيث هو رحمون يصلي. وهناك، وتحت شجرة التوت الكبيرة، وعلى مفرش العشب الندي الطري، حلمت كما حلمت أختاها، وعاشت كما عاشتا، وانتشت نشوتها المعذوذبة. وبذلك تساوت مع أختيها بالتعب، والمسرة الكاملة!!

الكتاب الثالث

«العافية»

من على بعد بدت ليعقوب وابنته الكبرى، بيوت الشماصنة متناثرة على مساحات واسعة من الأرض، كأنها توازعت الجهات وانفردت بها وحدها، بيوت متوسطة الارتفاع رمادية اللون، زنرت حجارتها خطوط بيضاء من حوار النهر، مسيّجة بسياجات عريضة من أغصان شجيرات السدر الشوكية، أسيجة تحول دون مرور الناس والدواب كيفما أرادوا، بيوت لا تؤتى إلا مواجهة، وقد افترشت بعض جهاتها الحواكير، وأشجار الكينا العالية، وأشجار الزيزفون، والحور، الحواكير التي بدت قفراً بعدما نفضت أوراقها الخضر ونباتاتها عنها، بيوت شديدة التشابه بالمداخل، والأسيجة، والأبواب، والنوافذ، والأسطحة، والمصاطب، المصاطب الباردة مساء والتي تمتلىء بالناس عند الغروب أو ما بعد ذلك بقليل، والتي يرمي الأهالي فوقها التعب، والأحاديث، والحكايات القديمة والذكريات، والتي يخطبون، فوقها، لأولادهم وبناتهم، أو يعقدون صفقات البيع والشراء والمبادلة، تلك المصاطب المنارة بالفوانيس، أو ضوء القمر، والتي فوقها يتوارثون تاريخهم وتاريخ أجدادهم من قبل!!

من بعيد، بدت الشماصنة ليعقوب وابنته بيوتاً هادئة، وادعة،، وقد ظهر في بعض جهاتها الأطفال وهم يلعبون ويتراكضون، وبعض الحيوانات الشاردة الباحثة عن طعامها. كان يعقوب وابنته يتبادلان الحديث والتعليقات حول ما يشاهدانه على جانبي الدرب، ولم يطل

بينهما الوقت حتى راح يعقوب ينكشف على ضعفه أمام ابنته حين شرعت تسأله أسئلة كثيرة متلاحقة لم يجد لها أجوبة، أسئلة أقلقته، وبعثت الحيرة والغضب في نفسه، الأمر الذي جعله ينهرها بقسوة، بعد أن رجاها مرات عدة أن تؤجل أسئلتها لوقت آخر، نهرها لكي تكفّ عن الأسئلة ، ولكي تريحه من عناء البحث عن أجوبة قد لا تقنعها!! وأوصاها، وقد غير لهجة انفعاله وغضبه، أن ترى جمال الطبيعة، وتطاول الأشجار وتشابكها، وأن تستمتع ببرودة الظلال،وحلاوة الأنسام وعذوبتها؛ فهي أنثى، وجميلة، وعلى الأنثى أن تكون رقيقة، ترى فتصف، لا تسأل فتعذب!! لكن الأسئلة لم تنقطع، ويعقوب لم يكبت انفعاله، فالبنت كانت تسأله عن أسماء بعض الأشجار والنباتات، والتلال، والينابيع، ورجوم الحجارة، والصخور التي مروا بها، وعن أسماء بعض القرى البعيدة البادية لهما، ويعقوب لا يجيب. يتمتم ويبتلع ماء أنفه، ثم يهمهم، وكأنه يهدىء نفسه وبريقها، وابنته لا تسمع منه إلا قوله المتواصل:

«ستعرف كل شيء مع الأيام يا ابنتي،

انتظري، ولا ترهقي والدك بالأسئلة»!!.

وبدل أن تهدأ ابنته وتكفَّ عن الأسئلة، تطارده بقولها الذي يكاد يقلقه:

«وكيف لا تعرف أسماء الأمكنة والنباتات والأشجار يا أبي، وهي لنا»؟!.

وتزيد في إلحاحها كسكين تحفر مجرى لها بهدوء:

«وكيف تكون لنا، ونحن لا نعرفها»؟!.

وما من إجابة!!.

صمت مطبق يعلوه صوت شهيق يعقوب وزفيره، ودب الأقدام فوق الطريق، فتنطفىء الأسئلة واحداً واحداً، وتظل هي منقادة إلى الدرب الذي بدا كأنه يمتص قامة والدها رويداً رويداً، أو لكأن منظره الرزيء يزيده غياباً، لذلك تختصر أمها في سؤالها له:

«ولماذا لم تتزين يا أبي، فأنت ستواجه أهل القرية»؟!.

فيجيبها، وكأنه عثر على مفتاح الكلام أخيراً:

«لا أريدهم أن يطمعوا بي يا ابنتي»!.

وتسأله:

«كيف»؟!.

فيقول:

«إنني بمنظري هذا أكسبهم للأبد»!!

وتكرر ابنته سؤالها:

«كيف»؟!.

فيقول يعقوب:

«هم أهل عاطفة، يشاهدون، فينفعلون»!!

ويضيف يعقوب بعد لحظات من الصمت:

«سترين ذلك بنفسك بعد قليل»!.

ولكي ينهي أسئلة ابنته، ينطلق يعقوب في حديث طويل عن جده الذي كان يسأل كثيراً حتى ضاق به الناس، ولم يكف عن الأسئلة فضاقت به الأمكنة، ولم يكف أيضاً فضاق به الزمان، وعندئذ شكاه الزمان إلى ربه، فقام الرب وقطع ورقته من شجرة الحياة، وأخذه إليه

بلمحة واحدة، ورماه في السماء الأولى، وقال له: اصعد أيها الملحاح العجول. وراح الجد يصعد إلى السماوات العليا من دون سلالم أو مُعين من الملائكة، لكن ذلك الصعود الطويل المضني لم يصل به إلى السماء الثانية، بل لم يقرّبه منها إطلاقاً، وظل هكذا في صعوده الأبدي إلى أن أشفق عليه ابن كاهن السماء الأولى، فوسّط والده الكاهن عند ملك السماء الأولى لكي يفك عذابه عنه، ومن ثم لكي يتوسط عند ملك السماء الثانية ليسمح له بالصعود دون مشقة، وهكذا حتى يصل إلى السماء السابعة، إلى حيث هو عرش الرب، وهناك يقوم ملك السماء السابعة بترقيق قلب الرب على الجد ليعفو عنه، بأن يقبض روحه ويرميه في مملكة الأموات، غير أن الرب الذي كان في تلك اللحظة يرى، من علوه الشاهق، بعضاً من الناس وهم يرتكبون المعاصي بسبب أسئلة الجد، والتي منها:

«إذا ما قلعت عينك، هل يخرج من تحتها حليب أو دم!!»

«لنجرب»!!.

«وإذا ما عضضت قلب أمك الحامل، هل يصرخ الجنين أولاً؟!»

«جرّب».

لم يستجيب الرب لكلمات ملك السماء السابعة الرقيقة وأمر في التو والحال تعليق الجد على مسمار خشبي راح يتغذى يوماً بعد يوم من جسد الجد الذي يسارع إلى ترميم الثغرات التي يحدثها المسمار.

وصمت يعقوب، فشهقت ابنته، وكفت عن الأسئلة فعلاً بعد أن كانت، بين حين وآخر، تحاول أن ترمي بعض كلمات الاستفسار: لماذا، وكيف، وهل،... إلخ.

وحين انتهى يعقوب من حديثه عن جده، كان قد أصبح في

منتصف منعطف تظلله أشجار الزعرور الكبيرة، وفجأة، وحديث يعقوب يعشش في رأس ابنته ارتمت البنت عليه من الخلف باندفاعة شديدة مما أدى إلى وقوعه هو أيضاً، فتكوم الاثنان فوق بعضهما، وقتها حين صرخت بهما امرأة عجوز، طويلة القامة، نحيلة كعود الخيزران، تتوكأ على عصا أطول منها، ثيابها سوداء، ووجهها طويل ناشف، وشعرها الأبيض منفوش كجزة صوف. بدت مستندة إلى صخرة رمادية اللون مجاورة لواحدة من شجيرات الزعرور المعششة فوق المكان. وراحت تحدق إلى يعقوب وابنته اللذين وقفا بهلع وخشوع باديين، وأيديهما غير مكترثة بالغبار الذي عفر ثيابهما، وقد استدارا نحوها منكمشين كأنهما ينظران إلى نبت شيطاني خرج إلى الدنيا في التو والحال. ومن دون مقدمات، سألت العجوز يعقوب بقسوة عاتية:

«أتضحي بحمار يا يعقوب»!!

نطقت الكلمات بوجه مغلق، لا نافذة فيه ولا شق، فتلجلج يعقوب، وحار بماذا يجيب! ودارت عيناه في وجهه المصفر باضطراب مفضوح، ولسانه يجول في تجويف فمه باحثاً عن لعاب يهيء الكلمات ويدفعها، وتردد في الإجابة وتباطأ في الكلام، وقد ظهر أمام العجوز مكشوفاً، فأضحية الظلام تعرفها، وتعرف اسمه، فماذا يقول؟! وظل منكمشاً، وهي تعاتبه. ولم ينطق بحرف واحد. لم تخرج همهماته. فأضافت العجوز:

«أتجعل من الحمار أضحية يا يعقوب»؟!.

ولم تتقدم العجوز نحوه، ولم تبعد بصرها عنه، وانتظرته ليقول شيئاً.ولكأن تكرار السؤال أسعفه وبعث النطق فيه، فقال:

«ضعفت يا سيدتي»!!.

فرددت وراءه:

«ضعفت يا يعقوب، وأنت في أول الدرب»!!.

فيغمغم، وابنته من خلفه تلتصق بظهره حتى لتكاد تدخل في ثيابه:

«بناتي كسرن ظهري يا سيدتي،

لم يكن أمامي سوى الحمار»!.

وتقدمت نحوه برشاقة لم يتوقعها، وهزّته بعصاها:

«ولماذا لم تضح بعضو من أعضائك»؟!.

وأضافت:

«أين هي ذراعك التي قطعتها،

أين هي عينك التي اقتلعتها، أين هي قدمك التي بترتها»؟!.

وحين تتعالى همهماته، تصرخ به:

«والرب يا يعقوب»؟!.

فيقول كأنما أطلق سراحه:

«لقد قبل أضحيتي يا سيدتي»!.

سامرته حتى الصباح، بالرجاء والمغفرة حتى قبلها»!.

كانت ابنته لاطية خلفه تماماً، وقد اصفرّ وجهها، وازداد اضطرابها، تتقافز بهلع كلما هزّته العجوز بعصاها الطويلة ذات العقد الشوكية، والحيرة تلفّها كما تلفّ أباها.

وقبل أن تستدير العجوز مبتعدة عنهما، أمرته:

«الأضحية هي الأضحية يا يعقوب.

والرب سيمهلك أياماً أخرى، وعليك الآن أن تغمر دم الحمار بالزيت المبارك لا بالتراب»!!.

وأومأ يعقوب برأسه موافقاً. وهزّت ابنته رأسها هزات الموافقة أيضاً؛ هزات هي أقرب إلى الخوف منها إلى الطمأنينة، وأضافت العجوز:

«هيّا، هات الزيت من المعصرة،

وتعالَ إليّ لأباركه لك»!

وخطت مبتعدة عنهما، في حين ظلّ يعقوب وابنته في انكماشهما، وعندما أيقنا أنهما الآن بسلام، رصفا الخطا، واتجها نحو القرية مرة ثانية، غير أن صوت العجوز لحق بهما آمراً:

«هاتِ الزيت إلى البيت يا جوديت»!!.

وأشارت لها نحوه، فبدا بيتاً خشبياً متوارياً وسط عش من أشجار الزعرور والدلب. فهزّت لها ابنة يعقوب رأسها هزات طويلة راعشة، وهي تصرخ:

«أمرك يا سيدتي، أمرك»!!.

ومضت وراء أبيها وهي تديم الالتفات نحو العجوز التي اختفت بين الأشجار فجأة، تماماً مثلما ظهرت لهما فجأة أيضاً!!.

وفي الطريق، سألت جوديت أباها عن العجوز، وما شأنها بهم لتتدخل في أمورهم، وكيف قيض لها وعرفت اسميهما، ومن الذي أخبرها بالأضحية، ولماذا تريد منه أن يغمر دم الحمار بالزيت لا بالتراب، ثم ما شأنها في أن يكون الزيت مباركاً أو غير مبارك، وهل هي تتدخل في شؤونهم لمصلحتهم أو لا؟!! أسئلة كثيرة نثرتها جوديت، ويعقوب لا

يجيب إلا بقوله:

«مع الأيام، ستعرف كل شيء يا بنيتي»!!.

وانعطف معها نحو معصرة شاهين، وقد أصبحا قريبين منها. كان ضجيج المعصرة يغلق عليهما السمع. والناس متناثرون هنا وهناك حول المعصرة، وأمامها، وفي جوانبها، وقد ربطوا الدواب إلى جذوع الأشجار والصخور منتظرين إنجاز أعمالهم، وأكوام الزيتون الأخضر والأسود، بحبه الكبير والصغير، والنسوة والفتيات والغلمان اقتعدوا الأرض لتنقية الأعواد الصغيرة المكسورة، والأوراق، والأشواك، والنباتات اليابسة والخضراء.

وبدت لهما جرار الزيت المربوطة الأعناق، وغير المربوطة التي اصطفت إلى جوار حائط المعصرة الشمالي، والقفف المصنوعة من أعواد القصب، والدلاء التي تستخدم في نقل حبِّ الزيتون من مكان إلى آخر، والمتناثر قرب أكوام الزيتون، وحول حفرة الزيت الواسعة.

حين أصبحا بين الناس في المعصرة، كان مشهدهما لافتاً للانتباه ومثيراً للأسئلة والهمهمات؛ لا سيما وأن أحداث ليلة الأمس، ومحاولة يعقوب في تقديم واحدة من بناته أضحية مباركة للمكان لم تزل ماثلة في الأذهان وقد شاع الخبر، وتناقله أهالي القرية باندهاش لا يصدق؛ بعض من النسوة اللاتي كن يتأملن جمال جوديت بعمق شديد، جاملنها بقولهن:

«من الحرام أن تذبح واحدة بهذا الجمال»!!

وجوديت تبتسم لهن، وهي تبتعد عنهن لاحقة بأبيها الذي واقف شاهين قرب جورة الزيت، وقد طلب منه قليلاً من الزيت. ومع وصولها، ابتسم شاهين لها، وشرع يملأ إبريقاً نحاسياً بالزيت لترقرق أمامه

كالبحيرة بلونه الأخضر المائل إلى السواد قليلاً، ثم دفع الإبريق إليها، وأبوها يمطره بالشكر، وقد زبّد فمه، وارتعشت شفتاه، ويداه تبحثان في جيوبه عن شيء ما، وبعد طول بحث رفع بصره إلى وجه شاهين، وسأله بتلعثم باد:

«وما ثمنه يا شاهين»؟!.

فيبتسم شاهين له، وهو يراه يخرج دفتراً صغيراً ليسجل ثمن الزيت بقلم الكوبيا الصغير الذي يبلله بلعابه مرات عدة، ويقول شاهين:

«هذا الإبريق ضيافتك عندنا يا يعقوب،

ومعه جرة زيت للمؤونة، هذا واجبنا»!!.

فيشهق يعقوب، ويكاد يبتلع القلم حين ارتعش وجهه كله، ولكأنما نوبة عصبية من نوبات الصرع أمسكت به، وارتج عليه الكلام، وحار كيف يعبر لشاهين عن تقديره، وكيف يقول له بأنه كان يهمّ بأن يسجل ثمن إبريق الزيت في قائمة ديونه. واكتفى بأن أشمره باضطرابه الشديد، الأمر الذي جعل جوديت تسارع إلى صرف نظر شاهين عن ذبول والدها وحيرته وارتباكه، فشكرته كثيراً، ودعته إلى زيارتهم في البيت، وراحت تسأله عن سبب كثافة اللون الأخضر في الزيت، وهل هذا الزيت من الزيتون الأخضر أو الأسود، ولماذا طعم الزيت جارح بمرارته، وهل تضاف للزيتون موادّ ما عند عصره أولاً؟! أسئلة كثيرة متعددة كانت أجوبتها مختصرة عجلى، فوراء شاهين الكثير مما يشغله ويستغرقه تماماً، وحين استدار أوصى جوديت بأن تدهن شعرها بالزيت الذي سيعطيه لمعاناً وخصوبة. أما يعقوب الذي لحق به ليأخذ جرة الزيت، فقد راح يتمتم بكلمات الشكر، راجياً الله أن يوسّع له في رزقه ليقوم بسداد الدين لشاهين في أقرب وقت، وشاهين يقول له مراراً بأن الجرة وإبريق الزيت

هدية، وحين وقف شاهين أمام الجرار الملأى بالزيت التي ربطت أعناقها، وقف يعقوب متأملاً. وقال شاهين:

«اختر واحدة منها يا يعقوب»!.

فتقاصر يعقوب، وبدا كأنه ينحني أكثر مما ينبغي، وأخذ يمشي متململاً حول الجرار رامياً بصره الفاحص عليها واحدة واحدة. متمتماً بكلمات لا تفصح عن معنى واضح مفهوم، ولم يطل به الوقت حتى اختار جرة رمادية كبيرة ذات عنق واسع، وهمس بعيٍّ واضح:

«هذه... يا شاهين»!!

فابتسم شاهين، ورجاه أن يرفع طوله عنها كي لا يكسرها، وأن يكفَّ عن سندها بالتراب، كما دعا جوديت أن تتقدم منه لكي يرفع الجرة فوق رأسها، غير أن جوديت لم تتقدم منه أكثر لأن يعقوب رجاه أن يبقي الجرة وإبريق الزيت عنده ريثما يعود هو وابنته من القرية، لأنه سيقضي فيها بعض شؤونه، فوافق شاهين وانصرف عنهما، واستدار يعقوب وجوديت متجهين نحو القرية، وقبل أن يجتاز الناس، وَاْقفَ يعقوب بعضاً منهم، عرّفهم إليه، وإلى ابنته، ودعاهم لزيارته في بيته قرب الجسر ليعالج بعض حيواناتهم إن كانت مصابة بالأمراض، أو بالجروح، أو لكي يحذي الخيول والبغال، أو ليقصَّ شعرهم الطويل، أو ليداوي أسنانهم المسوسة، أو ليطهر أولادهم، وهكذا.. خلال لحظات فقط، وابنته واجمة، راح يكرز لمهنة الحلاقة التي يتقنها، بل يكرز للحلاقة وتوابعها؛ الأمر الذي أدهش الناس من حوله، فتندروا به، وعدّوه رجلاً مسلياً كسر رتابة مللهم وانتظارهم الطويل قرب المعصرة، ولكم ضحكوا من يعقوب، وقد رأوه يفحص دوابهم، يبحث عن عللها، ويكشف عن أسنان بعض منها ليعرف أعمارها، الأمر الذي جعل بعضاً من الناس يدخلون معه في

تنافس ورهان لمعرفة أعمار الخيول والحمير والبغال المربوطة قرب المعصرة، ولم يخطيء يعقوب قط في تقديراته. كان يرفع الشفة العليا للدابة ويعد حلقات بعض أسنانها، ثم يشرد قليلاً كأنه يجري عملية حسابية سريعة، ثم ينطق مقدراً عمر الحيوان الذي بين يديه فيصيب، وعندئذ تتعالى همهمات الثناء، وتغلب كفةُ من يقولون عنه بأنه فهيم كفَّةَ من يقولون عنه بأنه درويش أو نصف درويش في أحسن الحالات.

وحين ابتعد يعقوب وابنته عن المعصرة والناس، والدواب، سألته جوديت:

«ألا تخاف حسدهم يا أبي»؟!

فيجيبها:

«لا يا بنيتي، الحسد سابق لأوانه»!.

ومضيا إلى القرية، والأحاديث بينهما في تناوب واسترسال، ولم يعودا منها إلا وقد قضى يعقوب معظم ما رغب به، عادا يمشيان ببطء شديد خلف حمار يدفع خطاه دفعاً بسبب حمله الثقيل؛ حمار انتقاه يعقوب بعناية من بين عشرات الحمير، لا عيوب فيه ولا نواقص؛ حمار يكاد لا يبين من كثرة حمولته. الحمار في المقدمة يمشي بوهن وذبول، وكأنه ينتزع الخُطا من الدرب انتزاعاً، ويعقوب خلفه فرح بما أصاب من أعطيات. وجوديت بعيدة عنهما تنوء خطاها وتتقاصر تحت حمل جرة الزيت.

عندما عادا، كانت الشمس قد مالت نحو الغرب بوضوح شديد، وكانت ابنتا يعقوب الوسطى والصغرى لا تزالان قرب الجسر، وحين رأتا جوديت وأباهما يتقدمان بموكب صغير خلف الحمار، تراكضتا نحوهما، وهما تهزجان وتتصايحان فرحاً، وهما طي نشوة شاسعة!.

وعند مقدمة البيت، أوقف يعقوب حماره، وأنزل جرّة الزيت من فوق رأس جوديت التي انتحت بها أختاها جانباً ورحن يتساررن، وأبوهن مشغول عنهم بإنزال حمولة الحمار. وبدل أن تساعدهن جوديت في ترتيب حمولة الحمار داخل الكوخين، مضت وغسلت وجهها ويديها، ومضت منحدرة نحو الجسر. بينما تشاغلت ابنتا يعقوب مع أبيهما بالأغراض والحاجيات التي كانت كميةً من القمح، والعدس، والشعير، والذرة الصفراء، وجرّة زيت، ودلاء، وجرة فارغة، وربطة حبال، وكمية من الشاي الخشن، والدبس، والدهن، والصوف، وإبريق زيت، وعدة طيور من الدجاج، وكان بينها أيضاً جرو صغير أبرش اللون يتحرك داخل كيس من الخيش؛ كل هذه الأشياء والمخلوقات حصل عليها يعقوب دون مقابل. لقد أقنع الأهالي بأنه سيرد جميع ما اقترضه منهم حالما يستقر في مكانه الجديد، وحالما يشرع في عمله. بل أكدّ لهم أنه سيعيدها إليهم مضاعفةً في قيمتها بعدما حدّثهم طويلاً عن قدراته وخبراته والمهن التي يتقنها، فصدقوه، وقد أحسّوا أنهم بحاجة إليه فعلاً، هم ودوابهم، وأنهم لا يدرون متى سيطلبون منه خدمةً ما في ليل أو نهار؛ لذلك... أجزلوا له في العطاء وأسرفوا، وهم يحرصون على أن يرى وجوههم، وأن يتمعن فيها، فيحفظ صورها وأشكالها في ذاكرته، وقد ذهلت جوديت من قدرةأبيها على إقناع الأهالي، وامتلاك عواطفهم تجاهه،وكيف أنه أعدّ للأمر كل مواهبه، فلقد أخرج دفتراً وقلماً كان يخفيهما في صدره، وراح يسجل أسماء الأهالي الذين أعطوه مبيناً لهم أهمية الأولوية التي أخذوها قبل غيرهم، والنذور الذي حجزوه لزيارته في الأيام المقبلة.

وقبل أن يرتخي جسد يعقوب في أي مكان من البيت مضى إلى المكان الذي ذبح فيه الحمار ليلة أمس، ومعه إبريق الزيت الذي باركه في طريق عودته عند العجوز. وقرب بقعة الدم، خلع نعليه، ودار حول المكان

دورات عدة وهو يتمتم ساهماً، مغمض العينين، ثم دلق الزيت فوق الدم الذي ترك أثراً طرياً معتماً، كما دلق قسماً من الزيت فوق المذبح، وهو يرجو ويتوسل:

«باركني يا رب، باركني»!.

ولم يمض وقت طويل حتى أنهى يعقوب وابنتاه الوسطى والصغرى بناء بيتين صغيرين من رقائق الحجارة والطين، مسقوفين بقطع من القصدير الصدىء، وأغصان البلوط، والمثبتة بالحجارة الثقيلة. الأول: للدجاجات، والثاني: للجرو. لقد انتهوا من عملهم مع غروب الشمس. لحظتئذٍ. نقّل يعقوب بصره فيما حوله، وينفض غبار يديه، فرأى ابنتيه تجمعان الدجاج ليأوي إلى بيته الجديد، والحمار، على مبعدة منه ـ يأكل بصمت، والجرو الصغير ينبح كأنه لم يألف المكان بعد، والمؤونة مرتبة في الداخل، والجرة الفارغة التي جلبها معه أيضاً وقد امتلأت بالماء، واقفة في صدر البيت، وقد خاطت إحدى بناته لها ثوباً من الخيش، وابنته جوديت مقبلة نحوهم وقد تورّد وجهها فصار كالأرجوان.

حين رأى يعقوب كل ذلك، تلمس صدره وأطرافه، ومسّد وجهه، وبواقي شعر رأسه، ثم التفت إلى بناته، وقال بخفوت:

«الآن،

بدأت العافية تدبُّ فيّ يا بناتي»!!.

حاشية ثالثة:

وحين عاد يعقوب، وجوديت من القرية، واقتربا من كوخ العجوز الخشبي، تقدمت جوديت نحوه، وهي تحمل إبريق الزيت النحاسي، بعد أن وضعت جرة الزيت من فوق رأسها، وأسندتها إلى جذع شجرة بمحاذاة الدرب. وظلّ يعقوب منكمشاً على نفسه بقرب الحمار والجرة في آن معاً. كان يفكر بأعطيات أهل القرية، وبالأيام القادمة، وبما ستفعله العجوز أيضاً.

وراح يتابع بنظره ابنته جوديت، وهي تهبط الدرب النازل إلى كوخ العجوز الخشبي الأبيض، وحين اقتربت جوديت من الكوخ أكثر وجدت العجوز جالسة بالقرب من موقد النار، تصنع كمية من البخور والصمغ، واللبان، وتشوي عدداً من أكواز الذرة الصفراء. وحولها مجموعة كبيرة من حيوانات الغابة، والطيور، والكلاب، والقطط، وقد وقفت بهدوء شديد، وهي تنظر إلى العجوز، التي كانت ترامقها بنظرها بين حين وآخر. خافت جوديت، وخانتها الخطا، فوقفت، وقد راعها المنظر وأدهشها. وحين همّت بالنكوص، نادتها العجوز، وأمرتها أن تقترب. فاقتربت جوديت ببطء شديد. ونهرتها العجوز مرة ثانية وثالثة، فتقدمت جوديت، دون إرادة منها، بسرعة شديدة نحو العجوز التي أصبح شعرها الأبيض شجرة كبيرة فوقها مجموعة هائلة من الطيور الكبيرة والصغيرة.

ودونما مقدمات، وحالما وصلت جوديت إليها، التفتت العجوز نحوها، وأخذت إبريق الزيت من يدها، ورمت جمرة من النار داخل الزيت، وقطعة من البخور، وأخرى من الصمغ، وثالثة من اللبان، وقرأت على الإبريق صفحة مكتوبة على الورق الأصفر المتناثر حولها، ثم نظرت إلى جوديت وقد جحظت عيناها، وأمرتها أن تأخذ الزيت الذي صار مباركاً، وتمضي. فتلكأت جوديت للحظات فقط... فصرخت الحيوانات صرخة واحدة، أفزعت الغابة كلها، وجعلت جوديت ترتمي على العجوز وتلوذ بها، ونفرت الطيور، وحوّمت، ثم هدأ كل شيء حين حملت جوديت إبريق الزيت بيدين راجفتين، ومضت عائدة نحو أبيها، أما العجوز فقد عادت إلى عملها من جديد، وسط حضور الحيوانات الهادئة، والطيور الجاثمة فوق شعرها الأبيض، وتحت الأشجار، وكأنها تنتظر أمراً جللاً لم يأتِ أوانه بعد!!.

تفصيل صغير:

وحين صرخت الحيوانات فجأة، أحست جوديت وكأن شيئاً ما انفجر في صدرها. حاولت تلمسه إلا أن القوة خانتها فما استطاعت أن ترفع يدها إلى صدرها. لكنها وحين وصلت إلى أبيها، وقبل أن تحمل جرة الزيت مرة أخرى، تلمست صدرها وشهقت الأمر الذي جعل يعقوب ينظر إليها، إلى صدرها تماماً، فرأى طرف ثوبها الذي يستر صدرها مبتلاً تماماً، فسألها:

- وهل شربت الحليب عند العجوز يابنتي؟! فانغلق وجه جوديت، ونشف أيضاً.

وهزت رأسها بالموافقة. ومشت خلفه بهدوء، وخطاها منكسرة، دائخة أو تكاد«!.

تفصيل آخر:

»ذلك الخوف، وتلك المشاعر الموحشة، أذابها لقاء جوديت برحمون، وأبعدها أيضاً، لكأنها اغتلست منها بين ذراعيه وبالقرب من أنفاسه اللاهثة الدافئة«!!.

الكتاب الرابع

»القريب«

في الطرف الجنوبي من القرية، دهشت جوديت، وهي ترى أباها يبدي من الملاطفة الكثير لرجل قصير عائر كأنه شبيهه تماماً، يأخذه إلى صدره في ضمات طويلة، وعناقات محمومة. كما لاحظت أن أباها أطال في مقامه عنده أكثر مما يجب، وكأن يعرفه منذ أمد بعيد، لذلك سألته:

«من هذا يا أبي؟»!.

فأجابها:

«سليمان عطارة يا بنتي»!.

ولم يضف حرفاً واحداً على ذلك، وانصرف إلى سليمان عطارة بكل حواسه. صغار القرية الذين رافقوا يعقوب وابنته من بيت إلى بيت، في مشهد احتفالي ضاج، والذين ظلوا خارج بيت سليمان عطارة ملّوا انتظارهما، فتدافعوا قرب بوابة البيت، وشدّوها، فصرت، وعلا صياحها وصراخهم. فقام سليمان عطارة إليهم ونهرهم، أبعدهم قسراً عن بيته، بعد أن أفهمهم بأن يعقوب وابنته سيظلان عنده وقتاً طويلاً، وعليهم أن ينصرفوا الآن. ولم يبتعد الصبية كثيراً عن بيته وهم يترقبون خروج يعقوب وابنته، ولكم دهشت جوديت حين سمعت سليمان عطارة يسأل أباها:

«أمن الشمال أتيت يا يعقوب»؟!.

ويتمتم يعقوب له:

«أجل يا أخي»؟!.

واستطالت دهشتها حين أردف سليمان عطارة سؤاله بسؤال آخر:

«وكيف عرفتني يا يعقوب»؟!.

فيجيبه أبوها:

«شممت رائحتك يا سليمان»!.

ويتضاحكان!! أما جوديت فأحست بأنها ضائعة في هذا الحوار المرمز، الملغز، وأن حيرتها زادت عندما راح الاثنان يتبادلان الأسئلة والأجوبة حول من هم في الشمال، ومن هم في القرى المجاورة. وهل كان يعقوب يعرف فلاناً وفلاناً وفلاناً... في الشمال أم لا؟! وهل يعرف سليمان عطارة أخبار فلان وفلان وفلان الذي توازعوا المناطق المحيطة بالشماصنة. أسئلة وأجوبة متداخلة حيرت جوديت كثيراً وقد لاحظت أن سليمان عطارة يتحدث بمرارة شديدة عن وحدته في القرية، وعن القدر الذي لم يسانده فحرمه من الأولاد، ثم زاد في ذلك فحرمه من زوجته التي ماتت فجأة دونما مرض أو علة أو وداع. ولكم تمنى لو أن القدر امتحنه بمرضها ليعوضها عن ذلك الحنان الذي افتقدته طوال سنوات حياتها معه بحنان خبأه لساعات الشدة والامتحان. في تلك السنوات التي كان مشغولاً عنها ببناء مستقبله، وأنه حيأ بها، واعترافاً بتقصيره تجاهها، استضاف جسدها الميت سبع ليالٍ متتالية، تحمّل منظر الجسد الذي ازرقّ وانتفخ، والرائحة الكريهة التي صدرت منه، وقد أكل وشرب القليل القليل في حضرتها وكأنها عائشة، وفي المواعيد التي اعتاداها معاً، وأنه بكاها طويلاً، ورجاها أن تسامحه لأنه أخطأ بحقها،

ولم يقدرها حق قدرها بعدما صرفته الحياة ومشاغلها عنها... وود لو كان بمقدوره استضافتها مدة أخرى أطول إلا أنه ما قدر على ذلك لأن رائحة جسدها، وعدم خروجه وخروجها إلى الناس، ووجهه الباكي دوماً، وانصرافه عن عمله، كل ذلك أدّى إلى كشف موتها، فجاء أهل القرية إليه، عزّوه، وواسوه، وحملوا زوجته، بعد غسل جسدها وتكفينه إلى المقبرة، فدفنوها كما يدفنون ميتاً لهم. وأبدى أسفه الشديد لأنه وقد أصبح وحيداً تماماً، لم يستطع أن يكشف لهم عن دين زوجته ودينه أيضاً، وقد ابتلي بالموت، وشكا ليعقوب وابنته وحدته، وأنه ما من معين له سوى ماله. وسمعت جوديت أباها يسأله:

«وكيف تعيش يا سليمان»؟!.

فيقول:

«أصبحت القرية لي يا يعقوب، بعد أن عانيت سنوات طويلة من الحرمان والغربة. وبعد أن فقدت في سبيل ذلك الكثير. لقد تركت ديني أمام أهالي القرية يا يعقوب من أجل أن أعيش فيها كأني واحد من أهلها. وبتّ أنصرف إلى ديني حين أعتزل الأهالي وأخلو مع نفسي. ورحت أشارك الناس هنا في الأفراح والأتراح معاً. أصلي مع المصلين، وأصوم مع الصائمين دون أن أكشف لأي منهم عن ديني!.

فالوحيد وحيد يا أخي، وهذا يكفيني دائماً، لقد سلم الأهالي بأنني واحد منهم، على الرغم من أن بعضاً منهم ما زالوا يقولون عني بأنني غريب لم أتطبع بطباعهم بعد، وأنهم لم يؤثروا فيّ كثيراً، إذ ما زلت لا آكل من طعامهم ولا أشرب من شرابهم لذلك.. يشتمونني

يقولهم: البخيل!! لاعتقادهم بأن من لا يأكل عند الآخرين يريد من الآخرين ألا يأكلوا عنده، وفي هذا بخل لا يحبونه. بعض منهم فقط ينظرون إليّ هكذا، أما الأكثرية فقد سلموا بأن تلك عادة اعتدتها ليس أكثر. لأنهم حين زاروني في بيتي، وبحضور زوجتي وبغيابها أبديت لهم من الكرم ما أرضى نفوسهم»!.

وحين صمت، سأله يعقوب.

«وماذا لديك من أملاك يا سليمان»؟!.

أجاب:

«سعيت، منذ وصولي إلى الشماصنة إلى أن أظهر بين الأهالي. فاشتغلت أول الأمر حمالاً في مواسم الزيتون. اشتريت عربة وبغلاً بالدين، ورحت أنقل أكياس الزيتون من الحقول إلى المعصرة. أخذت أجري (ثمنية) زيتون عن كل كيس. وحين يعصر الزيتون، أعود فأنقل بالعربة جرار الزيت وتنكه إلى البيوت، وآخذ أجرتي قنينة زيت عن كل جرة أو تنكة، ثم أنقل جرار الزيت والتنك لصاحب المعصرة عباس الشهواني إلى البحر، ليبيعها هناك.

وفي مواسم الحصاد أنقل أغمار القمح والشعير، والعدس، والحمص من الحقول إلى البيادر، وبعد الانتهاء من (الدراس) أنقل أكياس القمح والشعير والعدس والحمص، والتبن إلى البيوت وآخذ أجرتي قمحاً وشعيراً وتبناً»!!.

ولما توقف عن الكلام ليمسح لعابه الذي سال فوق ذقنه، ولكي يشرب أيضاً، تدخل يعقوب مصححاً له:

وتقصد شاهين صاحب المعصرة»؟!.

فيرد سليمان عطارة:

«شاهين هذا أجير عندي»!!.

فيغصُّ يعقوب بدهشته:

«أجير»

شاهين أجير»؟!.

فيومىء بهزة موافقة من رأسه، الأمر الذي جعل يعقوب يرتمي عليه من الفرح وراح يقبله بحرارة، وهو يسأله:

«وكيف يا سليمان»؟!.

فيقول سليمان عطارة:

«المعصرة لي،

اشتريتها من المرحوم عباس الشهواني. لقد نقلت له حمولة عشرة مواسم دون أجرة. كان رحمة الله عليه، يقول لي في كل موسم، وحين أطالبه بأجرتي: انتظر يا سليمان للموسم القادم، فأنت ابن قريتي، ومن أهلي، فاصبر عليّ. ديون المعصرة كثيرة، وأصحابها الأغراب ينتظرون. انتظر أنت قليلاً، فالفرج وراء الباب، لكن الفرج ظلّ وراء الباب ولم يأتِ. فتراكمت ديونه أكثر، وانتظرته خمسة مواسم أخرى، ودون نتيجة. فقد انغلق باب الحياة في وجهه؛ بعدما... أهمل شؤون المعصرة،

وترك أمرها لعمالها، وانصرف إلى الشراب واللهو مع نفر من شبان البحر. كان بياض الفتيات مصيدته التي أطبقت عليه، وكان الشراب الخاتمة»!!.

ويبتسم يعقوب فرحاً بما يرويه سليمان عطارة، ويزحف نحوه ليلاصقه، وقد اتسعت ابتسامته ونمت، ويضيف سليمان عطارة:

وبعد تلك المواسم، أحسست بضعف عباس الشهواني، وقلة حيلته، فطالبته بأجرتي، وألححت عليه. وقلت له إنني ما عدت أطيق صبراً وانتظاراً، فما أعطاني شيئاً!! وطالبني بالصبر، إلا أنني ما صبرت، وازدادت مطالبتي، وأشرت عليه أن أدخل معه شريكاً في امتلاك المعصرة مناصفة بتعبي، وأجرتي خلال المواسم الماضية، فرفض رفضاً شديداً، وراح يتندر بي، ويتهمني بالجنون!! ولعن جرأتي مرات عدة. ثم وبعد وقت طويل، أكد رفضه مرات متتالية، وازداد إلحاحي عليه، وداومت على مطالبتي إياه بأجرتي حتى بتُّ كابوساً له، ورجوت آخرين، لهم جاههم ومكانتهم في القرية والقرى المجاورة أن يطالبوه بأجرتي، التي كنتُ أعرف، يقيناً، أنه لا يقدر على تسديدها، فاستجابوا إليّ، وساعدوني على ذلك، فطالبوه، وقرعوه؛ غير أنه ما أعطاني شيئاً!! وما استجاب لطلبي في مشاركته على الرغم من وعوده لهم بأنه سينهي المشكلة تقريباً، وسيجد لها حلاً!! وانتظرت خمس سنوات أخرى إلى أن وصل وضعه إلى حدّ لا يطاق، فقد جاءني إلى بيتي هذا، في ذات ظهيرة قائظة، جاءني موافقاً على كل ما طلبته منه، وأصبحت شريكاً

له في المعصرة مناصفة، شريطة أن أدفع أجرة عماله في خمسة مواسم متتالية، وكان عددهم ثمانية، فوافقت! ورويداً رويداً أخذت أشرف على كل شيء في المعصرة، وبدأت الحياة تروق لي فاشتريت أرضاً مجاورة للمعصرة من عباس الشهواني، وزرعتها بأشجار الزيتون، ورجوت الرب طويلاً وكثيراً أن يمنحني من صلبي من يخلفني في أملاكي التي راحت تنمو وتكبر قليلاً قليلاً، فعباس الشهواني لم يستمر في المعصرة إلا ثلاثة مواسم أخرى، بعد ذلك رفع يده عن المعصرة كلها. لقد باعها لي؛ أو قل، باع حصته فيها لي. أمنْتُ له المبلغ ودفعته له أمام حشد من الناس، ووقعنا على عقد البيع والشراء. وبذلك أصبحتُ صاحب المعصرة وسيدها، ومضى عباس الشهواني تاركاً القرية نهائياً إلى أهله في لبنان. فقد كانت المعصرة الرباط الوحيد الذي يشدّه إلى الناس في القرية، وقد أخذ هذا الرباط منه، فانفصل عن الناس، ومضى!!.

ولم يطل به الوقت حتى مات!! لكأنه ذهب إلى أهله ليموت بينهم، رحمة الله عليه. كثير من الطيور يفعل ذلك يا يعقوب، مع الأيام طوّرت المعصرة وجلبت لها صبياً يعرف صناعة الصابون جيداً، وأسست وإياه المصبنة الحالية الملحقة بالمعصرة، وما عدنا نتلف شيئاً من الزيوت. ثم اشتريت طاحونة على كتف النهر (سأريك إياها فيما بعد) من رجل كردي له أملاك، وزوجة وأولاد في أرض الشام. وبات أهالي القرية والقرى البعيدة عن النهر يأتون إليّ ليأخذوا زيتهم في مواسم الزيتون،

وطحينهم أيضاً. ورافت الحياة فعلاً،وما عاد ينقصني إلا من يشدّ ظهري، ذلك الذي ضنّ به القدر عليّ»!!

بدا سليمان عطارة لجوديت كأنه الشبيه الكامل لأبيها، بل بدا كأنه التوأم الآخر، بوجهه الأحمر، وأنفه البارز، وجبينه المتغضن ورأسه الأصلع إلا من بواقي شعر طويل متهدل فوق أذنيه الكبيرتين المحمرتين تماماً. يأخذ سائل أنفه بأصابع يده كلما تدلى غير مكترث بوجود الآخرين حوله، لكأنما اعتاد على ذلك منذ أمد بعيد. يغمر جسده بثياب رثّة، وقد انكشف طرف قميصه عن صدره الخالي تماماً من الشعر. وقد بان خيط كيس نقوده الأسود، كما بدا عنقه القصير المطوّى كعنق ديك الحبش الهندي الشائخ. يتحدث فتتراجف يداه، وقد تدلت من زاوية فمه اليمنى ريالة لعابه إلى أسفل ذقنه كأنما المنطقة التي يسيل عليها لعابه ميتة أو خدرة لا تحسّ بمجراه. يشرب من طاسة الماء النحاسية التي بقربه كلما تحدث قليلاً كأنه مصاب بداء الاستسقاء.

ورأت جوديت أن أباها، وكلما عرف شيئاً جديداً وطيباً عنه، يهب مندفعاً إليه، يضمّه إلى صدره ويقبّله!!.

ولكم كانا يبدوان لها، وهما في ضمتهما المشتركة وتباعدهما البطيء كغلافي محارة ينفتحان وينغلقان بانتظام لا ظهر لهما ولا وجه!!.

وعندما أطال أبوها جلوسه إلى سليمان عطارة، نبهته جوديت مرات عدة حتى قام، وتركه. شدّ على يده، ورجاه أن يزوره في بيته، وألا ينقطع عن زيارته ليحدثه عما سيفعله في الأيام المقبلة قرب الجسر، وعليه ألا ينسى أنه طامع في مشورته!!.

ولاطفه سليمان عطارة بقوله:

«جئت لتشد ظهري يا يعقوب، فكيف أقطعك»!!.

ويتركه يعقوب وابنته بعدما أعطاهما واحداً من حميره، وخرجا، فلفّهما الهدوء، وقد سها الصبية عنهما. وفي الطريق، سألت جوديت أباها عن سليمان عطارة، فقال لها:

«إنه قريبنا»!!.

وعندما استوضحته أكثر، قال بإيجاز:

«هو من أهلي، وقد سبقنا إلى هنا منذ سنوات»!!.

وأحست بأن أباها لا يريد أن يضيف شيئاً آخر عن الرجل، وأنه غير مستعد للإجابة عن أسئلتها، لذلك صمتت، ومضت وراءه منقادة لخطاه وطلباته الكثيرة التي لا تنتهي!!.

حاشية رابعة:

«يعرف جميع أهالي قرية الشماصنة وبعض أهالي القرى المحيطة بها، أن سليمان عطارة، جاء إلى الشماصنة مع زوجه وابنته الشابة الشقراء التي ضيعت الكثير من الشبان، كانت بنتاً طويلة، ممتلئة، ذات شعر طويل أشقر، ووجه طويل أبيض، حمرته أشبه بحمرة الخوخ. كانت ضحوكة، لينة، ذات قبول، تعطي القبلة لمن يشتهيها وبالمقابل.

ابنة سليمان عطارة، الشقراء الطويلة، ذات الجسد المتناسق، هي التي جعلت عباس الشهواني يركع على ركبتيه أمام أبيها ويقول له، المعصرة كلها لك، أعطيها لك أمام الناس، بلا مقابل، فقط دعني أعيش ووردة بسلام. أريد من الدنيا وردة، وخذ أنت الزيت، والمعصرة، والجرار، والعربة،... والتعب، أنا أريد راحتي؛ وراحتي قرب وردة، مع أنفاسها، وابتسامتها التي تفتح في القلب شباكاً للهفة، خذ أي شيء ودع وردة لي. أعيش قربك، وبخدمتك، فقط أريد وردة!!.

ويعرف أهالي الشماصنة أن المعصرة صارت لسليمان عطارة بفضل وردة، التي ضيعت عباس الشهواني بريقها الحلو، وحرارتها، والليالي الماتعة التي لم يغمض لهما جفن فيها، وبتلك الأحاديث الهامسة، الأحاديث والوشاشات، والنعومة الجارحة.

فعباس الشهواني، ومنذ رأى زغب إبطي وردة، ومجرى

حلقها وصفاء عينيها ذهب عقله بها أو كاد. قال هذي هي الدنيا، وغيرها لا! واجتهد، وتعب كثيراً حتى صارت البنت ملء يده، ومع الأيام صار هو ملء يدها، مثلما تقول وتأمر يفعل وينفذ. وخلال أشهر قليلة فقط صارت المعصرة، والأرض، والبيوت، والمخازن، ومعمل الجرار، والعربة، وثلاثة بغال وعدد من الحمير، والأغنام، وطيور الدجاج.. ملكاً لسليمان عطارة مقابل الليالي التي قضاها عباس الشهواني مع وردة. كان يظن أن البنت تلاقيه في أطراف القرية، وفي المعصرة، وفي بيته بعيداً عن معرفة والديها، لكن الحقيقة كانت عكس ذلك تماماً. فالبنت، والتي رأت في عباس الشهواني مستقبل أسرتها، لم يرق لها تماماً، فهو رجل كزّ على السفح الآخر من الحياة، تغضن وجهه، وبانت عروق عينيه، وجماله، وشبابه في إياب. لكن المال لديه، فسايرته على الرغم من عدم انسجامها معه، وفقدها للبهجة في حضوره. أعطته من حلاوتها القليل القليل، وبمعرفة والديها إلى أن ذاب عباس الشهواني حباً بها. كان يهفو إليها، وينتظرها كمن ينتظر قبول الحياة عليه. وكان حين يأخذها بين ذراعيه، يغمض عينيه، كمن لا يريد رؤية شيء في هذه الدنيا، لكأنه اكتفى منها بأطيب ما فيها.

وكان والدا وردة هما من يحييان عباس الشهواني إليها حتى صارت تلتقيه دونما خوف إلى أن جاء يوم وأحبته وردة فعلاً. كانت تبكي وهي تراه لا يقدر على إسعادها. يحاول كثيراً وكثيراً ويظل هو في دنيا، وهي في دنيا، ثم تحاول هي، ويحاول هو، بأخذ زغب

جسدها النامي بأطراف أصابعه رقة، ونطافة، ولكن دون جدوى. تظلُّ وردة تنوراً مملوءاً بالجمر الحارق، ويظل هو لاهثاً، ومتعباً من الانطفاءات التي جاءته على نحو مبكر جداً كانت تسمعه أعذب الكلام وأرقه، وتناديه حبيبي عندما صار لا يملك شيئاً، كانت تأتي له بالطعام من بيتهم،وتغسل ثيابه، وجسده، وأحزانه، وخيباته، وعثراته الكثيرة، ليبقى في نظرها الحبيب الذي بنت به وارتضت. لكن عباس ظلَّ وحيداً وعجزه، وأساه، وأحزانه الولود.

وفي ذات ليلة، وقبل أن يغيب عباس الشهواني نهائياً، وما عاد يرى لا في القرية ولا في غيرها، وفي ساعة أشبه بالحلم، أو المنام الطويل الجميل، استطاع عباس الشهواني أن يأخذها إلى صدره بتمام المشاعر الدافقة التي كانت، وبكل اللطف الذي عرفته، استطاع أن يطفىء جمر التنور تلك الليلة المرة تلو المرة. كان الجمر وكلما توقد وأثار ثانية يطفئه عباس الشهواني بقدرة عجيبة وخارقة. تلك الليلة كانت الحلم، والسعادة المطلقة، والفرح الأكمل عند الطرفين، ولكنها كانت الخاتمة أيضاً!! فقد قرر عباس الشهواني أن يُبقي صورته، صورة الفارس، حيّة في خاطر وردة ويرحل حتى ولو تعذبت وردة بمشاعرها، وتصوراتها، وهواجسها، وخواطرها كثيراً، فذلك العذاب، مهما طال، سيكون قصيراً. اما عذابُهُ هو فسيكون طويلاً إن غابت تلك الصورة الجميلة التي رسمها لنفسه في خاطرها!!.

تفصيل صغير:

«ويعرف أهل القرية أن عباس الشهواني مضى، وهو غير نادم على ما فقده من أملاك، لأنه ؛ وكما قال، عاش أياماً سعيدة في جنة وردة»!.

هامش:

«الجميع يمركون، ويعرفون أن لسمان عطارة الذي كان يبيع البيض صيفاً في القرى، والخواتم والأساور، وقطع القماش والخرز، والبخور، والزعوط، والشمة،.. إلخ شتاء في القرى أيضاً.. هو من وافق على العمل أجيراً على إحدى عربات النقل عند عباس الشهواني. وأنه لم يكن يملك لا العربة ولا بغلها.

كل ما كان لديه حمار صغير أجرب، لا يقوى على حمله، ويخاف هو من الركوب عليه، كان يطوّف معه في القرى منادياً على بضاعته، وكان آنذاك يُسمى بـ هاوي شمة»

تذييل أخير:

«ويعرف أهالي القرية، في الشماصنة، أن سليمان عطارة بكى، وما يزال يبكي ابنته وردة التي هربت من عنده في إحدى الليالي دون أن يعلم إلى أين ذهبت، والتي كان غيابها سبباً أساسياً في موت أمها قهراً!!.

كان سليمان عطارة يبكي ابنته ليس لأنها تركته وراحت تبحث عن سعادتها الخاصة، ومشروعها الخاص، وإنما

لأنها لم تستطع فتح جميع القرى، وأخذ مفاتيحها وتسليمها له؛ وقد كان ينتظر ذلك منها بما ملكت من جمال ساحر غير منظور من قبل»!!.

الكتاب الخامس

«الحمّام»

في الصباح، وقد استضحى النهار وراق، رأى يعقوب وبناته سليمان عطارة ينحدر نحوهم ببطء مع نفر من أهل القرية ميّزوا بينهم، وفي المؤخرة، عجوزين تتعثران بخطوهما، وبثوبيهما الطويلين كانوا في هرج متداخل يدور حول يعقوب وبناته، بدوا كأنهم سلموا أنفسهم لخُطاهم لا لشيء آخر. كان صوتهم يصل إلى يعقوب وبناته همهمات وكلمات غير واضحة المعاني لكنهم وحين اقتربوا أكثر. صار الصوت صافياً. كانوا ينعون على يعقوب اختياره لمكان سكناه البعيد عن القرية، والمتواري بين وحشة الأشجار وعتمتها، والمحاط بهدير طواحين الماء، وصوت انحدار ماء النهر الصاخب الدائم؛ هذا عدا عن أنه سيتكبد وبناته العناء والمشقة والعذاب كلما احتاجوا إلى أمر ما من القرية؛ بل رأوا أنه وبناته سينفقون أعمارهم على الدرب ما بين القرية والجسر، وأن عزلتهم موجعة، وقد لا تقوى الأيام على محوها!.

عندما سمع يعقوب كلامهم، همس لبناته:

«إنهم يتحدثو عن عذابنا القادم يا بناتي»!!.

فسارعت ابنته الوسطى، لتسأله بنزق:

«العذاب، العذاب، وهل سيظلُّ العذاب يطاردنا يا أبي».

فيطمئنها:

«لا يا ميمونة!.

هنا، وقرب هذا الجسر ستتقاسم العذاب مع الآخرين،
سنقسم عذابنا عليهم أيضاً»!!.

وتهمهم ابنته من غير كلام، وينشكف الجمع القادم، سليمان عطارة ومن معه، بعد أن جازوا أجمات من شجر الصفصاف الحانية على الأرض، ونباتات الطرفا الكثيفة، فهرع يعقوب نحوهم هاشاً باشاً، مرحباً. تحيط به بناته كأنهن معلقات به. يمشين إن مشى، ويقفن إن وقف، بوجوه زاهية مبتسمة، ورؤوس مكشوفة، شعرهن مربوط ومردوف على ظهورهن كأن الواحدة منهم صورة عن أختها لا يميز واحدة منهم عن أخرى إلا الطول والحجم، ونبرة الصوت، والاسم، ولون الثياب.

حين عانق يعقوب سليمان عطارة ورحّب به كثيراً، وقد بدا أمامه في هيئة الذل والمسكنة. سألت ابنته الصغرى أختها جوديت بإلحاح، وقد رأت احتفاء أبيها الكبير به:

«ومن يكون سليمان عطارة هذا يا جوديت»؟!.

فتجيبها، ونظرها مشدود إلى وجه سليمان عطارة وحركاته الشبيهة بحركات أبيها:

«إنه قريبنا يا دينة»!!.

وكأنما الأخت الصغرى فوجئت، فعادت وسألتها ثانية:

«قريبنا، كيف»؟!.

فتزجرها جوديت، وتدعوها إلى الصمت والهدوء، فهي لا تعرف عن الرجل أكثر من هذا، وعلا صوت سليمان عطارة:

«جئنا نساعدتك يا يعقوب»!!.

فهمهم يعقوب وغمغم، وانجلى وجهه عن ابتسامة عريضة، وهو يرى بناته، وقد اندفعن نحو سليمان عطارة منحنيات على يده يقبلنها، ثم يترادفن وراءه منتظرات لما سيحدث.

وتقاود الجميع إلى أمام بيت يعقوب، وافترشوا الأرض، وعبارات الترحيب والمجاملة منشورة وحائمة كالطيور.

كان يعقوب، وهو في ضيافة سليمان عطارة، قد طلب منه أن يوافيه بعدد من أبناء القرية، ممن لهم خبرة في البناء لأنه يريد أن يبني خاناً كبيراً قرب الجسر، ليكون منزولاً للناس ودوابهم في هذه المنطقة. كما طلب منه أن يوافيه بامرأة من القرية لتبني لبناته موقداً للخبز والطبخ مثل مواقد أهل القرية التي رآها أمس، وقد جاءه سليمان عطارة بما أراد فارداً ذراعيه على وسعهما، وهو يقول:

«هذا ما طلبت يا أخي، فهيا نعمل»!!.

ويشكره يعقوب، وهو يتمتم أمام الجميع:

«أنت نصيري يا سليمان، نصيري يا أخي»!!.

ولم تمض سوى دقائق، حتى اختلت العجوزان ببنات يعقوب، ورحن جميعاً ينتقين مكاناً ملائماً للموقد وحجارةً مناسبةً لعماره. كن يبحثن عن حجارة مرققة ذات سطوح واسعة، ولم يكن الأمر يسيراً عليهن، فقد بحثن طويلاً عن الحجارة، وتعذبن كثيراً حتى وجدنها، كنّ وهنّ في بحثهن يشاهدن أنواعاً كثيراً من الأشواك اليابسة والنباتات المصفرة، فتسأل البنات عن أسمائها، وهل كانت ذات ثمار أم لا. والعجوزان تجيبان بتفصيلات غنية وواسعة، تتحدثان عن النباتات منذ ظهورها على وجه الأرض وحتى وقت رؤيتها الآن، تعددان ألوانها، وأوصاف ثمارها، وطريقة أكلها، إلى أن صارت أشواكاً، ومع امتداد

الوقت راحت العجوزان تسألان بنات يعقوب أيضاً عن أسمائهن وعن المكان الذي جئن منه، ولم يمكثن مع أبيهن هنا، وهل صحيح بأن أمهن ماتت، ولماذا لم يتزوج أبوهن بعد موتها؟!.

وكانت بنات يعقوب يجبن إجابات مقتضبة، قصيرة وسريعة، كأنهن يخشين من يضبطهن متلبسات بإجابات غير مرغوب بالإفصاح عنها. كلٌّ يدمن الالتفات، مع كل جواب، نحو أبيهن الذي شرع مع نفر من جماعة سليمان عطارة بجبل الطين والتبن اللازمين لبناء الموقد، أما سليمان عطارة، فراح يرقق غطاء برميل زيت ويطوي نتوءاته. كان واحد من الذين أتوا معه يحمله بيده، هذا الغطاء الذي سينضج فوقه خبز يعقوب وبناته في قابل الأيام. وحين انتهوا من كل ذلك نقلوا الطين إلى القرب من كوخي يعقوب، ووضعوه في المكان الذي أشارت إليه إحدى العجوزين التي اختارت بمشورة رفيقتها مكاناً مناسباً للموقد بعيداً عن هبوب الرياح، وفي مكان يمكن أن يُغطى في أيام الشتاء الباردة. بعدئذٍ انطلق يعقوب وسليمان عطارة ومن معه لتحديد موقع الخان الذي ينوي يعقوب إقامته قرب حرم الدرب؛ حيث الدرب وحرمه الواسع من الطرفين ملك للسلطان لا للأهالي! بدا يعقوب منهمكاً بشرح حدود حرم الدرب، وراح يقيس أبعادها بخطواته. أما سليمان عطارة فكان يحدثه عن أهمية الرجل الذي جاء به من أجل بناء الخان، فيقول:

«حظك طيب يا يعقوب لأن سمعان هو من سيبني لك الخان! فهو أشهر معمار في المنطقة كلها»!.

ويبتسم يعقوب، ويرحّب بسمعان ترحيباً طويلاً، ويبادله سمعان الابتسام والتحية. وبينما هم يحثون الخطا بعيداً عن الكوخين كان سليمان عطارة يسأل يعقوب إن كان قد اختار موقع الخان بالضبط، فيجيبه يعقوب بأنه لم يختره بعد، وإن كان يرغب بإقامته قرب فم الجسر

تماماً، وفي المكان المشرف عليه، وعلى يمينه، وبمحاذاة الدرب. فيهز سليمان عطارة له رأسه موافقاً، ثم ينصحه:

«لكن لماذا لا تجعله بعيداً عن الجسر، يا يعقوب، كي لا يختلط الناس والدواب الذي يعبرون الجسر بالناس والدواب النزلاء في الخان؟! وعليك ألا تنسى أن راحة النزيل مطلوبة، فدع الخان بعيداً عن ضجة الخيل والعربات العابرة للجسر»!.

لكنّ الفكرة لا تروق ليعقوب فيهزُّ، هو الآخر، رأسه لسليمان عطارة، ويسأله سؤالاً غريباً:

«وهل تضمن لي يا سليمان بأن لا يبني أحد من الناس خاناً أقرب مني إلى الجسر»؟!.

فيضحك سليمان عطارة ملء رأسه، ويحشر سؤال يعقوب في الهواء حين يقول له:

«يا رجل، لا تذهب بعيداً»!!.

ولكي يطمئن يعقوب، يسأله:

«ومن يضمن الأيام يا أخي»؟!.

فيجيبه سليمان بحرارة واقتضاب:

«أنا..»!!.

فيأخذه يعقوب إلى صدره ويضمه إليه من دون كلمة واحدة. ويضحك سليمان عطارة بصوت مسموع، ويقول له:

«أوافقك، يا يعقوب بأن يكون مكان الخان أعلى من مكان مسكنك، لأنه وفي هذه الحالة تستطيع أن ترى

النزيل إن احتاج إلى أي شيء. ما عليه إلا أن ينادي فقط، والصوت من الأعلى إلى الأسفل يصل بسرعة أكبر»!!.

ويقول يعقوب موضحاً:

«أريد الخان في المكان العالي ليس لهذا فقط وإنما من أجل أن يبقى نظري معلقاً عليه. مكان الرزق، يا سليمان، يجب أن يظلّ عالياً، البصر يرتفع إليه دائماً»!.

ويتضاحكان. في حين يقترح سمعان، وقبل أن يصلوا إلى فم الجسر، بأن يكون الخان في موقع أخفض من سكن يعقوب مخافة أن ينكشف بيته، وبناته أمام أعين النزلاء. غير أن هذا الاقتراح لم يلق قبولاً لا من يعقوب ولا من سليمان عطارة. فقد علق عليه يعقوب:

«هذا أمر هين يا سمعان، سنجد له مخرجاً، لا عليك»!!.

كان حفيف سراويهم مسموعاً، وصوت تلاهث زفيرهم واضحاً، ودهس أقدامهم للأشواك ضاجاً وموحشاً. فقد كانت خطواتهم سريعة وواسعة. وكانت الأشواك والنباتات اليابسة تغطي مساحة من الأرض الشاسعة الممتدة حولهم؛ الأمر الذي جعل سليمان عطارة يقول ليعقوب، وقد ساد الصمت:

«بلادنا جميلة، ستراها في الأيام القادمة.

فقد أتيت في موسم حصاد الشوك يا يعقوب»!!.

ويبتسم يعقوب، ويضحك سليمان عطارة ومن معهما، ويضيف سليمان:

«انظر يا سليمان، لو كانت كل هذه الأشواك قمحاً أو شعيراً، ألا يغتني صاحبها»؟!.

ودون أن يجيب، يسأله سليمان عطارة غامزاً:

«ولو كانت صبايا...»؟!.

وما من إجابة أيضاً سوى الهمهمات وضرب الكفّ بالكف، وعلو الضحكات من الجميع. كانت بنات يعقوب والعجوزان تحت نظرهم تماماً، وهن مشغولات ببناء الموقد الذي تسميه العجوزان (الفرنية) كانت البنات تسأل عن كل شيء، عن الحجارة وكيفية توزيعها داخل (الفرنية) وطريقة الخبز، وكمية الحطب التي ستدس تحت قطعة الصاج التي كانت غطاء لبرميل زيت، وإن لم يتوفر الحطب فبماذا يخبزن؟! وعن الوقت الذي تحتاج إليه الأرغفة حتى تنضج، وكيفية الطبخ في (الفرنية)، وهل يطبخن في آنية الفخار أم آنية النحاس، وما هو مقدار كمية الطحين والماء لكل عجنة، وكم من الوقت يحتاج إليه العجين حتى يختمر؟!... وهكذا... سيل من الأسئلة الدائرة اللاثبة اندفع نحو العجوزين اللتين راحتا تريثان البنات وقتاً من الزمن حتى يتم بناء (الفرنية). وبعدئذ ستشرحان لهن وبالتفصيل كيف يعجنّ، ويخبزن، ويطبخن. وأنهن لن يجدن صعوبة في ذلك، كما أنهن لن يشعرن بالملل والتعب لأن ظلّ الشجر وحفيف أوراقه، وأصوات المياه الجارية، ورذاذ الماء المتساقط والمتناثر من علٍ سيبدد كل تعب وملل، ويقلل كثيراً من حرارة (الفرنية) ووهج نارها. ولكأن بنات يعقوب أمّنّ على كلام العجوزين فصمتن صمتاً مطبقاً، ورحن يراقبن أيدي العجوزين كيف تبني (الفرنية)، وكيف ترتب حجارتها في بهوها الدائري.

وعلى مبعدة منهن، وفي المكان العالي، وقرب الجسر تماماً. بدا

سمعان وهو يشدُّ مع عماله خيطان أساسات الخان، بعدما اتفق مع يعقوب وسليمان عطارة على أن يكون الخان من طابقين، الأول: للدواب، والثاني للنزلاء: وأن يتألف من غرف المنامة للنزلاء، والمهاجع للدواب، وغرف المؤونة والمعيشة. وأن يكون في كل طابق عشر غرف، الغرف السفلى مفتوحة على بعضها بعضاً على شكل مهاجع ومعابر طويلة مزودة بمذاود للدواب تكون من الحجر أو الطين، أو براميل الزيت وقد شقت من منتصفها وبشكل طولاني. على أن يربط الطابقين درج حجري مسيّج بإطار حديدي، وباب حديدي يحول دون صعود أحد من الناس أو الحيوانات ليلاً بعد إغلاقه!!.

حين مدّت خيطان الأساسات، ونظّفت أرض الخان القادم من الأشواك، وأزيلت أتربتها الزائدة وحجارتها الصغيرة والكبيرة، نظر سليمان عطارة إلى وجه يعقوب فوجده يرتعش من الفرح، وحين سأله وهو يشير إلى الأرض التي نظفت وقد أحاطت بها الخيطان:

«ها، ما رأيك الآن يا يعقوب»؟!.

فلم يجب يعقوب. بل رفع يديه عالياً نحو رأسه، وانحنى أمام سليمان عطارة الذي ربّت على كتفيه، وقال بوجه لا أثر للابتسام فيه:

«ارفع رأسك يا يعقوب، لأرفع رأسي يا أخي»!.

فاستجاب يعقوب إليه. ثم اندفع نحوه وارتمى في صدره، وهو يتمتم له بارتعاش لكأنه مبرود:

«باركني يا أخي، باركني»!!.

ولم يكن لسليمان عطارة من مهرب إلا أن يشدّ يعقوب إلى صدره بقوة، ويربّت على ظهره، ويدعوه أن يؤجّل الفرح إلى ما بعد بناء الخان، وامتلائه بالنزلاء؛ ساعتئذ ستكون السعادة كبيرة وعامرة، وسيأخذه إلى

صدره ويدعوه إلى الغفو والنوم طويلاً. أما الآن فلا وقت أمامهما لفعل مثل هذا، وعليهما أن يمضيا معاً إلى المقلع لانتقاء حجارة الخان بمساعدة سمعان ورجاله، وينفكّ التحامهما، وقد شحب وجه يعقوب وتلامع بدموعه التي لا يدري أحد كيف انقادت له بمثل ذلك اليسر والسهولة؛ ينفكّ التحامهما على صوت سمعان الذي راح يستشيرهما في حفر أساسات الخان، وهل بمقدور عماله أن يشرعوا بحفرها في هذا الوقت أو يؤجلوا ذلك إلى وقت آخر، لحظتئذٍ صرخ يعقوب وكأن دابة من دواب الأرض قرصته:

«لا، يا سمعان،

نريد أن نحفرها الآن يا أخي،

أرجوك»!.

يهزّ سليمان عطارة رأسه موافقاً، فيستجيب سمعان لهما، ويطلب من عماله أن يشرعوا في حفر الأساسات على نحو متساوٍ في العمق ما دامت الأرض هينة قابلة للحفر، وأن يتوقفوا إن أصبحت قاسية، وأن يغمروا الحفر بالماء إلى الصباح لمواصلة حفرها ثانية إلى الحد المطلوب. وينسحب مع يعقوب وسليمان عطارة مبتعدين عنهم، متوجهين نحو المقلع لانتقاء حجارة الخان.

أما البنات، فقد انحدرن إلى النهر، بعد انصراف العجوزين إلى القرية، وقد انتهى بناء الموقد الذي بدا بلونه البني المشبع بالماء بين شجرتي بلوط واقفاً ليجفّ تحت وهج الشمس رويداً رويداً.

انحدرن إلى النهر لينظفن أيديهن وأثوابهن، وهن يتقافزن ويتعابثن. وهناك، وقرب ضفة النهر، ووسط شجيرات الطيون، والغار، والقصب، اكتشفت البنات مكاناً للمياه المعدنية الساخنة حينما لفتت انتباه جوديت

سحابة خفيفة شفيفة من الضباب تغطي مساحة واسعة من الماء المتدفق المنحدر من جدول صغير نحو النهر. تلك السحابة الضبابية شدت انتباه جوديت وأختيها كأنها مخلوق ما نادى عليهن، ليقتربن منه، وما أن أحطن بها حتى انكشف الضباب عن نبع غزير يفور بالماء الساخن. وبدا الضباب لهن ليس إلا بخار الماء الذي يتصاعد باستمرار، وفرحن باكتشافهن، فتعالى ضجيجهن حديثاً، وضحكاً، وتراشقاً، وتدافعاً رقيقاً ليناً، وملامسةً، واحتضاناً حنوناً أشعله دفء الماء، وطمأنينة المكان، وقد أحاطت بالنبع شجيرات الطيّون العالية الشديدة الخضرة وأعواد السعد والحلفا والقصب الكثيفة المتداخلة، وبين الجد والمعابثة، قالت جوديت لأختيها:

«هيا نجعل من هذا النبع مكاناً دائماً لنا نستحم فيه كلما رغبنا»!.

ولما استفسرت أختاها عن قصدها، طلبت منهما أن تساعداها على نقل بعض الحجارة، وتقطيع بعض الأغصان لسدّ الجهة المفتوحة من المكان ما بين شجيرات الطيّون، وكأن الأختين وافقتاها على رأيها دونما تفكير، فشرعتا في تقليدها، في خلع بعض الأغصان، ونقل بعض الحجارة الصوانية إلى قرب الجهة المكشوفة حول النبع وتعاونَّ جميعاً، في سدِّ الثغرة. زرعن الأغصان في طرف النبع وثبتنها بالحجارة من الأسفل، ورحن يغطين الأغصان بالأغصان حتى أصبح النبع مستوراً من جميع الجهات.

ودونما إبطاء أو تمهيد، شرعت جوديت بالتعري لتستحم، وبينما هي تخلع ثيابها راحت أختاها تراقبان جسدها الجميل، وقد بدت مفاتنه جزءاً جزءاً، واكتملت روعته قبل أن يغيب داخل الماء.

في هذا المكان، ووسط الماء الدافيء الساخن، واللامع.. انكشفت أجساد بنات يعقوب على بعضها بعضاً، بعدما تبادلن أدوار الاستحمام والفرك والمشاهدة زمناً طويلاً؛ انكشفت الأجساد فلمع بياضها، وبدت فتنتها، وراحت كل واحدة منهن تنظر إلى جسد أختها وتتمعن فيه لتجري المقارنة، وتحصي مزايا الحسن التي تتمتع بها كل واحدة منهن. بدت الأجساد وهي في وقوفها وانحنائها على الماء الصافي المفروش بالحصى الصواني المتعدد الألوان، بيضاء، لينة، رقيقة، ممتلئة، ومصقولة كالمرايا. ترتشف ماء النبع بعذوبة ثم تعيده حبالاً من النقاط الفضية المشبعة بالضوء. كانت دينة الأخت الصغرى الأكثر دهشة بجسديّ أختيها، فلامستهما، واحتضنتهما بفرح غامر وحقيقي.

ولم تفارق بنات يعقوب المكان، وقد أطلن المكث فيه، إلا بعد أن رمين تعبهن، وصخبهن، وأوساخ أيديهن وأثوابهن للنهر، والماء الدافيء، وشجيرات الطيون، وأعواد القصب التي تمايلت حولهن بدلال وغنج باديين.

كنَّ وهن في صعودهن البطيء نحو البيت، عبر الدرب الملتوي الضيق، المسيّج من طرفيه بشجيرات العليق التي ما زال بعض ثمارها عالقاً بها، يخترعن للنبع اسماً، أو قلْ للحمّام اسماً ـ الصغرى قالت: «نسميه حمام جوديت، لأن جوديت هي أول من رآه»!.

وجوديت قالت، وهي تتضاحك:

«نسميه حمام البنات»!.

وقالت الوسطى ميمونة:

«لا، نسميه حمام الحسرة».

وهكذا... ظلت الأسماء تثار كالجمر ثم تنطفيء، حتى وقت

جوديت باسم وافقت عليه أختاها أيضاً. لقد خطر ببالها أن تسميه: «حمام بنات يعقوب»!! فرقصت الأختان فرحاً وتصاحتا سروراً، ولهجتا بالموافقة حين نطقت جوديت بالاسم.

بدت البنات، وهن في الطريق، كأنهن أرغفة مشوية خارجة لتوها من التنور وهي بكل دفئها وبهائها. بدَون طافحات بالعذوبة والرشاقة والحمرة القانية لكأن دناً من عصير الرمان سكب عليهن، فلوّن بياضهن بكل ما فيه من عنفوان الجمال وسحره؛ بدَون كائنات لجمال انشقّ عنه الشجر تواً، أو لكأن النهر أطلقهن فجأة رذاذاً من الماء المصفّى، الموشّى بالحُمرة الشقيقة الأسرة، ليصعدن الدرب بهدوء، وحنوٍ، وأنوثة قلما عرفها من قبل؛ رذاذاً من الماء الملوّن المحلّى بالسكر الذي يمشي على البر في نزهة قصيرة ليرى ويتأمّل، ويقطف حبات التوت ويجمعها ثم يعود!!.

حاشية خامسة:

«... لكن بنات يعقوب عدن مرة ثانية إلى الحمام المسيّج، والمستور، بعدما التقين رحمون في طريقهن. قطف لهن حبات الرمان، وكمية من التين، وعدداً من قرون الخروب السود التي ما عرفن كيف يأكلنها. في البداية همّ نحوهن متلهفاً، لكن البنات مررن بجانبه وكأنهن لا يعرفنه، فنادى عليهن، وركض نحوهن، وقد صددن عنه. هيّجته مفاجأة تجاهله، وعلم اكتراثهن. كاد، وقد أمعنّ معاً في عدم الرد عليه، أو النظر إليه أن لا يصدق ما يحدث، فأمس كان وإياهن معاً، أو كان مع واحدة منهن ولمرات عدة. ركض نحوهن مرة ثانية واستوقفهن دفعة واحدة حين سدّ الدرب الترابي الضيق في وجوههن. لحظتئذٍ، انفجرن معاً في ضحكة واحدة، وأخذنه في ضمّة من الأذرع الطرية الناعمة. وعدن معه نحو النهر كرة أخرى. وفي طريق العودة قطف لهن الرمان، والتين، وقرون الخروب السود التي استغربن شكلها المنفر، وحلاوة قشرتها، وكثرة بزرها. عدن إلى النهر؛ إلى النبع الدافىء الذي تحوّل إلى سرير رهيف، لدن، حنون، طيّع لا يئن أو يشكو... لجسدين في كلّ مرّة.

كان مشهد الجسدين العاريين في الماء أشبه بالخرافة في وحشة المكان وغربته، وظلاله الكثيرة، وهدوئه العميم، وأنسامه اللينة؛ مشهد لجسدين لوعهما الظمأ الطويل،

والتعب المضني، والإحساس العميق الموجع بالوحدة، والمشابهة، مشهد لحال إنسانية لم يعشها الماء من قبل ملأى بالرهافة واللطف المذيب.

كانت البنات في غيبوبة الخضرة، وماء، واللمس، والأنفاس اللاهثة، والأماني التي تأتي بها المفاجآت؛ كن بلا كلام، بلا تمنع، بلا مداورة، باسمات، طريات مثل الزغب الندي تُرى ولا يرى؛ كن الأنوثة المحلومة والمشتهاة. أوقدن الماء ساعات بالرغبات المضمرة، ومحون أحزان رجل كاد يصير شيئاً من الأشياء الصامتة، ثم مضين كعروق النعناع الضاجة بالخضرة والعطر الأنثوي الآسر، وجمال البراري البكر في صباحاتها الطويلة»!.

تفصيل صغير:

«في هذه المرة استطاع رحمون بالإدراك الحقيقي أن يعي أنه يبني الدنيا، والسعادة، وأحلامه الموعودة مع ثلاث بنات، لكل واحدة ريقها السكر، وأنفاسها الدافئة، وطراوة جسدها التي تسلب العقل، ولكن واحدة رؤيتها ودهشتها اللتان لا تغيبان قط»!!.

تذييل أخير:

«لم تكن الحجارة وحدها، ولا النهر وحده، ولا الطيور وحدها.. من رأى ما حدث في ذلك النبع الدافيء، النبع السري، بل إن شاهين وكيل المعصرة رأى طرفاً من

ذلك ودهش مما رأى فعضَّ على شفته السفلى وأدماها، وقبل أن تطير الأنوثة وعبقها من ذلك المكان طار شاهين نحو المعصرة، دون أن يظفر بمعلمه سليمان عطارة، مؤملاً نفسه أن تلقى ما لاقى رحمون، وأن تعيش ما عاش، وأن تتنزه في بستان الأنوثة كما تنزه هو»!!.

الكتاب السادس

«الجدار»

في الطريق إلى المقلع، أبدى يعقوب من التذلل والانكسار أمام سليمان عطارة الكثير لكي يرقّ قلبه عليه، فيساعده على قضاء شؤونه ليقف على قدميه في بلد لا يعرف أهله، وفي مكان لا يعرف إلا اسمه، فيعده سليمان عطارة بالخير، والتعاون، والمؤازرة؛ لكن يعقوب لا يأكل من كلامه ولا يطمئن إليه، فيزيد من إلحاحه، ورجائه، ويبدي تخضعه له أكثر، وسليمان عطارة، اليقظ، يريّثه، ويشعره بأنه يستمع إليه بإصغاء شديد، وأنه يفهم مشكلاته، وحيرته القائمة ويعده، مرة ثانية، بكل خير!!.

كان يعقوب، وكلما أراد أن ينتزع موافقة سليمان عطارة على أمر من أمور المساعدة وشؤونها يسبقه بخطوة ويقف في طريقه مواجهةً، ويجبره على الوقوف داعياً الله أن يوفقه ويمدّ في رزقه وعمره من أجل أن يساعده؛ يقف أمام سليمان عطارة بوجه ناشف راجٍ كأنه جلد مدبوغ،وقد تراجفت أجفانه، وتراقصت شفتاه شاكياً إليه عسرة أمره، وقلة حيلته، وأنه كالطفل الوليد الذي يريد أن يخطو خطواته الأولى، فإن لم يساعده على ذلك تعثر، وأحجم عن محاولات الخطو وقتاً طويلاً وخاف منه، وأنه يعدّ وجود سليمان عطارة في القرية هدية عطاء من الرب ما كان ينتظر أهم منها أبداً؛ فسليمان عطارة يعني عنده القرية كلها؛ بل القرى المجاورة كلها أيضاً، وهو أيضاً الأم، والأب، والأخ،

والمكان، والزمان، والمستقبل، والنجاح، إذ ما من معين له سواه، فكيف له أن لا يسأله أو يرجوه!!.

ولم يكن سليمان عطارة صامتاً أو رافضاً لمساعدة يعقوب وإنما كان يحاوره ويناوره على شروط انتفاعهما معاً من الخان الذي سيصير مصيدة يعقوب للمال في المنطقة كلها، ويعقوب يرفض. يقول له بأن الخان مغامرة، ونبتٌ في بئر، لا يدري إن كان سيثمر أم لا، وإن أثمر أيكون بمقدوره أن يجني ثمره أم لا؟! ويستفيض بالشرح قائلاً:

«الخان، يا أخي سليمان، لن يعطي فوائد أو منافع قبل سنة. وإن أعطى فلن تكون تلك الفوائد أو المنافع كافية لتسديد ديون الناس»!!.

وسليمان عطارة لا يقتنع! يقول له:

«أراك خائفاً مني، يا يعقوب، أكثر من خوفك من المستقبل. أنا وأنت على الزمان والناس معاً، وأنا وأنت مع الخسارة والربح يا أخي»!!.

ويذكّره سليمان عطارة بأملاكه التي ستكون الكفيل والسند لهما في مشروع الخان، ثم أن مهنة الحلاقة ستدر على يعقوب مالاً وفيراً سيجعله في غنى عنه، وعن الآخرين في فترة قليلة من الزمن؛ فلماذا يتشاءم ويأخذ ذيله بأسنانه ويولي الأدبار قبل أن تصير المواجهة!!.

وكأن الكلام هذا لم يسمعه يعقوب، فيحثُّ خطاه، ويسبق سليمان عطارة بخطوة، ويلتفت إليه مواجهة، ويأخذه من صدره، وهو يريه كيسه الأسود المعلق في رقبته، وقد أبدى خواءه:

«كيسي الآن، يا سليمان، فارغ.

انتظرني حتى يمتلىء، وعندئذ اطلب ما تشاء،

أرجوك يا أخي أن تساعدني»!!.

ويضحك سليمان عطارة غير مكترث بوجه يعقوب الباكي بلا دموع، ولا بارتعاشاته الطويلة المتكررة، ويبعده عن طريقه، ويمشي، وهو يقول له:

«حين يمتلىء كيسك يا يعقوب،

ستنسى أشياء كثيرة يا أخي... وربما،

نسيت أن للأرض سماء»!!.

ويلحقه يعقوب، يرجوه، ويتضرع إليه كأنما في حضرة إله. يرجوه أن ينتهيا من أمر تأمين حجارة الخان قبل وصولهما إلى المقلع الذي سبقهما إليه المعمار سمعان! إذ من المعيب لهما معاً أن ينثرا الحديث حول هذا الموضوع أمام الأغراب، فيطمعون بهما، وسليمان عطارة لا يلتفت إليه، يصرّ على أن يكون الخان مناصفة فيما بينهما، هو بماله، ويعقوب وبناته بعملهم وإشرافهم على شؤونه، ويرفض يعقوب!!.

لقد شعر سليمان عطارة أن تأمين ثمن حجارة الخان، وأجرة بنائه فرصته المباشرة في القبض على عنق يعقوب إلى الأبد، وجعله تابعاً له لا منافساً!! وأنه بهذا يقبض على جرح يعقوب الطازج والطري، والذي سيجعله يصرخ ويتوجع من اللمسة الأولى لا محالة!!.

ويرقُّ صوت يعقوب وينحل كثيراً، وكأنه بدأ يستسلم رويداً رويداً لطلب سليمان عطارة، فقد راح يرجوه أن يجلس قليلاً قبالته ليحلا أمر بناء الخان وحجارته، وأن يتفقا على كيفية تسديد الدين؛ فيوافقه سليمان عطارة، ويأخذه من طرف ثوبه ويجلسه قرب إحدى الصخور الكثيرة

المحيطة بالدرب الذاهب صعوداً نحو المقلع، وقد سيّجت بعض جهاته أشواك شجيرات البلان المصفرة.

كان صوت حجر المعصرة يصل إليهما صافياً كأنه الرنين، كما كان صوت هدير الطواحين مسموعاً أيضاً وفي جلبة راعدة، وقد راق النهار بضوئه، ودفئه، وصفا بهدوئه العميم. وعلى مبعدة منهما كانت بعض طيور القطا تهبط وتعلو بين حين وآخر على شكل حبال متصلة من البياض والسواد كأنها تبحث عن طعامها بكل ذلك الهدوء والطمأنينة، وخدر الطيران اللذيذ، أو كأنها تلاعب الهواء وتناوره كلما أدار لها ظهره أو صدّ عنها، أو كأنها زينة للمكان إن غابت فلا تلبث أن تعود، أو كأنها نقش ناعم ملون في ثوب نسائي شفيف.

وأخيراً، اتفق سليمان عطارة ويعقوب على بناء الخان بالشروط التي أرادها كل منهما، ووفقاً لرغباته وأمنياته القائمة للمستقبل القادم. فقد استقر رأيهما، بعد حوار طويل مرهق، على أن يؤمن سليمان عطارة ثمن الحجارة، وأجرة بناء الخان وكسوته، وكل ما يحتاج إليه الخان في بداية عمله حتى يصبح لائقاً لاستقبال النزلاء، مقابل أن يزوجه يعقوب ابنته الكبرى جوديت!!.

حين توصلا إلى هذا الاتفاق المفاجيء، ضحك كل منهما في نفسه كثيراً، وابتهج أيضاً، إذ ظن كل منهما أنه وضع الثاني في عبّه وأغلق عليه، أو نام عليه!! فسليمان عطارة رأى أنه إذا تزوج ابنة يعقوب جوديت سيصبح الخان وأرباحه، ويعقوب وابنتاه الأخريان ملكاً له، ففي بطن جوديت مستقبله. وظن يعقوب أنه بمصاهرته سليمان عطارة، سيصبح هو وبناته، لا جوديت وحدها، أصحاب أملاك سليمان عطارة المتوزعة هنا وهناك بالوراثة المشروعة؛ بل إن جوديت ستكشف له عن

كل ما لدى سليمان عطارة من أموال وأملاك غير معروفة للناس، وذلك لأن سليمان عطارة مهما عاش لا حياة أخرى له، إذ ما من أحد له، وأن كل ما سيخلفه وراءه، حين تذوب الروح وتنطفيء، سيعود إلى يعقوب وبناته، لا لأحد آخر غيرهم!!.

حين توصلا إلى هذا الاتفاق، وقد ابتهج به يعقوب أكثر، وكأنه وقع على كنز، ارتمى كل منهما في صدر الآخر، وتعانقا عناقاً طويلاً وهما يتمتمان تمتمات التهنئة العميقة.

وآن انفصلا، قال يعقوب، وقد انتشى:

«أتعرف يا سليمان، أتمنى لو كان بمقدوري الآن أن أضعك في قلبي»!!.

ويضحك سليمان عطارة، ويمازحه:

«أرجو الرب ألا تقدر على ذلك، لأنك إن وضعتني في قلبك فلن تبني الخان ولن يأتي النزلاء أيضاً»!!.

ويرد يعقوب بسخرية:

«ولماذا لم تقل، ولن تتزوج أنت بالجميلة جوديت»؟!.

ويمشيان في الدرب الموصل إلى المقلع، وقد أطالا في حديثهما وحوارهما. ويقول سليمان عطارة أمنياته التي يرجو أن تتحقق في ظل يعقوب وبناته، ويتحدث يعقوب عن انكساره أمام سليمان عطارة، فقد غلبه في شرطه حين أراد الزواج من جوديت مقابل أشياء بسيطة. وراح يناوره من أجل أن يمنح جوديت شيئاً من أملاكه مقابل الزفاف إليها. وسليمان عطارة لا يوافق. يقول له شارحاً بأن ما سيدفعه من تكاليف كبيرة لبناء الخان وتأثيثه هو المهر والمنحة لجوديت، وأنه مع الأيام، إن

أكرمه القدر بولد منها سيمنحها الكثير الكثير. وما على يعقوب إلا أن ينتظر.

وكأن يعقوب يفطن إلى حجة جديدة، فيقول له بحرارة:

«إنني حين أعطيك جوديت الرائعة زوجة يا سليمان،
فإنني أهبك الحياة مرة أخرى»!.

ويقول سليمان عطارة شاكاً:

«ومن أدراك بأن جوديت ستنجب يا يعقوب»؟!.

ويقف يعقوب في منتصف الدرب، ويرامق سليمان عطارة بنظرة طويلة عميقة، ويدق صدره بثقة:

«لكنني أعرف ابنتي، ستنجب منك جيشاً يا سليمان»!.

ويزيد سليمان عطارة في شكّه، حين يقول له:

«وهل ضمنت القدر يا يعقوب»؟!،

فيجيبه يعقوب متسرعاً:

«إن كان الأمر متعلقاً بجوديت فإنني أضمنه»!!.

ويهزُّ سليمان عطارة رأسه متحيراً بكلامه، وقد لفتت انتباهه تلك الحيوية التي شملت يعقوب فجأة، وذلك لأنه كان قبل قليل أشبه بالميت يرجو، ويستعطف، وقد حشا كلماته كلَّ الحنين والدفء، والنعومة، والرقة.

ومع ما ولّده الحوار من أسئلة وأجوبة، وأفكار، ومقترحات وأبواب ونوافذ لم تكن معروفة أو مفتوحة من قبل، ظل الاثنان معلقين على سؤالين حائرين، الأول سؤال سليمان عطارة الذي همسه بلهجة لا تخلو

من رنّة الحزن:

«وهل ستوافق جوديت يا أخي»؟!.

والثاني، قول يعقوب مجيباً بسؤال حارق آخر:

«ولم لا توافق يا سليمان»؟!.

ولكي يطمئن سليمان عطارة أكثر، يضيف يعقوب باندفاع بيّن:

«فأنت شباب، ومال، وسند... يا أخي»!!.

حولهما، وعلى جانبي الدرب، تناثرت الأشجار وتجمعت، وبدت الصخور، وبقع الشوك الفضية الواسعة لنباتات السنيرية، وأجمات الشوك الأصفر الناعم لنباتات الشومر والكلخ والدريهمة، التي بدت محيطة بالصخور، ورجوم الحجارة كأنها سور لها، وبدت هنا وهناك بواقي ألوان من خضرة النباتات التجيلية. وفي آخر الدرب وبعد مسير شكا منه سليمان عطارة، بدا المقلع منبسطاً من أول قمم الصخور إلى منتهى المنحدر ومن جهتين. وقد انكب نفرٌ قليل من أهالي الشماصنة على الحجارة يشذبونها، ويرتّبونها في أكوام صغيرة حسب أحجامها وأطوالها. بدت الحجارة البيضاء كأنها قطع من الرخام المصقول المصفّى.

أما الحجارة السوداء، فكانت تميل إلى الزرقة أكثر من السواد، زرقة تتلامع مع وهج الشمس وحرارتها؛ حجارة تداخلت أطرافها وكأن بعضها يستظلُّ ببعضها الآخر، وعلى مقربة من المقلع، وقد علا صوت نقر الحجارة وصقلها، ويسأل يعقوب سليمان عطارة:

«بماذا يذكرك هذا النقر يا أخي سليمان»؟!.

فلا يجيب سليمان عطارة لكأنه فوجئ بالسؤال بل يهمهم مردداً كلمته «النقر، النقر» ويضيف يعقوب سؤالاً جديداً حين يقول:

«ألا يذكرك بيوم القيامة»؟!.

فيقول سليمان عطارة مندهشاً:

«القيامة! وما دخل القيامة بالنقر»؟!.

فيقول يعقوب موضحاً:

«النقر نداء وانشغال.

وبوق يوم القيامة نداء، وانشغال أليس كذلك»؟!.

ويشير سليمان عطارة له برأسه أنه لم يفهم شيئاً. حينئذ، يأخذه يعقوب من كتفه، ويرجوه أن يقف ليشرح له فكرته، لأنها جديرة بالوقوف. يقول له:

«علينا أن نوجد نداءنا يا سليمان، لكي تقوم قيامة الناس في هذه المنطقة»؟!.

فيستوضحه سليمان عطارة أكثر:

«كيف»؟!.

فيقول، وقد طاب له الحديث محاولاً أن ينسى تعب الطريق:

«حين نوجد نداءنا، وتقوم قيامة الناس هنا يظلّون أمامنا منتظرين ما سنفعله، يظلون على قلق، وخوف، وترقب!! ونحن نفعل ما نريد وما نشاء، وهم في تسمّرهم وقد شلّ الخوف خطاهم وحركتهم»!!.

ويقاطعه سليمان عطارة بحجة أنه لا يفهمه، وأن مثل هذا الكلام الكبير بحاجة إلى جلسة هادئة في بيته وسط بناته، وهن يطفن عليهما بالشراب البارد، وقد انبسط الطعام وطاب، والخان وقد اكتظت غرفه

بالنزلاء من البشر، ومذاود حيواناته بالشعير والتين، وعنابره بالدواب، والجسر، وقد راح يغفو بعد تعب النهار الجميل. وكأن الصورة المشرقة التي يرسمها سليمان عطارة للأيام الآتية، تروق ليعقوب، فيكفّ عن الحديث، وينطلق في تخيلاته، وقد رأى نفسه يوزع التين والشعير بالمقدار على المذاود، أو وهو يعد النقود التي جمعها من النزلاء في آخر الليل، وبناته وقد لفّهن النوم بكل لذاذاته وحنوه، أو وهو يقدم واحدة من غرف الخان لنزيل جديد ومحترم يزوره لأول مرة، ويودّ لو كان بمقدوره أن يكسبه نزيلاً عنده إلى الأبد؛ النزيل يدفع، وهو يؤدي فروض الطاعة والاحترام،والواجب، والنظافة، والانكسار الجميل!!.

ولم يطوِ تخيلاته إلا عندما لاحظ أن قدميه لا تتركان أثراً في الدرب، كما أن قدمي سليمان عطارة لا تتركان أثراً أيضاً، في حين تظهر أقدام أناس آخرين سبق وأن مروا في الدرب، كما تبدو آثار أقدام أغنام، وأبقار، وخيول؛ الأمر الذي جعله يقف مندهشاً مستغرباً ليسأل سليمان عطارة: ونظره ساقط على الدرب بأسى كبير:

«أترى الدرب يا سليمان، إنه يمحو آثار خطانا»!!.

فيضحك سليمان عطارة، وهو يقول له:

«هذا أحسن لنا يا يعقوب»!!.

فيجيبه يعقوب مستفسراً:

«أحسن لماذا، وهل نحن لصوص يا سليمان»؟!.

وينفي سليمان عطارة ذلك برجرجة رأسه! ويعود يعقوب ويسأله:

«ما السبب إذن»؟!.

وبهدوي يجيبه سليمان عطارة:

«لأن الدرب ليس لنا».

وكأن الجواب فاجأ يعقوب، فيهتف:

«ماذا»؟!.

ودون إجابة!! يدفعه سليمان عطارة أمامه، وهو يقول له:

«فكر بالخان، وبكيسك الفارغ، يا يعقوب، ودعك من الأسئلة الموجعة»!!.

فيوافقه يعقوب، ويعتذر منه، ويصارحه بأنه، ومنذ وصوله، يحسّ أن الطبيعة من حوله بكل شجرها ونباتاتها ومالها ووهادها وسهولها، والأهالي، والدرب الذي يمشي عليه... كلها يحسُّ بأنها جدار عالٍ لا يدري كيف يجتازه ليعرف ما وراءه!!.

ويعتب سليمان عطارة عليه، فيلومه لأنه منذ أيامه الأولى يفتح باب التذمر، والشكوى، والمخاوف. وأن عدم إلفته في المكان هو الذي يثير مخافته ليس إلا، والأيام القادمة كفيلة بأن تبني الإلفة والمحبة للمكان والناس. ويضيف سليمان عطارة بانفعال واضح:

«دع مخاوفك جانباً، يا يعقوب، فكيسك حين يمتلىء سيهابك الناس، وستستأنس بك الطبيعة، وسيحنو عليك الدرب، ويجمع خطواتك ويقودك إلى حيثما تريد. كيسك، يا يعقوب، هو الذي سيجوز بك الجدار العالي الذي تتحدث عنه»!!.

وكمن يطمئن لما يسمع، يشرد يعقوب مع تخيلاته، وقد تراخت خطواته وقصرت، وهدأت حركة ذراعيه الدائرية، ودأب رقص حاجبيه، ولم يمضِ سليمان عطارة في حديثه أكثر لكأنه وصل إلى ختامه الأخير.

كانا لحظتئذٍ، على أمتار قليلة من المقلع، وقد أحاط بهما الرنين، ولفتهما أنظار العمال، وبدت لهما المساحات الواسعة المفتوحة على كل الأمداء، فأشرعا معاً ابتسامتين واسعتين، وتقدما نحو صاحب المقلع الذي واقفه سليمان في حديث حول حجارة الخان، وعددها، ووقت إنجاز صقلها أيضاً!!.

حاشية سادسة:

ولم يقل يعقوب لسليمان عطارة كم يملك من المال. كان على الدوام يريه كيس نقوده الأسود الفارغ، ويشكو له فقره، وصدود الحياة عنه.

وسليمان عطارة لم يسأله أيضاً كم يملك من المال! لقد ظلّا وجهين أحدهما مشرق بالمال والأملاك، والثاني شاحب وكحلي مثل (شكوة اللبن) اليابسة! على الرغم من أن يعقوب يملك الكثير من المال الذي يخبئه عن بناته، والذي وصل إليه من ابنته التي قتلت!!.

كان زوجها رجل مقتدر، يملك الأطيان والأراضي، والحيوانات، والأموال الكثيرة، والأصح أن هذا الرجل الغني أغرى البنت، واسمها (نانا) وتزوجها بعيداً عن معرفة أهلها، أو قل إنه خطفها، وضمها راغبة إلى أملاكه ويعقوب لم يفعل شيئاً.

كان يتردد على (نانا) يومياً ليأخذ ما تصل إليه يداها من أشياء ثمينة، أو أموال ظاهرة، كانت (نانا) بالنسبة ليعقوب منجماً تمنى أن يدوم ويستمر، ولكن الأمنيات، في غالب الأحيان، تظلّ أمنيات، فقد ضبطها زوجها وهي توزع تحف البيت، وأمواله على أهلها، فحذرها، ومنعها من الاتصال بهم. ولأنه كان يغيب كثيراً، فقد سعت (نانا) إلى إطفاء جمرها الأنثوي عند وكيل أعمال زوجها، الشاب الطويل المتعافي، (أيوب)، كانت تلتقيه فوق سرير زوجها، وفي بوايك التبن، ومستودعات

العلف ومذاود الأبقار والخيول، وتفجر شهوتها معه، وتطفيء جمرها بين ذراعيه ساعة من الزمن أو أكثر، ليلة أو أكثر، إلى أن وشى عمال زوجها بما يحدث بين (أيوب) و(نانا) فجنّ جنونه، وتحايل الزوج على (نانا) وأخبرها بأنه مضطر إلى السفر ثانية، ورجاها أن تطلب منه الهدايا التي تريد، والأمنيات التي تشتهي. وأنه لن يغيب طويلاً، فلتعذره على كثرة أسفاره. وكاد ينفلق الزوج وقد رآها تتعلق بعنقه وتتأرجح مثل طفلة صغيرة بادية الدلال والغنج وقد ظهرت مفاتنها المتقدة الهائجة، الحارقة، وابتسامتها البديعة الكاشفة عن أسنان شديدة البياض رائعة الجمال، ورائحة جسدها الفائحة القادرة على تركيع أعتى الرجال عزوفاً عناداً وصدوداً. وحين تستدير، وتعود إلى مجلسها، تلوي ساقاً على ساق فيبدو لبها الأبيض المشرّب بالحمرة الشفيفة، ويلامع زغب إبطيها مثل الزبيب الأشقر، فيتقدم منها، فيراها تأخذ بأطراف أصابعها خصل شعرها الأسود الفاحم المتهدل فوق الجبين برشاقة جارحة، وينحني فوقها، ويقبّلها على فمها الزهري اللون المائل إلى البنفسج الزاهي، فيستطعم ريقها اللذيذ، ويغصّ لأنه ما عاد الوحيد الذي يشرب منه ويترك جسدها، بكل طراوته ونداوته للمس أصابعه الناعمة، ولقبلاته، ورؤيته المتمعنة بكل التفاصيل. كان يودع جمالها الوحشي البكر، وكان يتذوقه بحواسه كلها كي لا ينساه. وكان يبكي أيضاً، وقد أخذه عرق جسده بعيداً في اللهاث الطويل المحموم، تعب كثيراً، وعاود الرؤية كثيراً أيضاً، ومسّ على بياض جسدها

طويلاً، وشم رائحة الإبطين مرات عدة، وامتصّ عرقهما، وشرب من ندى أنفها، نشّف دموع عينيها التي سالت مجاوبة مع بكائه هو؛ نشّفها بقبلاته القصيرة، والطويلة، اللاهبة. قبل قدميها، ورأى أصابعهما للمرة الأولى، ابتلع في قبلاته ما علق من أوساخ بين الأصابع، واستشعر رائحتهما، امتصّ الأصابع واحداً واحداً، وألهب الأذنين الصغيرتين الحمراوين بقبلاته المتتابعة والعجلى، مشد بأصابعه، وراحة كفه شعرها الأسود الطويل، وقبل جبينها الواسع مرات عديدة، ومرّغ وجهه على صفحة بطنها الملساء اللدنة وشرب ندى مفرق النهدين، كان في حمّى الوداع، كان عاشق الساعات الأخيرة لـ (نانا) التي أحبها، وعشق روحها؛ (نانا) التي باعت غيبته بمهاجع المذاود، والمستودعات، وفوق سريره، وبين يدي يعقوب!.

أيوب الذي خاف منها أولاً وابتعد، لكنها أخذته إليها ملاصقة، وقد غلى الجسد وفار كتنور الحطب. اعتادها، فأحبها، واعتادته فسعت إليه، وأعطته ملاسة خديها، ولدونه صدرها، وضراوة راحتيها، وأرته مباهج الفخذين، ودنيا الأحلام المضمرة التي لا تبدو إلا في طقوسها الخاصة والسرية أبداً.

استطابها، فكَره عودة زوجها، سيد نعمته، وزمانه!! ورجا الله ألا يعود، أن تنغلق عليه واحدة من رحلاته الكثيرة، لينعم بسحر (نانا) ورشاقتها، ولطافتها المدهشة!! لكن الأمنيات تظل أمنيات، فقد وشى

عمال السيد بأيوب الذي تطاول عليهم بالضرب والشتم والقسوة، وأضمر السيد له الخلاص إن تحقق من أن شهوة (نانا) مبذولة بين يديه!!.

افتعل الزوج السفر لأول مرة في حياته، لكنه لم يسافر، واختبأ بين أشجار حديقته الواسعة، وراح يترقب ما سيحدث بين (نانا) وعامله (أيوب)، ولم يحدث شيء، ظلّت (نانا) في غرفتها، تنام في سريرها على خدر لذتها معه. وعلى الرغم من مجيء (أيوب) إليها ومحاولة الدخول إلى غرفتها، لم تستجب لرغبته. وانصرفت عنه وكأنها لا تراه!! وعاد (أيوب) خائباً، وحار السيد بأمره، وبالوشاية التي وصلت إليه، لكنه لم ييئس، واستمر في مراقبته ليلة أخرى، ونهاراً آخر... ولكم فوجيء وذهل، حين رأى (نانا) زوجته برقيق ثيابها، وبحذائها الفضي الغالي هي من يبحث عن (أيوب) بين العنابر، وفي المستودعات، واصطبلات الخيول، كانت غير مكترثة بالروائح النتنة ولا بالمشاهد غير المستحبة للروث والمياه الآسنة، ولا بالأوساخ المرمية هنا وهناك، كانت تمرّ بها وكأنها لا تراها. كان هدفها (أيوب) وحين التقته بالقرب من كومة من الأشواك التي ستصير مكانس لجمع الروث، والأتربة أخذته إلى صدرها، وراحت تمتص شفتيه، وقد صارت الأذرع سياجاً من اللحم الطري للجسدين العطشين للمتعة الرائقة. وكم ذهل السيد حين رأى (نانا) تهبط بجسدها الطري، الناعم، فوق أجمة الشوك الواخزة الإبر، وتأخذ أيوب فوقها بكل الرفق واللين،، واللطف الأنثوي غير عابئة لا بالشوك،

ولا بالمكان، ولا بالأعين المتخفية خلف الجدران، وانكشف ثوبها النيلي الشفيف عن شهوة الجسد اللامع تحت فضية القمر الحارس لها، والنجوم، وذابت (نانا) بـ (أيوب)، ولم يعد يصل إلى السيد سوى تصويت القبل، وذلك اللهاث الحميم، والهمهمات الموجعة بلذاذاتها وعذوبتها الطافحة. ولم يكن أمام السيد، وقد دهش واحتار إلا أن جعل من الأشوك وجهاً يعلو قبرهما وقد ضمهما متعانقين العناق الأخير، بدمهما الحار، وصرخاتهما المكتومة، ونظراتهما المرعوبة الخائفة!!.

وحين جاء يعقوب ليسأل عن (نانا) ويزورها، لم يجد أمامه سوى كيس من المال، والتعزية، وبعض الثياب التي صارت لباساً لبناته الأخريات، ذلك المال الذي لم يعترف بوجوده أمام سليمان عطارة، والذي لا تعرفه بناته أيضاً؛ بناته اللواتي يبدون زينة بثياب (نانا)، ثياب الليل، والنهار، على السواء»!!.

تفصيل صغير:

«جوديت، وميمونة، ودينة، كلّ صغيرات جداً؛ صغيرات على معرفة ما حدث لـ (نانا) مع زوجها، وأبيها، (نانا) التي لا يعرفنها إلا البنت الجميلة التي أغلقت رحم أمهن سنوات طويلة، حتى عاد وأخصب لتظهر جوديت مولوداً جديداً في أسرة، صار طول (نانا) بطول أبيها وأمها، (نانا) التي مضت زوجة مخطوفة لسيدها قبل أن ترى جوديت وهي تمشي أو تكز عابثة على الدروب»!!.

تفصيل صغير آخر:

«نادراً، ما تحدث يعقوب لبناته عن (نانا)، بل كانت أمهن من النادر أيضاً ما تسوق الحديث أمامهن عنها»!!.

تذييل:

«صارت (نانا) من الماضي غير المرغوب بالحديث عنه»!!.

الكتاب السابع

«المناحة»

الدرب الذي اقتادهما إلى المقلع هو نفسه الذي عاد بهما إلى كوخ يعقوب، حيث وجد البنات وقد توزعن أشغال البيت. جوديت تطبخ، وميمونة تشد أطراف الخيش حول عيدان القصب، وقد تراخى بعضها بعد أن عبثت بها الرياح، ودينة تكنس بعض أعواد القش والأتربة من أمام الكوخ.

كان يعقوب ممتلئاً بالخيبة، فقد ظنّ أنه سيجد الحجارة جاهزة بانتظاره في المقلع، وأنه سيشرع في تحميلها فوراً مع سمعان وعماله في واحدة من عربات المقلع إلى مكان الخان لإقامته؛ غير أن ظنه ظلّ ظناً وحسب. فقد كان عمال المقلع مشغولين بتقطيع حجارة سود، وأخرى بيض لنفر من الأهالي؛ وكانوا قد اتفقوا عليها مع صاحب المقلع الذي ينادونه باسم العبوسي، وهو رجل ربعه، ممتلىء الجسد، واسع الصدر، كبير الكفين، منتفخ الخدين، أنفه أقنى، وشفتاه رقيقتان، مغلقتان بشاربين أسودين كبيرين، وحاجباه كثان، تعلوهما جبهة عريضة مغبرة، يبدو كأنه جزء من المقلع، أو لكأن المقلع أطلقه فجأة نبتاً فيه قساوة الحجارة وانغلاقها؛ رجل بوجه لا نافذة فيه، ولا درب يقود إليه!!.

غصّ يعقوب، وجرض بريقه مرات ومرات وهو يسمع العبوسي يتحدث عن الأيام الكثيرة التي سيحتاجها لتأمين حجارة خانه. لأن حجارة عشرين غرفة وسياج، وتقطيعات المذاود الداخلية، والعنابر،

والدرج كلها تحتاج إلى جهد، وعرق، وأيام، بل إن يعقوب غصّ أكثر، حين قال له العبوسي إنه يخاف من أن يترك العمل في المقلع بعضُ عمله إذا ما أمطرت الدنيا في وقت مبكر هذا الموسم، لأن عدداً من العمال في أوقات البرد، والمطر، والرياح الشرقية التي يكون الثلج بكل برده وقسوته أرحم منها أحياناً. لكن العبوسي تعهد بتأمين الحجارة الخان يعقوب حالما ينتهي من تأمين الحجارة المطلوبة للأهالي الذين سبقوه في الطلب عليها. ولم يكن أمام يعقوب إلا أن يبدد شيئاً من غصّاته قبل أن يبتلعه، فقال للعبوسي:

«أرجوك، أنا مستعجل.

والحجارة، كما ترى، كثيرة»!!.

فيضحك العبوسي ضحكة لا تكشفها الرؤية؛ ضحكة لا تبين من شاربيه الكثين، ولا تكشف عن أسنانه أو أطرافها، يضحك سماعاً، وهو يقول له بلا مبالاة:

«الحجارة كثيرة لأصحابها يا أخ»!!.

فيلوي يعقوب عنقه، ويطأطئ رأسه بحركة متكررة معتادة منه، ثم يزرع بصره في وجه سليمان عطارة كأنه يستنجد به أو يدعوه لقول شيء ما، فسليمان عطارة عنده الدرب الذي سيقوده إلى غايته، والشجر العالي الذي سيعلوه مقترباً من الرب ليرجوه ويرق قلبه عليه. ويتململ سليمان عطارة في وقفته، هارباً من نظرات يعقوب الحائرة؛ لكنه وتحت إلحاحها، لا يخيب ظنه فيه، فيسأل العبوسي:

«ولمن هذه الحجارة يا عبوسي!!.

أقصد هل أصحابها في عجلة من أمرهم، هل شرعوا في البناء»؟!.

ويجيبه العبوسي بثقة عالية:

«الدنيا، يا سليمان، مقبلة على الشتاء، والشتاء عجول في كل شيء، وأصحاب الحجارة يسألون عنها بين يوم وآخر»!!.

ويصمت قليلاً لينفث دخان سيجارته، ثم يعود فيعدد على مسامع الجميع، وهو يشير، إلى أن الحجارة التي يرونها مكومة أمامهم هي لفلان وفلان وفلان من القرية، والقرى المجاورة. ويهزّ سليمان عطارة رأسه هزات ذات معنى هزات جعلت يعقوب يلتصق به، ليسأله برجاء:

«ها... يا سليمان، أتستطيع أن تحدث أصحاب الحجارة بأمرنا، وأن تقنعهم بأنه من الممكن لملك الموت أن ينتظر، أما الخان فلا»؟!.

وحين يتباطؤ سليمان عطارة في الإجابة، وقد ركز نظره في وجه يعقوب الغائم المرتعش، يسأله يعقوب ثانية:

«قل لي، يا أخي، أتستطيع»!.

فيطمئنه سليمان عطارة بتربيتة من كفه، وهو يقول:

«سنرى يا يعقوب، سنرى»!!.

ويتبادل سليمان عطارة وسمعان الحديث مع العبوسي حول ما إذا كانت هذه الحجارة المقدودة مناسبة لبناء الخان أم لا، وهل أحصى سمعان عدد الجسور الحجرية التي ستعلو الأبواب والشبابيك، وهل حدد أطوالها، وكم سيأخذ العبوسي ثمن الحجارة، وهل سيأخذ المبلغ كاملاً في هذه السنة أو أنه سيصبر على يعقوب سنة أخرى؟ حتى يأكل من تعبه في الخان!!، ثم، هل ينصح بأن يبنى الخان بحجارة بيضاء أو سوداء؟!

سيل من الأسئلة، والأحاديث دارت حول الخان، وظروف يعقوب الصعبة، والوقت القصير الذي سيقضيه سمعان في القرية لأنه مرتبط بأعمال البناء في قرى ومدن أخرى. فهو الآن في زيارة لأسرته، ولولا قدر سليمان عطارة الكبير عنده لما وافق على بناء الخان. وتحدث العبوسي عن تجاربه الكثيرة التي عاشها في المقلع، وأعمال البناء، فقد شيّبته الحجارة التي يحبّها ويحنّ إليها كلما ابتعد عنها، وأنه حاول أن يعمل أعمالاً كثيرة غير مهنته هذه إلا أنه ما استمر فيها؛ كان الحنين إلى الحجارة يعيده إليها دائماً. واستطرد في حديثه عن رنين الحجارة العذب المتقطع حيناً، والمتواصل حيناً آخر؛ رنين أجمل من الموسيقا وأبهى، وذلك حين حي سليمان عطارة عليه وجوده في وسط هذا الصخب والنقر، في دنيا موحشة نائية وبعيدة. ويرد العبوسي بتهكم واضح على سليمان عطارة؛ وينعي عليه وجوده في المعصرة ذات الهدير الأصم الموجع الذي لا أول له ولا آخر؛ أو وجوده في المطحنة حيث روائح الدواب ومناظرها التي لا تسر أبداً، وهدير المطحنة الذي لا يولّد مع الأيام إلا الطرش وأمراض الصدر، ويمتدُّ التندر والضحك، والحديث. ويعقوب في دنيا غير دنياهم؛ لقد أحسَّ بأن باباً أُغلق في وجهه بقسوة، وما كان يتوقع ذلك قط فالحديث عن المعصرة والمطحنة، والزيت، والصبايا، والجريش، ورائحة الصابون، ونقر الحجارة... أمر لا يهمه الآن ولا يستنفره للأسئلة أو المشاركة في الحوار. لقد بدا منطوياً على نفسه، منصرفاً إلى حوار داخلي مع ذاته، وهو يقلّب بعض الحجارة متمعناً في حوافها واستقامة خطوطها الجانبية، محاولاً حملها لتقدير أوزانها، أو هو يقيس أطوالها، وأطوال الجسور المرتبة إلى جوار بعضها بعضاً، كان يقيسها بخطواته مرة، وبشبر كفه مرة أخرى. ويسأل سمعان أو العبوسي أحياناً عنها، أهي جسور للأبواب أم للشبابيك، وما هو الوقت الذي يستغرقه الحجر الواحد حتى يصبح جسراً؟! بدا من خلال أسئلته وكأنه يريد أن يتعلم أسرار

المهنة دفعة واحدة، وقبل أن يحمل مطرقة أو إزميلاً!!.

في طريق عودتهما، وحين نكص العبوسي إلى عمله في المقلع، وبعد أن مضى سمعان إلى القرية عبر درب آخر، هو أقرب إليها، سأل يعقوب سليمان عطارة متوجعاً:

«هذا قال سيء يا سليمان، أليس كذلك؟!».

فيستغرب سليمان عطارة قوله:

«سيء!! ولماذا يا رجل؟!».

ثم يستدرك بهدوء:

«فأنا إن استطعت إقناع أصحاب الحجارة بأنك مضطر إليها، وأنك ضيف بلا مأوى، أخذنا الحجارة، وشرعنا في البناء حالاً، وإن لم أستطع فما علينا إلا أن ننتظر أياماً قليلة ريثما تجهز حجارتنا!!».

ويتخوف يعقوب من التأخير:

«فصل الشتاء، يا سليمان، فرصتي في اقتناص بعض المسافرين الذين قد يعطل الشتاء سفرهم ببرده الشديد ولياليه الطويلة.

فصل الشتاء، يا سليمان، هو وقت عمل الخانات. فلا الصيف ولا الربيع يعطلان سفر المسافرين؛ لأن السفر فيهما ليلاً متعة، وقدرة الدواب على المشي هائلة؛ هذا عدا عن الليالي المقمرة التي تعد شهوة للمسير والسفر والمسامرة. الشتاء فرصتي يا أخي!.

لكنك ترى ما ألاقي من إحباطات وعثرات!!».

وكأن سليمان عطارة فتح باب الشكوى والتألم، حين قال له مهوناً عليه الأمر:

«يا رجل»!!.

فيندفع يعقوب في حديث مُر، ويرجو سليمان عطارة أن يفسره له، فيقول:

«حين جئت إلى هنا، لم أعرف كيف أصل إلى الجسر، يا سليمان، درت دورات عدة، وسلكت دروباً كثيرة. تعذبت أنا وبناتي وحماري كثيراً حتى وصلنا إلى الجسر. الأشواك أكلت ثيابنا، والدروب أكلت نعالنا وورمت أقدامنا.

ثم من أوصلنا إلى هنا؟ درب ترابي لم يبخل علينا بغباره كلما هبت الريح، وما أكثر هبوبها.

وحين مررنا بالقرى نبحتنا الكلاب وهرت علينا، بعضها أخذ ذيل الحمار بالأسنان عضاً، فسال دمه، وبعضها طارد البنات اللواتي فزعن، ولعنَّ الساعة التي جئنا بها إلى هنا. وكنتُ لا حيلة لي، أُصبّر البنات، وألحق بالحمار الذي ترك الدرب عشرات المرات وفرّ هارباً بحمله الثقيل من الكلاب المسعورة. لقد ظللتنا الكلاب مرات عديدة، وأبعدتنا عن الجسر، وقد كنا نقترب منه دائماً، ولم تتخلَّ الكلاب عن شراستها إلا بعد أن درنا حول القرية دورات عدة لكأنها ألفتنا، فما عادت تهاجمنا مكتفية بنباح ضعيف يكاد لا يلفت الانتباه. وحين مررنا بالقرية، ومن طرفها البعيد واجهنا رجل

طويل، محير، ومنعنا من التقدم، ثم أخلى لنا الدرب بعد أن أرعبنا. ومع وصولنا إلى الجسر، وجدنا أكثر الأشجار بلا ثمار، عارية حتى من أوراقها، وشجر الزيتون لم يبق على زيتونه، واستقبلتنا الأشواك بلونها الأصفر، وأطوالها وأحجامها المختلفة، وبدت الصخور بلا هيئات، بلا رونق. لم نجد أحداً في استقبالنا، يا سليمان، لا البشر، ولا الشجر، ولا المكان. أنا متشائم يا أخي، ومتعبٌ ساعدني أرجوك، أين صدرك»؟!.

ويأخذه سليمان عطارة إلى صدره، ويربت على ظهره مهدئاً مطمئناً، ويقول له مذكراً:

«ما بالك يا يعقوب، أراك ضعيفاً، منكسراً قبل أن تهب ريح الآخرين عليك. يا رجل لو قارنت نفسك وأنت في أول قدومك مع أول قدومي إلى هنا، لرأيت عجباً، فأنا لم أجد من يناصرني، ولا من يرد تحيتي، وها أنت ترى الآن حالي، وكيف تعبت حتى وصلت إلى راحتي هذه. لا تخف يا أخي فأنا لن أتخلى عنك. معك سليمان عطارة يا رجل. فكف عن هذا الأسى، أرجوك»!!.

وينشج يعقوب على صدره مغمغماً:

«ستكون نجاتي وقاربي يا سليمان»!.

فيجيبه سليمان عطارة دون تردد:

«أجل يا أخي، أجل.

فحين يمتزج دمنا معاً سأكون لك وتكون لي»!!.

ويحني يعقوب رأسه كأنه في مأتم، ويحك أذنيه حكاً عنيفاً، وقد تذكر بأنه سيعطي ابنته جوديت لسليمان عطارة، ولحظتئذٍ سيجعل من مرافقتها أنشوطة لعنق سليمان عطارة، سيقوده منها إلى حيثما يشاء وبوساطتها سيسحب الكثير من ذهبه الأحمر. وحين تفصل بينهما خطوة واحدة، سليمان عطارة في المقدمة، ويعقوب يتعقبه يمضي يعقوب في حديث هو أقرب إلى الحلم منه إلى الحقيقة، كأنه يطرد سليمان عطارة أمامه، مورطاً إياه بعيبوبة الاستماع، يقول:

وسأقنع جوديت بأن تكون لها زوجاً.

لا بدّ أنها ستقتنع بك، ستقدر موقفنا جيداً، فزواجكما سيشدني إليك، ويشدّك إليّ!!.

البنت رضية، لن تجد، هنا، من هو أحسن منك. بل إن لم تقتنع جوديت بك، ستقتنع ميمونة. ميمونة ذات عقل راجح، لا أحسّ بأي فرق بينها وبين جوديت. أكاد أخلط بينهما؛ لهما قوام واحد، وهيئة واحدة، وحضور واحد.

حتى دينه تقدرك يا سليمان: إن رفضت أختاها الزواج منك، ستقبل دينة.

لا بدّ أن واحدة منهن ستقبل بك، يا سليمان، عن طيب خاطر، بالرضا التام، بل ربما رضين جميعاً بك!! من يكره النعمة والصدارة؟! لا أحد سوى المجنون. وبناتي عاقلات، وسترى ذلك بنفسك يا سليمان!! لعلك تتذكر كيف استقبلتك صباح الأمس، بوجوه لامعة، ضاحكة.

بناتي وأعرفهن، هن فرجي إن كربت الأيام أو قست!.

صحيح أن البنات متعلقات ببعضهن. إن مشت الواحدة منهن سارت الأخريان، أو إن دمعت عينا واحدتهن، بكت الأخريان بحرارة وسخاء؛ هذا صحيح، لكن التضحية لا بدّ منها حين تتطلب الظروف ذلك.

لا شك أن جوديت ستقدر الموقف. ستفتح باب الزواج لأختيها. ستفتح باب الدنيا الجديدة لأختيها، سيطير عقلها، يا سليمان، إن حدثتها عن أحوالك، وأملاك، والدلال الذي ستجده عندك. جوديت تعذبت كثيراً حتى ربت أختها دينة بعد موت أمها. أرجوك يا أخي اجعل لجوديت حظوة في قلبك، أرجوك!!.

أرجو أن تقول لي ولها إن ذراعيك ليست للعراك أو القسوة، بل هما للضم الحنون فقط، وإن أصابعك المشرّبة بالزيت خلقت من أجل عد الأموال في كيسك وكيسها، أو قل في كيسها فقط لأن كيسك قد امتلأ وإن أصابعك الطرية خلقت من أجل مداعبتها؛ ومناوشة شفتها السفلى التي يكاد دمها يفتر جمالاً، وإن قدميك تختزنان الخطا من أجل فتح دروب جديدة لتكون هي وأهلها أكثر سعادة ورغداً!!.

لكن إن رفضت جوديت؟!.

لا كيف لها أن ترفض! أقول: إن رفضت؟! فميمونة لن ترفض. ستقدر ميمونة أن أختها الكبرى تركت لها الدرب فرصةً لتبني حياتها، وحياة أهلها لأن جوديت

ستظل تقربي مُساعدتي. أجل ميمونة ستحل المشكلة إن رفضت جوديت!!.

لكن قد أُلام إن زوجت ميمونة الوسطى، وتركت جوديت الأكبر منها من دون زواج!! لكن ليولي اللوم وأصحابه، سأحفر للوم قبراً وأدفنه، فللظروف اختياراتها!.

ويصمت يعقوب! وينحدر خلف سليمان عطارة نحو بيته وقد اقتربا كثيراً، يبدوان وهما في تتابعهما، الخطوة وراء الخطوة، وكأنهما مربوطان معاً، ومع إطلالتهما على البيت ينبحهما الجرو الصغير نباحاً عالياً متواصلاً، وعند رؤيتهما للبنات، وهن في أعمالهن، يصرخ يعقوب وهو يشدّ كتف سليمان عطارة:

«انظر يا سليمان، إنهن يبنين الحياة!!.

واحدة تطبخ، وأخرى تشد الخيش، وثالثة تكنس، ما أجمل الحياة معهن وهن مجتمعات، لكن مع ذلك سأُضحي بهذه البهجة وأعطيك واحدة منهن زوجة. سأقسم السعادة بيني وبينك يا سليمان»!!.

ويفرح سليمان عطارة، وهو يسمع كلام يعقوب المرغّب بإحدى بناته، وهو يرى أيضاً ذلك النضار الأنثوي الذي يسبقه بالتحية والسلام، والابتسام الجميل، وقد تغلّف بستائر شفيفة من حمرة الخجل، واللطف، والصفاء البادي.

تدنو بنات يعقوب مرحبات بسليمان عطارة وأبيهن، وهن ضاجات بالحركة والتوثب، زاهيات بالنظافة والألق بعد حمام النهر الطويل

الدافيء؛ بدون لهما بوجوه لم تغادرها بهجة الصباح بعد، وقد علت الشمس، وجازت منتصف النهار.

ولم يستغربن النظرات الفاحصة المتأملة التي أطالها سليمان عطارة وهو ينظر إلى وجه جوديت وصدرها، فهي مع أبيها أول من تعرف إليه، وهي الكبيرة، والأكثر ترحيباً به. غير أن جوديت لم تفطن، كما لم يخطر ببال أختيها إلى أن سليمان عطارة يريدها زوجة، لذلك فهو يطيل النظر إليها. وحده يعقوب كان الأكثر فرحاً، وهو يرى اندفاعة سليمان عطارة نحو جوديت. وجوديت بكل هدوئها ترحب به، وتدعوه إلى الجلوس في صدر البيت فقد أصابه وأباها التعب، فيلاطفها سليمان عطارة بقوله:

«أنت، يا جوديت، من سيزيل تعبنا»!!.

فتهزُّ جوديت رأسها بالموافقة باسمة، وقد فرحت بكلامه، ولطفه الموجه إليها قصداً، ويفرح يعقوب بتطور الحوار إلى هذا الحد الرائع، وتتجرأ دينة، وتقول لسليمان عطارة، وهي تقترب منه أكثر:

«وأنا وميمونة أيضاً، سنزيل التعب»!!.

فيطرب سليمان عطارة، وينتشي يعقوب، ويصفق بيديه سعادة ويلتفت إلى سليمان عطارة، ويهمس له مربّتاً على فخذه:

«أما قلت لك، بناتي وأعرفهن»!!.

وعندما تجاور يعقوب وسليمان عطارة في مجلسهما وبدأ الحديث همساً، انسحبت البنات من أمامهما، فعادت جوديت إلى طبخها، تتبعها ميمونة. بينما مضت دينة إلى كنس ما تبقى من أوراق الشجر المتساقطة دوماً والمتطايرة من مكان إلى آخر، وبعض الأشواك والعيدان والأتربة، وحين تتباطؤ دينة في عملها، محاولة منها في لفت انتباه سليمان عطارة

إلى شطارتها واستمرارها في العمل، تنهرها ميمونة، وتدعوها إلى الانتهاء، وترك الكنس إلى وقت آخر، لأن هذا غير لائق أمام ضيف أبيها!!.

ولحظة اجتمعن معاً قرب الطعام، وقد راحت جوديت توزعه في طبقتين كبيرتين، تحدثن عن قول أبيهن الغامض لسليمان عطارة: «أما قلت لك، بناتي وأعرفهن»!! حاولن أن يفسرن معنى كلامه فعجزن مرات عديدة، لكنهن أيقنّ أن أباهن كان يحدث سليمان عطارة عنهن، وانصرفن معاً إلى تقديم الطعام، ومجاملة سليمان عطارة كيفما تحركن أو تكلمن، ولكم تمنت كل واحدة منهن لو كان بمقدورها، ودون أن تؤذي مشاعر سليمان عطارة، لو تمسح لعابه السائل من زاوية فمه اليمنى إلى أسفل ذقنه، والذي يبدو كمجرى ماء صغير، تتلامع صفحته وسط شعيرات ذقنه النابتة فوق وجهه الأحمر الذي بدا كأنه دعك دعكاً شديداً للتو. ويبدو سليمان عطارة لهن كأنه لا يشعر بمجرى لعابه إلا حين يسيل متساقطاً من أسفل ذقنه نقاطاً، فيبلل صدره المكشوف الخالي من الشعر، وأطراف قميصه. بل لكم تمنت كل واحدة منهن لو كان بمقدورها أن توقف رجفان يديه كلما حركهما، أو كلما تناول بهما شيئاً. كانت الأشياء التي يمسكها بيديه تفضح حركة يديه الراجفة. وكانت دينة قربه تناوله طاسة الماء الذي ما انفك يشرب منها طوال وقت جلوسه.

وكلما اختلت ميمونة وجوديت في طرف البيت أو خارجه تمنت الأختان لو كان بمقدورهما أن تدلكا عنق سليمان عطارة المطوّى، فلربما بعد دعكة او اثنتين عاد إلى ما كان عليه من الجمال والحيوية. وتقول جوديت بأسى:

«لكن لا دعكة ولا مدحلة ولا أي شيء آخر يستطيع

إزالة طيات عنقه لأنها من فعل الزمن»!.

وبينما هما في الخارج تعالى ضحك دينا عند أبيها وسليمان عطارة، فقد اتفقوا أن يقوم يعقوب بتقصير شعر سليمان عطارة، وأن يحلق له لحيته. ومع علو الضحك، تدخل جوديت وميمونة لتشاهدا ما يحدث، فتتلقاهما دينة وهي تقول:

«سنحلق له شعره ولحيته»!!.

فتفرح أختاها. ولم يدرك سليمان عطارة قسوة كلمات دينة، وكأنه كائن لا يعني لهم شيئاً. لقد ضيّع الصخب، وتداخل الأصوات معنى قول البنت وقسوته. ولم تمضِ سوى لحظات فقط حتى صخبت بنات يعقوب بتحضير أدوات الحلاقة والماء لأبيهن الذي خرج وسليمان عطارة إلى القرب من بيت الجرو الصغير، وهناك، على صخرة واطئة جلس سليمان عطارة مسلّماً رأسه ليعقوب الذي راح يدور حوله ويداه مشغولتان بتقصير شعره وتشذيبه، وبناته قربه يمسحن أدوات الحلاقة التي يحتاج إليها أبوهن في عمله قطعةً قطعةً. كانت جوديت تقف مواجهة أمام سليمان عطارة بطولها الفارع، حاملةً بين يديها المرآة الكبيرة التي تعكس صورة سليمان عطارة. لقد حاولت دينة مرات عدة أن تحمل هي المرآة وتقف مواجهة لسليمان عطارة غير أن يعقوب أبعدها لأن المرآة كانت تهتز بين يديها كثيراً، وجعلها تقف قرب حقيبة أدوات الحلاقة لتناوله بعضاً منها كلما أراد واحدة منها. تلك المواجهة الطويلة نسبياً ما بين جوديت وسليمان عطارة جعلت جوديت تزداد نفوراً منه، فقد بدا لها بمنظر لا يسرها قط، وبدا أبوها أكثر فتوة منه، فهو رجل التهمه الدهر وشبع منه. كما جعلت تلك المواجهة، سليمان عطارة يزداد إعجاباً بها، وقد تجلت له نضارة وجهها الشهي، ونهدة صدرها الراعشة كلما تحركت أو تمايلت ناقلة ثقل جسدها من قدم إلى أخرى. كما لا...

جمال أصابعها، وبياضها، وهي تقبض على طرفي المرآة التي حجبت نصف بطنها؛ وإلى اليمين من جلسة سليمان عطارة راحت ميمونة توقد ناراً كما طلب منها أبوها!! بينما أخذت دينة تغني له أغنية أضحكتهم جميعاً لأن الأغنية تُغنى للأطفال عند طهورهم لا عند قص الشعر. وعلى مبعدة منهم كان الحمار يلتقط طعامه غير عابيء بكل ما يدور حوله. أما الجرو فقد أقعى على بطنه، وراح يبصبص، ويرامق ما يحدث قربه بعد أن نبح كثيراً وهاج، وقد راعه أن حشداً من البشر يحط بالقرب من بيته.

كان سليمان عطارة، وقبل أن يجلس فوق الصخرة مسلماً رأسه ليعقوب، يسأله:

«كيف ستحلق لي شعري يا يعقوب»؟!.

فيرد يعقوب:

«لن أجعلها حلاقة مستديرة يا سليمان، ولن أحفي عارضيك»!!.

ويضيف يعقوب، وهو يسمع همهمة سليمان عطارة الموافقة:

«لكن إن كنت تريد أن تصبح رجل دين، فلن أرفع شعرة واحدة من شعر رأسك، ولن أزيل شيئاً عن عارضيك»!!.

ويضحك سليمان عطارة، وهو يقول له:

«لا يا يعقوب، أنا رجل دنيوي،

افعل ما تراه مناسباً»!!.

وما أن ينتهي يعقوب من حلاقة شعر رأس سليمان عطارة، حتى يجمع شعره المقصوص، ويحمله إلى النار ويحرقه فيها، وهو يتمتم،

ويرجو بنظره المرفوع إلى السماء أن يوفق في عمله في الأيام القادمة. ويستغرب سليمان عطارة ما يفعله فيسأله:

«ولماذا أحرقت الشعر يا يعقوب»؟!.

فيقول يعقوب:

«إنها المباركة يا سليمان»!.

ويمازحه سليمان عطارة:

«ظننتك ستزرع شعري، ثم تسقيه فينبت من جديد، وهكذا يدور دورةً جديدة، فتدور أنت حولي دورات جديدة وتملؤ كيسك»!!.

وحين يتباطؤ يعقوب في الإجابة. تقول جوديت باندفاع:

«الماء في مهنة أبي يميت لا يحيي»!!.

ويؤكد يعقوب قولها:

«أجل يا سليمان، فالميت يغسل بالماء ليذهب ذهابه الأخير لا ليعود من جديد.

إننا نجعل من شعرك، يا سليمان، وقيدة للرب، ليبارك لنا فيك»!.

ويهزُّ سليمان عطارة رأسه معجباً بالفكرة، ويهمُّ أن يقول شيئاً، إلا أن ميمونة صرخت:

«دعونا الآن من الموت والوقيدة، وهيا نحتفل ببداية عمل أبي»!!.

فيوافقها الجميع على رأيها. يتقدم يعقوب، وقد أودع أدواته الحلاقة

في حقيبته السوداء، ويحلُّ كيسه الأسود المعلق برقبته، وينظر إلى وجه سليمان عطارة مباشرة، فتمدّ جوديت يدها نحو سليمان عطارة مشيرة بحركة من أصابعها أن يضع شيئاً من نقوده في كيس أبيها. فيتململ سليمان عطارة، ويحار كيف يخرج نفسه من هذه الورطة، ورطة الدفع التي لم تخطر بباله. وتساءل أينفذ ما أوحت به جوديت أم يتجاهلها؟! هل ينفذ من أجل أبيها وقد بدأ عمله أم من أجلها هي؟! ويحس بالحصار المضروب حوله، والانتظار المربك الذي وضع فيه. لحظات من التململ والحيرة أخذته، غير أنه انقاد أخيراً لإشارات جوديت المتلاحقة ولغمز عينيها الملحّ، فتقدم من يعقوب ببطء شديد، وأخرج كيسه الممتلىء من بين ثيابه، وحل رباطه، وقد أخفاه بيديه الراجفتين، ثم تناول منه قطعة نقود واحدة، وأسقطها بصعوبة بالغة في كيس يعقوب الذي أغمض عينيه، وثبت كأنه شجرة أو جدار. ولم يتحرك إلا عندما أشارت جوديت لسليمان عطارة بأن يضع قطعة نقود ثانية في كيس والدها من أجل أن يسمعوا الرنين!! ولكي يفكَّ أبوها إغماضته، فيستجيب سليمان عطارة لها كأنه منوّم. يتناول قطعة نقود ثانية من كيسه الذي سارع وخبّأه في المرة الأولى حالما رمى قطعة النقد الأولى، ورمى القطعة الثانية فوق القطعة الأولى تماماً، فصدر الرنين المكتوم الذي أعاد النور إلى عيني يعقوب، والفرح والنشوة إلى بناته!!.

بدوا كأنهم يقيمون طقساً كهنوتياً اتفقوا جميعاً عليه من قبل فمثّلوه بشكل متقن من دون عثرات أو أخطاء. ولم تمضِ سوى دقائق قليلة فقط حتى أعدت بنات يعقوب شراباً وردياً من توت العليق الذي جمعنه في الصباح، ونقعنه تحت حرارة الشمس حين كنّ قرب الجسر، وبعد أن انتهين من حمامهن الطويل، فراح الجميع يشربون بتلذّذ وفرح باديين

وسط حديث وصخب وضحك متواصل. ولم يبدد ذلك الصفاء سوى قول يعقوب:

«إنك لتبدو عريساً بحق يا سليمان.

فاختر، يا أخي، واحدة من بناتي زوجة لك، ولتكن جوديت حبيبتي»!!.

قول كالفاجعة، كمرارة الحلق، كالغصة المميتة؛ قول جعل أعين بنات يعقوب تُشرع دهشة كنوافذ بيت تطل لأول مرة على الدنيا، فلم يتكلمن كأن صاعقة انقضت عليهن، فتجمدن!! قول صريح، واضح، ومفاجىء، جعل سليمان عطارة يحار ماذا يقول، وكيف يتصرف بعدما عجزت همهماته التي أطلقها أن تصير كلاماً، وأسقط في يده حين نفرت بنات يعقوب من قربه نفرة واحدة، وهن يخفين وجوههن بأكفهن، وقد انحنت أجسادهن إلى الأمام، وكأنهم مقبلات على إفراغ ما في معدهن، واندلق شراب التوت في حجر سليمان عطارة، وقد فغر فمه، وفتح عينيه على وسعهما، بعدما بدت له حقيقته مكشوفة بأنه عجوز من الصعب أن تقبل به واحدة من بنات يعقوب اللواتي يكاد حسنهن ينطق، فيتمتم متلمساً يعقوب قربه وكأن العمى أصابه:

«أنجدني، يا أخي يعقوب، أنجدني فقد باتت قرعتي»!!.

وكأن يعقوب كان ينتظر هذا القول منه، فهبَّ واقفاً، ولحق ببناته اللواتي ارتمين داخل الكوخ ملاصقة، وقد لفهن البكاء والأسى، والارتعاش الطويل، ولم يلتفتن إلى حركة يعقوب قربهن، ولا إلى صوته الذي علا بالسؤال عن الذي حدث!! ورحن ينتحبن بصوت واحد نحيباً مراً، موجعاً، وكأن عزيزاً لهن أفلت روحه في هذه اللحظات الحزينة.

ومع تكرار يعقوب لسؤاله:

«ماذا حدث يا بناتي»؟!.

ومع هزه الشديد لهن واحدة واحدة، ومحاولته استرضائهن وقد أفزعه مسيل الدمع الغزير الذي بلل وجوههن واختلط بماء أنوفهن، علا صوت بكائهن أكثر، ولم يجبن بكلمة واحدة، بل لم يلتفتن إليه!! ومع امتداد الوقت بكاء، وأسئلة، واستعطافاً، ورجاء، لم يخرج سليمان عطارة يعقوب ليسأله سؤال المتجاهل: «ماذا هذا البكاء يا يعقوب»؟! وقد كانت بناته قبل قليل فقط في غاية الانشراح والمرح؟! ظناً منه أن خلوة الأب مع بناته أمر مقدس يجب ألا يفسد هواءه مخلوقٌ؛ كائناً من كان. كما أن يعقوب لم يأخذ أية إجابة عن أسئلته المتكررة، ونداءاته الكثيرة:

«بناتي، بناتي»؟!.

ولم تهدأ بنات يعقوب قط إلا عندما شرع أبوهن ببكاء طويل، مخطوط؛ نشط، بكاء له حزنه، وألمه، ورقته، وكأنه كان قد أعدّه منذ قرن من الزمن، وقد جاءت لحظة إخراجه الآن. ذلك البكاء المصحوب بالأنين، والكلمات الحزينة النادبة للحظ المائل، والأيام العبوسة، وقسوة بناته وعدم مساعدته لينهض ويعلو في نظر الجميع؛ كل ذلك جعل سليمان عطارة يبتسم ابتسامة الرضا بدلاً من أن يعتكر وجهه أو يكفهر حزناً للألم الذي يتدلى قربه من يعقوب وبناته فابتسم، وتمتم محدّثاً نفسه بصوت خفيض كأنه يطمئنها:

«لقد بدأ يعقوب عمله حقاً»!!.

وعلى الرغم من البكاء الحزين الذي يدمي القلب، الذي ولّده يعقوب أمام بناته، لم تلتفت أي واحدة منهن لمواساته، أو سؤاله عن سبب بكائه. وكان كل ما فعلنه أنهن هدأن قليلاً، ورحن يختلسن النظر إليه بين لحظة وأخرى، ذلك لأنهن اعتدن بكاءه كلما أراد تحقيق غاية في

نفسه، وحين اختلط بكاء يعقوب مع بكاء بناته، وازداد حزنه وندبه للأيام التي تدير له ظهرها دائماً، ترك سليمان عطارة مكانه وقام إليهم، وراح يواسيهم بالكلام اللطيف والملامسة الرقيقة. غير أن ما فعله لم يجد نفعاً، فظلّ يعقوب متكوّراً على نفسه يبكي ويرتعش، وهو يشرب دموعه وماء أنفه أحياناً أو وهو يمسحهما أحياناً أخرى، وقد احمر وجهه وغلظت أعضاؤه وتورّمت. كما ظلّت بناته متلاصقات في هجعة واحدة لا يتكلمن، ولا ينظرن إليه، رؤوسهن مدلوقة على صدورهن، يأخذهن الاهتزاز مع امتداد التنهدات، وعلو صوت النشيج؛ بدون وكأنهن يوقدن مناحة هي أكبر مما يحدث، وأعظم من أن تنطفيء بكلمة أو مواساة، أو ملامسة!!..

وحار سليمان عطارة ماذا يفعل!! تكلم كثيراً، وواسى كثيراً، واستنجد بيعقوب كثيراً، ولامس بناته كثيراً، وحاول أن يمسح دموعهن برفق، فمنعنه بقسوة لم يتوقعها، وقد بدا لهن رجفان أصابعه كمخلوق يريد القبض على أرواحهن. وصددن عنه، وانكمش يعقوب في بكائه، ورضي به، وعامت رؤية العيون الباكية!! ولم يفطن أحد لنباح الجرو في الخارج، ولا لعصف الرياح التي اشتدت ونشطت في مرجحة أغصان الأشجار قربهم، ولم يعد بادياً ومسموعاً إلا البكاء، وقد أخذ حدود الرتابة في النبرة، والعلو، والامتداد عند يعقوب وبناته، الأمر الذي جعل سليمان عطارة يوقن أن ما من فائدةفي الانتظار ليأخذ نتيجة مراده، وأن ما من شيء يعيد يعقوب وبناته إلى ما كانوا عليه من انشراح وحضور وفرح، لذلك استدار خارجاً، ميمماً وجهه نحو أملاكه في الشماصنة، مخلّفاً وراءه قوله الذي ولّد بكاءً جديداً، وحزناً جديداً ليعقوب وبناته:

«قلبي معكم، يا أخي يعقوب»!!.

ومشى، وهو يديم الالتفات إلى الوراء، إلى حيث ترك يعقوب وبناته

كومة من الأسى، لا يجمعهم إلا البكاء، والرعش الحزين، والكلام المضمر الكثير، والموجع أيضاً!!.

حاشية سابعة:

«تماماً،

يعاد الآن مشهد إقناع (نانا) بالزواج من ذلك الرجل الغني القصير، السمين، ذي العينين الجاحظتين، والوجه الطفولي المنتفخ كالقبعة. الفرق في التفاصيل فقط، وفي كثرة عدد الباكين، لقد بكت (نانا) أياماً عدة، وسهرت ليالي طويلة مع أحزانها التي لم توار، وانقادت لرغبة أبيها، وتزوجت ذلك السيد من أجل المستقبل، والحياة الجديدة، والمال، ونظافة الثوب، واللقمة، والسعادة لكن النتيجة كانت المال الكثير ليعقوب، والحظوة، والسعادة العمياء التي تبحث عنها (نانا) في المستودعات والمذاود قرب الخيول والبغال والأبقار..

وبصحبة أيوب، الذي ذهبت به شهوته إلى الأبد».

تفصيل صغير:

وآنذاك، أيام (نانا) خففت أمها من أحزانها، وقالت لها إن السيد دائم السفر، ولها أن تبني حياتها وسعادتها على هواها وبعيداً عنه، واليوم من يخفف عن جوديت أحزانها، من يقول لها إن سليمان عطارة رجل خرافة، موجود وغير موجود، أيامه معدودة، وأن سعادتها ستكون دائمة حين تبنيها على هواها، وبعيداً عنه أيضاً!!.

تذييل أول:

«ترى من يلعب دور (أيوب) في حياة جوديت، وهنا لا توجد مستودعات وعنابر، وإنما توجد ينابيع، وأشجار كثيفة، وصخور، وبيت مغلق عالي الجدران لرجل اسمه سليمان عطارة»!!.

تذييل آخر:

«لكأنما كان صوت بكاء يعقوب وبناته عالياً، أو أن الريح الناشطة ساعدت على انتشاره، فقد مضى يعقوب خلف سليمان عطارة طالباً رضاه، لكن سليمان غاب وابتعد، ويعقوب يحثُّ الخطا وراءه، غير أنه كان يسير في الاتجاه المعاكس للدرب الذي مضى فيه سليمان عطارة. ذلك انتزاح الطويل، والندب العالي جعلا الخطا تقود رحمون إلى بيت يعقوب، كان كلما يقترب أكثر، يشعر بأن جنازة على وشك الخروج من بيت الرجل، وحين وصل إلى البيت، رأى بنات يعقوب في كومة واحدة والبكاء يلفهن كالسياج، دهش وقد رآهن يبكين بتناوب عجيب. رأى الوجوه المحمرة المغسولة بالدمع، والتي صارت مثل حب الرمان، ورأى الارتعاش المتواصل الذي يرجّ الأجساد الطرية. فنادى بصوت خفيف كالهمس ليلتفتن إليه، لكن ما من جدوى. اقترب أكثر وراح يهزّهن وهو يهمهم ويتمتم، فدهشن معاً، وقد رأينه وسط البيت، واقفاً يحدق إلى الأسى والألم والحزن الذي يعصرنه في جرار لا تُرى! وبادرن على عجل

يمسح دموعهن، وتسييل النظرات الكسيرة الحالمة برجل مثله، وحين جثا قربهن ارتمين في صدره، وقد بان بيض أرجلهن، ولمعت صدورهن، وزادت فوضى شعرهن جمال الوجوه البليلة بالدمع. ارتمين في صدره بعدما أيقنّ أن يعقوب بعيد، وأن عودته لن تكون قبل مضي وقت طويل، وقد أيقن حقيقة بأن خيط حياة أبيهن مربوط بكف سليمان عطارة. ورحن يشرحن لرحمون سبب البكاء، والحزن!!.

ودونما خوف، أو وجل، أو انتظار، راح رحمون يمسح دموعهن بأطراف أصابعه، وهو يتمتم ويهمهم بالكلام الحلو، واعداً إياهن بأنه سيقف في وجه يعقوب مانعاً إياه من تنفيذ رغبته!! ولم يمضِ سوى وقت قليل حتى صفا جو البنات بحضور رحمون، الذي شرب من شراب التوت، والذي لم يختل بأي واحدة منهن ولو للحظات فقط، فقد واعدنه بأن يمنحنه ما يريد في وقت آخر، لأن الحزن أطبق على صدورهن، فلمس على صفحات خدودهن، واستشعر لدونة صدورهن، ومضى وقد سرّه أن البكاء غاب.. وانطفأ تماماً»!!.

الكتاب الثامن

«الموافقة»

آن عاد يعقوب، وبعد رحيل رحمون، أحاطت به بناته وقد عدن إلى طقس البكاء، والحزن مرة ثانية. تقدمت جوديت منه أكثر، وهزّته برجاء، وهي تقول له، وقد تهدّج صوتها، وتخافت:

«ما الذي فعلته يا أبي حتى تطردني هكذا؟! وما الذي سيقدمه سليمان عطارة إليك مقابلي؟!».

ولا يجيب يعقوب. يظلُّ ينظر إليها. يركز نظره في وجهها تماماً دون أن تترامش أجفانه، وقد تلامع وجهه من آثار الدموع، واحمر من كثرة الدعك والمسح، وتناثر شعره على جانبي رأسه كأنه أجمة من الشوك. وظل يعقوب على صمته أيضاً بعدما تقدمت منه ميمونة وأرخت راحة يدها في صدره، وقرب عنقه، وسألته برجاء وتضرع، ويدها تجوس داخل قميصه المبتل:

«دع جوديت معنا يا أبي، لم تشبع منها بعد»!!.

وكأنّ هذا القول لا يعنيه، يظلُّ في ثباته جامداً، صامتاً على الرغم من بكاء دينة، وملاصقة خدها بخده. وتقبيلها له في وجهه وعنقه وأطراف شعره، ويعقوب جامد، عيناه مفتوحتان محمرتان، ووجهه مبقع بالحمرة، وشفتاه تتراجفان في مدٍّ وانقباض واضحين، وجسد ساكن فوق رجلين مطويتين بتوازٍ كأنه يصلي، ولم يتكلم يعقوب إلا عندما أعادت

بناته مخاوفهن، وقلقهن، ورجاءاتهن على مسمعه مرات ومرات. قال لهن، وكأن الحياة عادت إليه فجأة:

«سليمان، يا بناتي، هو الدنيا!! من دونه لا نستطيع أن نعيش هنا. إن أعطيناه جوديت وهب الحياة لنا، والسعادة»!

وحين تتعاون بناته على إقناعه بأنهن سيساعدنه على كل صغيرة وكبيرة، وأنهن سيبنين له الحياة التي يرضى عنها من دون سليمان عطارة يستشيط يعقوب غضباً ويفور، وهو يفسر، ويشرح:

«أنتن لا تعرفن شيئاً!

الدنيا مال، والمال عند سليمان.

ومن دون مال لا نستطيع أن نمشي خطوة واحدة»!!

ويلتفتُ إلى جوديت، ويقول لها:

«لقد رأيت يا جوديت، كم تعذبنا وكم رجونا واستعطفنا أهالي الشماصنة حتى حصلنا على القليل القليل من الطعام، وكم تذللت وانحنيت لهم»!!.

ويصمت ليأخذ نَفَساً طويلاً، وليواصل كلامه، وقد رأى صمت ابنتيه ميمونة ودينة، وهزات رأس جوديت الموافقة على كلامه، ويضيف:

«ما لدى سليمان غالٍ يا جوديت!.

والغالي لا يأتي إلا بالغالي،

أنتِ إن تزوجت سليمان،

فتحت لنا باب الحياة المغلق بوجوهنا منذ زمن بعيد»!!

وتذكّره جوديت بما كان يقوله لهن، وهم في طريقهم إلى الجسر:

«قلت لنا يا أبي، إننا سنتعب في البداية.

ونحن ما زلنا في البداية، ولم نتعب بعد، فلماذا لا نتعب معاً قبل أن ترمي بي في أحضان هذا العجوز الميت»؟!.

وكمن يشعر بأن هذا القول يساعده على جوديت، يقول يعقوب بحماسة:

«أحسنت يا جوديت، يا حبيبتي.

نعم لا بدّ من التعب، وهل تسمي زواجك من سليمان عطارة إلا التعب. البدايات وعرة، يا ابنتي، ولا بد من التعب. زواجك منه يعني أنني سأمتطي ظهره إلى الأبد، وأننا سننعم بكل ما لديه من مال وأملاك»!!.

ويضيف بحرقة، وقد شرب وارتوى، حين تقول ميمونة له:

«لكنه عاجز يا أبي»!!

«أجل يا ميمونة، هذا هو المطلوب، فعمره انتهى، وهو يعرف هذا، وأنا لست ظالماً ولا قاسياً لكي أُبقي جوديت معه العمر كله. فجوديت شباب، ومصيرها سيكون إلى شاب مثلها تعيش معه ليخلفا لنا الأولاد الذين يملؤون البيت، أنا لست قاسياً يا ابنتي، أنا أب»!!.

وتبكي جوديت، وتتنهد، وأختاها حولها تواسيانها، وتقول له، ونظرها ساقط في حضنها:

«لكن يا أبي، وإن رزقت منه بولد»!!.

فيجيبها يعقوب، وقد أشرق وجهه وتوهج، وكأن جوديت وافقت

على الزواج من سليمان عطارة، فما سؤالها هذا إلا محاولة للدخول في التفصيلات الصغيرة التي هي في حكم الأمور المقضية بعد نقاش يطول أو يقصر. يقول لها بفرح:

«إن رزقت منه بولد يا ابنتي، سيكون بذرة شيخوخته، وعاطفته التي شكّلها الرب على هيئة ولد. عندما تزرقين بولد منه يا ابنتي، ستربطين سليمان إلى قدميك طوال عمره، إن مشيت مشى، وإن وقفتِ وقف»!!.

ويجرض بريقه مرات متعددة، ويعود ليضيف، ولعابه يتطاير رذاذاً:

«كيفما فكرنا بأمر سليمان وزواجك منه، يا ابنتي، سيكون الربح إلى جانبنا، فالولد الذي يأته منه لنا، لا له»!!.

وهكذا يظلُّ الحوار يدور بين يعقوب وبناته وقتاً طويلاً من الزمن، وهو يرغّب بسليمان عطارة ويذلل العقبات، وهن ينثرن المخاوف، والأسى، ولم يتقطع الحوار إلا عندما طلبت بناته منه أن يتركهن قليلاً من الوقت ليتحدثن معاً، ويصلن إلى رأي مشترك. لحظتئذٍ، وبفرح بادٍ، وبرشاقة ملحوظة تخفي عرجه، تركهن يعقوب في هجعتهن، ومضى إلى خارج الكوخ، إلى حيث هو حماره متفقداً طعامه. وحين يجده قد قارب على النفاد، يسعى إلى جمع كمية من الأعشاب الجافة، ويرميها قرب الحمار، ثم يزيد من طول الحبل الذي يربط به الحمار ليصل إلى أعشاب أخرى!.

وعلى مقربة من الحمار، وفي المكان الذي ذبح فوقه حماره الأول، ينطوي يعقوب على نفسه، ويذهب في تمتمات، وهمهمات، وغمغمات بأصوات لا تبين، ولا تصير كلاماً مفهوماً.

ولم يطل في مكثه كثيراً، فينهض، ويعاين كمية الطعام التي رمبت

للجرو بعد الغداء. فيجد أن الجرو لم يلتهمها كلاهما فينشرح صدره، وتنفرج أسارير وجهه، فيهزُّ رأسه للجرو الذي راح يبصبص بانتباه ملحوظ. ويعود أدراجه إلى بناته. يمدّ الخطا، وقد رآهن مجتمعات في وقفة واحدة أمام الكوخ، فيتقدم نحوهن، وعندما يصل إليهن تخبره دينة بأن جوديت وافقت على الزواج من سليمان عطارة، فيفرح، وكأنه لم يكن يتوقع ذلك ثم يرتعش، ويضطرب، ويفقد توازنه، ويرتمي على الأرض، قربهن تماماً، فتنطوي بناته عليه، وقد شرع يقبّلهن على نحو أدهشهن، ثم ومن دون كلمة، تراخى يعقوب وسط بناته كمن غاب عن الوعي، أو كمن فقد القدرة على استنشاق الهواء فجأة، ولم يكن يؤكد لهن أنه حي سوى صوته الذي يخرج زفرات، ومقاطع غير مكتملة، وأحرفاً أولى من اسم جوديت.

وحين فقد النطق نهائياً، أعولت بناته، وصرخن، واندفعت جوديت إلى جرة الماء، وأخذت تغرف منها، وتصبّ الماء فوق رأسه مباشرة، وميسونة ودينة تدعكان له صدره، وتشدان أنفه على نحو صاخب وضاج. وتتبادل البنات النظرات المستغربة، ويعقوب ممدد على بطنه دونما حركة وقد ابتلّ تماماً. ولم ينتبه من غيبوبته إلا عندما انكسرت جرة الماء بينما كانت جوديت تخرج من قاعها ما تبقى فيها من ماء. وعى يعقوب، وفك انغلاق وجهه، وانغماضة عينيه، ونطق كلمة واحدة هي سؤال يعلو في غير أوانه:

«انكسرت»!!.

وصوّب نظره نحو الجرة التي بدت بلا عنق.

وأجابته جوديت:

«المهم أنت يا أبي»!!.

وسوّرته النظرات الفاحصة، ليضيف هو بألم، وقد انكمشت تعابير

وجهه:

«انكسرت كلها»؟!

ولم ترد جوديت، واكتفت بالنظر إلى وجهي أختيها كمن تستنجد بهما، فصرخت ميمونة بحدة:

«لتذهب إلى الجحيم، لتكسر. استند إليّ، يا أبي، ودعك منها، لقد أرعبتنا»!!.

فيستوي يعقوب في جلسته، ونظره نافر إلى الجرة ويقول مهمهماً:

«طار عنقها ليس مهماً.

أنت عنقي يا جوديت، أنت تطوّلينه، وأنت تقصّرينه»!!.

ويترك يده في يدها!!.

بدا كالمحموم، يتراجف، وشفتاه لا تضبطان لعابه المتطاير. ولم تتوقع البنات نهوض أبيهن المفاجيء. وقد كان قبل لحظات ميتاً!!.

نهض، وسوى ثيابه عليه، وحشا قدميه في مداسه الواسع، ومضى من أمامهن، وهو يقول لهن:

«يجب ألا نبيت بلا ماء، يا بناتي.

سأذهب إلى سليمان، وأجلب جرة من عنده قبل أن يحل الظلام»!!.

مضى فوق خطاه اللحوحة غير عابيء بقول بناته:

«انتظر حتى تجف ثيابك يا أبي»!!.

مضى، وهو يعدهن ألا يتأخر عند سليمان عطارة، وأن يعود قبل غياب الشمس!!.

في أثناء غيابه، وبينما بنات يعقوب في حديث وحوار حول زواج جوديت من سليمان عطارة، ظهرت لهن من بين الأشجار القريبة من الكوخ والجسر معاً، العجوز التي لاقت جوديت ويعقوب وهما في ذهابهما وأوبتهما من القرية، والتي طلبت من يعقوب، بالأمس، أن يغطي دم الحمار الذي ضحى به قرباناً للرب، بالزيت المبارك الذي جلبه من المعصرة من عند شاهين. بدت العجوز بطولها الفارع، ونحولها الظاهر كشبح انكشفت عنه الدنيا في عز النهار، فانكمشت بنات يعقوب وتلاصقن معاً، وقد وقفن منتظرات وصولها إليهن. لكن حين توقفت العجوز، وقد زوغت البصر في وجوههن، اندفعن إليها باضطراب واضح، الواحدة منهن تطرد أختها نحوها. أخذن يدها وقبلنها، وهن يدعونها إلى الجلوس داخل الكوخ، والعجوز جامدة في وقفتها، وجهها عابس، وترامشها يكاد لا يلحظ. ومع صمت العجوز تتوازع بنات يعقوب الأدوار في دعوتها إلى دخول الكوخ ومجالستهن ليقمن بواجب الضيافة تجاه هذه الزيارة العزيزة. غير أن العجوز تظلُّ جامدة في وقفتها. وبعد مرامقات متعددة، مستغربة من البنات، وفاحصة من العجوز، تتكلم العجوز موجهة حديثها إلى جوديت:

«اسمعي يا جوديت يا بنتي، لا تفعلن ما عزمتن عليه، فالأب أبٌ. من يقتله يقتل. وزواجك من سليمان وهم ليس إلا. واتقي يا بنتي، فما من تعاسة أو ألم ستلاقين عنده»!!.

وعندما تتجاسر جوديت، وقد غرق وجهها بالدموع، على نطق كلمة:

«لكن...»!!.

تضيف العجوز:

«ستعيشين معه وقتاً قصيراً لا يطول يا بنتي»!!.

وترقُّ لهجة العجوز، حين تسل جوديت قولها:

«لكن الزواج من سليمان موت لا حياة يا سيدتي»!!

«أنت واهمة، يا ابنتي. وافقي، فما من شر أو عذاب ينتظرك عنده»!!.

وتستدير العجوز راحلةً، وهي توصيهن بحذر شديد:

«لا تفعلن ما اتفقتن عليه. فالأب أب يا بناتي»!!.

وتبتعد وسط الأشجار دون أن تلتفت إليهن، وهن في حيرة وذهول، ودهشة، وقد تسمرن في وقفة نصفها أسى، ونصفها الآخر اضطراب وذبول وخوف؛ وقبل أن تسأل البنات كيف عرفت العجوز ما عزمن عليه، طفقت جوديت تبكي بحرقة شديدة، فقد أُسقط في يدها وكأن قول العجوز قدرها الآتي، وأن زواجها من سليمان عطارة بات واقعاً لا محالة.

وبينما ميمونة ودينة تواسيانها، سألتها دينة:

«وهل ستنفذين كلام العجوز، يا جوديت»؟!.

فتهزُّ جوديت رأسها بالموافقة الراعشة المستسلمة، فتنفرط الأخوات كحب الرمان بالبكاء الطويل المؤسي.

لقد أيقنت الأخوات أن جوديت تبكي الآن حقيقة، وقد صار بكاؤها حزناً مؤلماً وحارقاً، وأنها، الآن فقط، وافقت على الزواج من سليمان عطارة، بعد أن أعطت أباها، قبل قليل، موافقة كاذبة!!.

كما أيقنتا، وقد استرسلت جوديت في تنهداتها وندب حظها، أنهما لا تقدمان إليها، في هذه اللحظة، سوى المواساة والعزاء وحسب!!.

حاشية ثامنة:

«لم يكن من مخرج لبنات يعقوب لقطع حبل البكاء والأسى إلا اتفاقهن على الخروج إلى الجسر، وملاقاة رحمون، فهبطن الدرب، وهن صامتات كأنهن يمشين في جنازة، وفجأة ومن بين الأشجار خرجت إليهن العجوز مرة ثانية، فحالت رؤيتها، والحديث إليها دون مواصلة السير نحو النهر. اقتربت العجوز من جوديت، وأخذت دموعها على رؤوس أصابعها، وقالت لها:

«هيا يا جوديت نحتفل بموافقتك على الزواج من سليمان عطارة. إنه في الطريق إلينا»!!.

وعدنا جميعاً، دونما حديث، أو حوار، كان الصمت يلفهن، ولا يسمع إلا صوت الضفادع وحفيف أثوابهن بالأشواك، وبعض نداءات الرعاة في البعيد البعيد، وصوت انحدار المياه هنا وهناك. وحين بدا لهن بيت يعقوب كانت العجوز في المقدمة، وجوديت وميمونة ودينة يحطن بها وقد تأخرن عنها بخطوات»!!.

تفصيل صغير:

«في المعصرة، وأمام شاهين طالت المعانقة ما بين يعقوب وسليمان عطارة. كانت معانقة تشير إلى موافقة جوديت على الزواج من سليمان عطارة، ويعقوب بنفسه يحملها إليه. ومن دون تفصيلات، أو مقدمات، رجا يعقوب سليمان عطارة أن يعود إلى بيته ليحتفلا بموافقة ابنته

جوديث، بعد أن يأخذ لهن جرة فارغة، بعدما انكسرت جرة الأمس، فيوافقه سليمان عطارة الذي نشطت حركته، وبدت حيويته، وبدل من أن يذهبا إلى بيت يعقوب ذهبا معاً إلى بيت سليمان عطارة، وهناك، في البيت الذي يبدو كالقلعة بحيطانه العالية، ونوافذه المرتفعة، أخرج سليمان عطارة زجاجات الشراب العتيقة المخبئة في الظلمة، ومضى، لكنه عاد مرة أخرى ويطلب من يعقوب، وأخرج لجوديث هدية، قال إنها ستفرحها كثيراً»!.

تفصيل آخر:

«وفي بيت يعقوب فوجىء سليمان عطارة بتلك المرأة العجوز ذات الشعر المكشوف الأبيض التي عرفته فوراً وأمرته أن يقترب منها، وأن يقف قبالة جوديث لكي تبارك زواجهما في ليلة مباركة،ووقت مبارك، ويد مباركة أيضاً. ويقترب سليمان عطارة، وتقترب جوديث، وتتراجف شفتا يعقوب، وتنساب دموع ميمونة ودينة، ويد جوديث متعامدة على يد سليمان عطارة، في مشهد للضراوة، واليباس، والقبول والإدبار، وتتمتم العجوز بكلام لا يبين، ثم تدعو سليمان عطارة أن يضم عروسه إلى صدره، فيضمها، وبعدئذ يندلق النبيذ الأحمر في الكاسات النظيفة فيشربون، وأمام الجميع تغادر العجوز المكان بصمت شديد، وقد لحق بها يعقوب، وبناته، وسليمان عطارة الذي تأخر عنهم بخطوات عديدة»!!.

تذييل:

«وبينما هم يشربون، ويتحادثون، وقفت جوديث بمحاذاة سليمان عطارة، وطلبت منه أن يلتقيا على انفراد في بيته يوم الغد، ومنذ الصباح الباكر، ليرتبا شؤون حياتهما القادمة. فامتلأ وجه سليمان عطارة بالفرح. وأحسّ بأن المكان ما عاد يتسع لسعادته الغامرة.

وظلّ ساهراً طوال الليل، إلى أن هدّ الصحو الطويل يعقوب وبناته، فمضى سليمان عطارة مع شاهين الذي جاء في طلبه منذ ساعات أو أكثر. كان يود لو كان بمقدوره أن يوقف الزمن عند سعادته الدافقة، حيث ستصير جوديث، كل هذا الجمال الكثير له، تتقلب بين ذراعيه، فيراها عاريةً بحواسه كلها، يراها بصورتها النادرة والآسرة أيضاً، وسيرجو الله أن يمدّ بصره ألف عام ليتمكن من رؤية كل هذا الجمال وأسراره»!!.

تذييل آخر:

«حين مضى سليمان عطارة هائماً بالذهاب إلى الشماصنة، خرج معه يعقوب وهو يشكو من النعاس الشديد الذي سيطر عليه، وبدل أن يمشي مع سليمان عطارة باتجاه درب الشماصنة، أخذه من يده ومضى به قسراً نحو أساسات الخان، والدنيا عتمة، لا تفصح عن شيء. فالقمر خط ناحل من الضوء الفضي الواهي، وسليمان عطارة ينهره طالباً منه أن يتركه يذهب، وعند الصباح يأتي، ويرى معه الأساسات،ويعقوب لا يتركه،

يقوده بإلحاح شديد نحو الأساسات، فينقاد إليه سليمان عطارة وقد رأى إصراره وأحسّ به. وهناك يسأله يعقوب أسئلة كثيرة كلها تدور حول متى تأتي حجارة الخان، ومتى يشعر بأنه صار يعمل لمصلحته، ويقول له بلهجة الحزن الشديد:

«أرجوك يا أخي سليمان، ابنِ لي لأبني لك. جوديت وأعطيتك إياها، عجل بالحجارة»!!.

وينهره سليمان عطارة بقسوة، ويقول:

«لو كنت مكانك لحملت حقيبة الحلاقة ومضيت في القرى طالباً رزقي بدلاً من التوجع والاستعطاف يا يعقوب»!!.

ويوافقه يعقوب، بأن هذا سيحصل ولكن بدل أن يذهب هو إلى الناس، سيأتي الناس إليه. ويمضي سليمان عطارة ويعقوب كارهاً، وقد وعده بأن يذهب غداً مرة أخرى إلى المقلع ويتدبر أمر الحجارة بأية طريقة، وعليه ألا يقلق، فلن يتركه وحيداً. لكن لا بدَّ له أن يكف عن هذا الحزن العميم»!!.

الكتاب التاسع

«يوم الرضا»

في طريقه إلى الشماصنة، لم يكن سليمان عطارة يتوقع أن يحدث له ما حدث!! فقد كان يمشي كالمروحة فوق الدرب الضيق المترب، وحفيف الأشواك والأشجار يلفه كأصوات شيطانية مرافقة له. كان يصفر لحناً، تعلو نبرته حيناً وتغيب حيناًآخر. بدا كأنه في عالم آخر بعد تلك السهرة الطويلة المثمرة التي جعلته ينسى رعب العتمة المحيطة به، وسطوة الحيوانات ليلاً وشراستها إذا ما عضها الجوع أو حاصرها. كان يمشي فوق طيف من السعادة خفيفاً، مرحاً يتواثب حيناً، ويتمايل على جانبي الدرب حيناً آخر، فالسهرة ندت روحه كما ندت أنسام الليل الشفيفة الرطبة الأشواك والنباتات اليابسة. كان يحسب أن الدرب لن يستغرقه إلا دقائق فقط، وبعدئذ، وحين يصل إلى بيته سيرمي تعب النهار وسهر الليل في لحظة واحدة، وينام ساعات لذيذة قبل بزوغ الفجر، غير أن سليمان عطارة لم ينم في بيته تلك الليلة لأنه لم يذهب إليه. فقد القته في منتصف الدرب، وقرب أجمة كبيرة من الصخور وأشجار الزعرور، العجوز التي رآها عند الغروب في بيت يعقوب وقد جاءت آنذاك مع بنات يعقوب للمباركة. كان صفيره قد علا حين فاجأته العجوز بندائها الواثق والصافي:

«سليمان، سليمان»!!.

نداء سيّل في نفسه الرعب من العتمة وما تخفيه في لحظات فقط؛ نداء طوى حلاوة السهرة وبهجتها، فقبض على حركة ساقيه، واستدار نحو الصوت، وسأل كردة فعل ليس إلا:

«من، من ينادي عليّ؟؟!.

وحين تباطأت العجوز في الإجابة، عاد يصرخ من جديد وقد ازداد خوفه ورعبه:

«من هناك،

من ينادي عليّ؟؟!.

فأجابته العجوز:

«تعال يا سليمان،

تعالي إليّ يا بنيّ»!!.

آنسه الصوت، وأسره في آن معاً!! وتأكد أن الصوت صوت امرأة لا رجل، وهذا على وجه التحديد ما أذهب الكثير من روعه، فمضى نحوه كالنائم كتلة من الدهشة والأسئلة والحيرة، والخوف. وعندما اقترب من مكان صدور الصوت؛ من شجيرات الزعرور الموازية للدربّ، ظهرت العجوز له كشبح طويل من العتمة المتحركة الظلال. راح يتقدم نحوها بشكل آلي غير عابيء بالأشواك والنباتات التي أعاقت سيره. في تلك اللحظة ما عاد نقيق الضفادع الألوف ليلاً، ولا حفيف أوراق الأشجار والنباتات، ولا خرير المياه العذب، ولا غناء الجنادب الطرب؛ كلها ما عادت تعني له شيئاً، لقد سقط في هاجس المواجهة والدنيا ليل. حين وصل إلى مقربة من العجوز، وقف أمامها مدهوشاً، وقد عرفها ولم يقل كلمة واحدة؛ وانتظر ما ستقوله هي له. حتى التحية عصته وعاندته فلم

تخرج من فمه، وقد أرادها، فحلقه جفّ، والخوف شلّ قدرته على الكلام. ودونما تلكؤ، أمرته العجوز بنبرة واضحة:

«تعال يا سليمان، اتبعني»!!.

واستدارت ماضية برشاقة نحو كوخها في منحدر شديد تسبقها عصاها الطويلة، وصوت ارتطام قدميها وساقيها بالنباتات والعيدان اليابسة يسمع بوضوح شديد. فتبعها سليمان عطارة كالمأسور، أو كمن صار ضحيةً لضبع شرسة، راحت تقوده إلى المكان الذي تأمنه، لتأكله بهدوء شديد بعد مداعبات ومناوشات ليست هي إلا مناورات لفتح أول جرح في الجسد. مضى وراءها دون أن يفكر بالهرب أو الفرار، ودون أن يسألها من هي؟ ولماذا تقتاده مرغماً؟! وإلى أين؟! ولم يمضِ في مسيره طويلاً وراء العجوز حتى أصبح أمام كوخ لم يره من قبل. تتراقص قرب بابه ذبالة قنديل محاطة بدوائر من الهوام. كان نظره معلقاً على العجوز؛ على حركاتها، وطوفان الأسئلة يدور في رأسه، والعجوز في حركة دائبة لا تلتفت إليه أو تدير معه حديثاً يُسرِّب الطمأنينة إلى نفسه. كان لصمتها قدرة خارقة من المهابة، يزيدها الليل رعباً وخوفاً، وكان سليمان عطارة غير منتبه لتفاصيل الكوخ، فلم يهتم بعلوه غير العادي، والمطاول لأشجار الزعرور الحانية عليه، ولا بنوافذه العريضة الواسعة، ولا بمساحات عشب النجيل الشاسعة الممتدة أمامه، ولا برقدة عدد من الشياه قربه، ولا بنظرات كلب العجوز، ولا بهريره الذي لا يصير نباحاً. كان مشدوداً إلى العجوز التي تكلمت أخيراً، وطلبت إليه أن يجلس فوق المصطبة الحجرية المرتفعة التي أحاطت بباب الكوخ من الجانبين. وما أن جلس، سألته العجوز التي ظلت واقفة:

«ما هي أخبار يعقوب يا سليمان،

أراك قد تأخرت في سهرك عنده»؟!.

فيهمهم باندفاع:

«بخير، يا سيدتي، بخير»!!.

وتنهره بقسوة لم يتوقعها:

«أي خير يا سليمان، وأنت لم تفك رباط كيسك من أجله بعد»؟!.

فيرتبك سليمان عطارة، وتجحظ عيناه، ويجرض بريقه مرات عديدة، ويقول:

«كيسي»؟!.

فتجهز العجوز عليه:

«ساعده يا سليمان، واجعله أقرب إلى روحك من كيسك»!.

ويهمهم سليمان عطارة بجرأة بدأت تظهر، كمن نسي الحتمة، والخوف، والرعب:

«سيدتي..»!!.

ولم تعبأ العجوز به، وتضيف:

«ستساعده يا سليمان، لأن يعقوب سيصبح سيد المكان. وفي مساعدتك له ربح لك لا خسارة أتفهمني. تشجع يا سليمان، واجعل بينك قرب كيسك وأمله قبل أن تخسر الفرصة الممنوحة له»!!.

وبشجاعة يرد سليمان عطارة:

«فرصة، أية فرصة يا سيدتي»؟!.

فتجيبه بحسم قاطع:

«فرصة مساعدته يا سليمان.

إن لم تساعده أنت، سيساعده الكثيرون.

أتفهم، أم أن سهر الليل أتعبك»؟!.

ويرد سليمان عطارة بهزة من رأسه، هزة ملأى بالخوف والدهشة في آن واحد. وبدلاً من أن يسألها من هي؟ ولماذا تأمره بذلك، وبأي حق؟! ومن أين أتت؟! ولماذا، وقد سمع بها كثيراً، لم يرها من قبل؟! سألها سؤالاً هو أقرب لمن كان نائماً أو حالماً:

«هل سأتزوج جوديت يا سيدتي»؟!.

فتجيبه بثقة:

«أجل يا سليمان، ولك وريث منها»!!.

قولها هذا، كان مفتاحاً لأسئلة لم تنته إلا عند مطلع الفجر حين أخذ النعاس سليمان عطارة الذي قاومه بكل قدراته، غير أنه غفا إغفاءة طويلة، والعجوز تحدثه عن حوادث ماضية جرت معه، وعن حوادث قادمة ستحدث له مع أهالي القرية ومع وكيله شاهين، ومع يعقوب وبناته، ومع آخرين أيضاً. وقالت له قبل أن يأخذه النوم أن الجسر سيصبح بوجود بنات يعقوب البقرة الحلوب التي لن يستغني عنها يعقوب أبداً؛ فالجسر سيكون حديث الناس في القرى المحيطة به وفي القرى البعيدة عنه، كما ستكون بنات يعقوب المشاجب التي سيعلق عليها يعقوب كل مشكلاته، وكل أعدائه، وكل أمانيه القادمة!!.

وآن أدركت العجوز أن سليمان عطارة قد مضى في نومه اللذيذ

كفّت عن الكلام، وانسحبت إلى داخل الكوخ، وعادت بغطاء أبيض رمته فوق جسده، ثم توارت من جديد، بعدما قامت بواجب الهدهدة!!.

ومع طلوع الفجر، استيقظ سليمان عطارة مذعوراً مرهقاً. جال ببصره في أرجاء المكان. فلم يجد الكوخ الذي كان قربه قبل قليل، كما لم يجد العجوز. لقد اختفى الكوخ، واختفت العجوز.

ذهل سليمان عطارة، وحار بأمره؛ فراح يتحرك ويدور في مكانه كالمجنون، وهو ينادي:

«سيدتي، سيدتي»!!.

لكن ما من أحد يجيب على النداء. لم يعد يدري ماذا يفعل، وجهه اغتمّ، وجسده ما عاد يهدأ على حال، وصوته نافر بالنداء المكرر:

«سيدتي، سيدتي»!!.

والعجوز لا تجيب! راح يدقق في الأشجار من حوله فرآها أشجاراً من الدلب والسنديان، لا كما رآها حين جاء إلى هنا مجموعة من شجيرات الزعرور؛ بل راعه أنه لم يرَ مساحات عشب النجيل التي كانت ممدودة أمام الكوخ؛ لم يرَ سوى أرض متربة تغطيها بعض النباتات اليابسة، وأوراق الأشجار التي اصفرت فتساقطت؛ بل لم يرَ الصخور، ولا المصطبة الحجرية المرتفعة التي رآها تحيط بباب الكوخ من الجانبين. تساءل بصوت عالٍ:

«ما بي، هل كنت في حلم أو كابوس»؟!.

ويضيف:

«ومن جعلني آتي هنا، ولماذا، وكيف»؟!.

وحين يئس من كلّ ما هو حوله، وقد راحت الشمس تنثر أضواءها، حث الخطا نحو بيت يعقوب وبناته ليروي لهم ما حدث له في ليلته الفائتة. ومع خطوته الأولى، سمّره صوت العجوز الناهر في مكانه:

«إلى أين يا سليمان»؟!.

ويستدير كالمقروص إلى جهة الصوت،وإجابته منطلقة دون وعي منه:

«إلى بيت يعقوب، يعقوب يا سيدتي»!!.

فيعلو صوت العجوز بنبرة صافية، ومن ورائه أيضاً:

«بل اذهب إلى بيت سمعان»!!.

فيتمتم سليمان عطارة كالمسحور، وهو يستدير:

«بيت سمعان»؟!.

فتؤكد العجوز من خلفه:

«أجل يا سليمان، خذ سمعان معك إلى المقلع، هيا»!.

ولم يقل سليمان عطارة حرفاً، وانتظر العجوز لكي تتم كلامها، لكنه هي الأخرى لم تقل كلمة واحدة. فقد راح سليمان عطارة يستدير، ويلفّ حول نفسه، وينادي العجوز:

«سيدتي، سيدتي»!!.

غير أن العجوز ما عادت إلى الظهور، وما عاد صوتها يعلو أو يسمع. الحيرة استولت على سليمان عطارة، وصارت العجوز بالنسبة إليه لغزاً، وقد كان ما حيّره كثيراً أن صوتها الآمر يأتيه من وراء ظهره دائماً؛ لذلك ازداد خوفه خوفاً على الرغم من رجائه الطويل المتكرر أن تظهر له

ليسألها أسئلة كثيرة لا يعرف أجوبتها، لكن العجوز لا تظهر، صوتها غائب تماماً، فاستدار عائداً نحو الشماصنة، نحو بيت سمعان المعماري ليأخذه معه إلى المقلع كما أمرته العجوز. وحين وصل إلى بيت سمعان، وجده خارج الباب يقف بانتظاره!!.

ومضيا معاً نحو بيت يعقوب، ومع إطلالتهما عليه، شاهدا عربة خشبية تعبرالجسر نحو الغرب، وهي تئن أنيناً شجياً يصل إليهما كالحشرجات وقد ملئت حتى حوافها العليا بالأكياس. كانت أصوات ضجيج عجلاتها، ووقع أقدام البغل الأسود الذي يجرها وصراخ سائقها الناهر الشاتم كلها مسموعة، كما شاهدا بعض الحمير السارحة، وبعض الخلق وقد اقتعدوا المرج النجيلي الأخضر أمام الطاحونة التي علا هديرها وضج. وسمعا نباح كلب يعقوب، وثغاء الأغنام والماعز فيما حولهما، وأصوات الفلاحين الذين تناثروا على مبعدة منهما. وعندما أشرف على بيت يعقوب شاهدا يعقوب وبناته مجتمعين حول رجل يقف إلى جوار حماره، ومع اقترابهما أكثر، سمعا صوت امرأة تبكي وتشكو. وحين أصبح صوت حديثهما ووقع أقدامهما مسموعين من يعقوب وبناته، مسموعين من يعقوب وبناته، انكشف الجمع عن امرأة عجوز تضع يدها على خدها المتورم، تبكي وتهز رأسها بأسى شديد. وخف يعقوب إليهما، وصوت ترحيبه يتعالى. ولم يخف فرحه بمرأى سمعان وقد جاء به سليمان عطارة في صباح مبكر موفياً بوعده الذي قطعه على نفسه ليلة أمس. ومع علو صوت بكاء المرأة راح يعقوب يشرح لسمعان وسليمان عطارة حالة مرضها، فأسنان المرأة مصابة بنخر شديد، ووجعها قوي أيضاً. كان يعقوب يحدثهم تارة، ويصبّر المرأة العجوز تارة أخرى. وهو غير قادر على إخفاء فرحه بهذه المناحة الصباحية الجميلة التي توقدها

المرأة، هذا الفرح الذي جعل يعقوب يأخذ سليمان عطارة من طرف ثوبه ليختلي به لحظات فقط، وليقول له على مسمع من بناته.

«باركني يا أخي، لقد بدؤوا يأتون»!!.

ويشير إلى العجوز والرجل الذي معها، والحمار الذي وقف قربهما بلاهة غير مكترث بما هو حوله من الأحاديث، والحوارات والبكاء، ونباح الكلب المتواصل.

وحين يقول سليمان عطارة له:

«إنها فرصتك يا يعقوب، استعجل في علاجها يا أخي، عالجها كأحسن ما يكون العلاج، وكن لطيفاً معها، رقيقاً لتحكي عنك للآخرين. إنها شاعرتك، انتبه أرجوك»!!.

ويجيبه يعقوب بلهجة الطبيب العارف أموره تماماً:

«أصبت، يا أخي، إنها شاعرتي، لكنني لن أستعجل في علاجها، عليّ أن أتركها تتألم بعنف حتى تعرف قيمة علاجي»!!.

كان بكاء المرأة أنيناً وشكوى ونوجعاً، بكاء راح يزعج جرو يعقوب وحماره، وبناته، والرجل الذي ما كفَّ عن اتهامها بأنها طفلة، وأن وجع الأسنان ما من شيء ينفع معه إلا الصبر عليه، وأنه لا بد للألم من أن يأخذ مداه ثم يتناقص. والمرأة تئن وهي تعض على طرف خرقة مبلولة بالماء والملح، وقد اصفر وجهها، واحمرت عيناها، وتطايرت أطراف شعرها من تحت منديلها الأسود المعصوب برباط أحمر مذهب، وبنات يعقوب من حولها في حالة إشفاق ومواساة. جوديت تحاول إشعال النار لتغلي للمرأة كمية من أوراق النعناع والورد تماماً كما طلب أبوها منها،

وميمونة تبحث عن علبة حبوب الكينا في صندوق أبيها، أما دينة فقد جثت أمام المرأة، تمسح لها عرق جبينها وعنقها، وتفرك لها أصابع يديها، وهي تنظر إليها بحنو ومواساة، والمرأة تتمتم لها بين حين وآخر:

«يا حبيبتي»!!.

ومع صرخة ميمونة:

«حبة الكينا يا أبي».

ضج جسد يعقوب بالحركة، وهتف سليمان عطارة فرحاً.

«هيا يا حكيم، هيا»!!.

وبدلاً من أن يمضي يعقوب نحو المرأة الباكية، وبدلاً من أن يكف عن ترقيص حاجبيه، وفرك كفيه، يمضي نحو سمعان معتذراً منه لأن ألم المرأة جعله يقصر في إكرامه. وسمعان يبتسم له، ويرجوه أن يداويها.

ويمضي يعقوب إلى المرأة، يجلس قبالتها تماماً، وبجوار ابنته دينة، ويفتح فم المرأة العجوز، والمرأة تصرخ به متوجعة:

«رأيت أسناني مئة مرة، أعطني الحبة قبل أن أموت»!!.

فيضحك يعقوب ويمازحها:

«وجع الأسنان، يا امرأة، لا يميت، فلا تخافي»!.

وحين يغلي منقوع أوراق النعناع والورد، يصب يعقوب للمرأة كأساً، ويناولها قرص الحبة الكبير، فتأخذه بأصابع راجفة، وتبتلعه بسرعة، ثم ترتشف ما في الكأس بهدوء شديد، والرجل الذي معها يحثها أن تشرب كل ما في الكأس دفعة واحدة، فدفء الشراب سيذهب الوجع، وهي تصرخ به قائلة:

«إنه نار يا رجل، اصبر عليّ»!!.

فيغمغم ساخراً:

«مثل الصفار، نار نار»!!.

ودونما مجاملة، يأمرها يعقوب أن تنصرف، وأن لا تعود إليه إلا حين يولي ورم خدها، ويطمئنها بقوله:

«سيبدأ مفعول الحبة بعد قليل، لا تخافي»!!.

ويمضي الرجل مع المرأة والحمار، وهو يشكر يعقوب، ويدعو له بطول العمر والبقاء. والمرأة على الرغم من ألمها الشديد، لم تغفل عن شكره أيضاً. فقد سحبت الخرقة المبلولة من فمها وشكرته. ولم يطل المقام كثيراً بيعقوب وسليمان عطارة وسمعان بعد أن تناولوا معاً طعام الإفطار، فقد مضوا أيضاً نحو المعصرة ليأخذ سليمان عطارة عربته كما اتفق مع يعقوب وسمعان المعماري، وليذهبوا فيها إلى مقلع العبوسي لجلب الحجارة إلى مكان بناء الخان. مضوا مشيعين بنظرات بنات يعقوب ودعائهن الطويل بالتوفيق والنجاح.

وعندما ابتعد يعقوب وسليمان عطارة وسمعان، انصرفت بنات يعقوب، وقد تغامزن على قوة سمعان المعماري وجمال سماره، إلى شؤون البيت، فأوقدن النار في (الفرنية) وسط هدير الطواحين، والمعصرة، وضجيج العربات الذاهبة والآيبة فوق الجسر. كما أخرجن الحصيرة وبعض الأغطية والمفارش، ونشرنها في الهواء الطلق أمام الكوخ، بعد أن نقلن كمية كافية من ماء النهر. لقد صار للكوخ أنفاسه، وأحاديثه، وزواره وأشغاله أيضاً.

في المعصرة، وجد يعقوب ما لم يكن يتوقعه، فقد سبقته المرأة العجوز صاحبة الأسنان المنخورة إلى المعصرة، وجعلت منها محطة

استراحة، وراحت تتحدث عن الألم الفظيع الذي شلَّ حركتها إلى درجة أنها ما عادت تحس! بوجود رأسها معها إطلاقاً، وكأنه جزء ليس منها، وكيف أن الحكيم يعقوب عالجها بمنقوع من الأعشاب الغريبة، وحبة كينا كبيرة، فزال الألم رويداً رويداً، وأنه طمأنها بأن ورم خدها سيزول خلال يوم وليلة على أبعد تقدير. وحين اكتفت بهذا القدر من الحديث، اندلعت عشرات الأحاديث حول خبرة يعقوب وفهمه في الطب، فلو كان جاهلاً بأمر الطب لقام بقلع الأسنان المنخورة دفعة واحدة، ووجع فمها وأسنانها على أشده، الأمر الذي قد يؤدي إلى موتها كما مات رجل من إحدى القرى المجاورة في العام الماضي حين قام بقلع أسنانه بنفسه من شدة الألم، قلع بعضها بالخيطان، وبعضها الآخر بكماشة المسامير وعندما اشتدَّ نزف فمه، استسلم لقدره، ونفظ أنفاسه، ومات!!.

كانت الأحاديث الحامدة ليعقوب قد سبقته إلى المعصرة، لذلك استقبله النفر القليلون في المعصرة بترحاب شديد، وأخبروه بما قالت العجوز كمالة الشحبان عنه، فانشرحت أسارير وجهه وراح يحاور الناس في أمور وجع الأسنان وآلامها مستشهداً بعشرات الحوادث والأمثلة، ثم انطلق برفقة سمعان المعماري وسليمان عطارة بالعربة متوجهين إلى المقلع. ويهمس يعقوب في أذن سليمان عطارة وهم في الطريق:

«أترى يا سليمان، كأنني بدأت فعلاً»!.

ويطمئنه سليمان عطارة مؤكداً:

«بدأت فعلاً يا يعقوب.

ألم أقل لك بأن المرأة ستكون شاعرتك»؟!.

في المقلع نوجىء يعقوب بالاستقبال المدهش الذي أبداه العبوسي له ولسليمان عطارة وسمعان المعماري، لقد كان بانتظارهم، وبدل أن

يحدثهم بجفائه المعهود وقوفاً أو يستمع إلى طلباتهم بلا مبالاة، رجاهم أن يدخلوا إلى غرفته ليشربوا الشاي معه، فتبادلوا النظرات المستغربة، وقلبوا أكفهم في الهواء، وحثّوا الخطا نحو غرفته الصغيرة الواطئة التي تصدرت المقلع. وفي داخل غرفته، وعلى نحو مبكر جداً، وهم يشربون الشاي، قطع العبوسي كل شكل من أشكال المناورة والإلحاح والمجاملة من أجل الحصول على الحجارة حين قال ليعقوب قولة واحدة، وفرت عليه وعلى سليمان عطارة كلاماً كثيراً:

«حجارة المقلع كلها تحت أمرك يا يعقوب»!.

وحينما انتفض يعقوب وهم بالوقوف ليقبله، أضاف العبوسي، وقد رفَّ شارباه، وانفتح وجهه كالرغيف:

«قل لي ما هي حاجة يعقوب من الحجارة.

يا سمعان حتى أعدها له اليوم قبل غد»!!.

إضافة، جعلت يعقوب يرتمي في صدر العبوسي قبل أن يقف ويقبله! واندفعت دموع يعقوب، وراح يلتقطها خلسة بأطراف أصابعه. وتعانق العبوسي وسليمان عطارة أيضاً عناقاً طويلاً، فسليمان عطارة يعرف عناد العبوسي جيداً، كما يعرف قسوته، لذلك استغرب تغير موقفه بين ليلة وأخرى، وأثنى عليه بقوله:

«دائماً أنت هكذا يا عبوسي، رجل كالدرب واضح وبيّن، تصل الناس ولا تقطعهم»!.

حتى إن سمعان تمتم بكلمات الشكر والمدح للعبوسي. أما يعقوب فظل يبكي وينتهد تماماً كمن فقد عزيزاً، لذلك نهره العبوسي:

«ما بالك يا رجل»؟!.

وما الذي فعلته لك حتى تبكي»؟!.

فيطمئنه يعقوب، وهو يطفىء دمعه بأصابعه اليابسة:

«أبكي من فرحي يا سيدي»!!.

ويضيف العبوسي قائلاً:

«وثمن الحجارة تسدده مع الأيام، لا تقلق»!!.

فيدهش يعقوب، ويكاد لا يصدق ما يسمعه من العبوسي، فالدنيا ومنذ الصباح تعطيه أكثر مما ينبغي في يوم واحد. بل إن الدهشة أخذت سليمان عطارة أيضاً الذي لم يكن يتوقع أن يبدي العبوسي كل هذا اللطف والكرم مع يعقوب. لذلك طلب منه، وبالإشارة، أن يقول له كلمة على انفراد، ففهم يعقوب وسمعان أن الاثنين سيتفاهمان حول طريقة دفع النقود، لكن الحقيقة كانت على نحو آخر، فحين اختلى سليمان عطارة بالعبوسي، قرب كومة من الحجارة البيضاء المستطيلة الأشكال، سأله:

«خير يا عبوسي، ما الذي حدث»؟!.

ويجيب العبوسي:

«الأمر وما فيه، يا سليمان، أنني لم أستيقظ هذا الصباح بمفردي كما أستيقظ عادة، لقد استيقظت على صوت امرأة عجوز طويلة، ناحلة، بيضاء، تلبس السواد، أنفها طويل بارز، وعيناها واسعتان، وشعرها الأشيب الكثيف مثل أجمة الشوك. راحت تأمرني بأن أستيقظ، وتناديني باسمي، وحين فتحت عينيّ دهشت من منظرها، وقربها مني، فأنا لم أشاهدها من قبل، كما أنني لا أعرفها. رأيتها واقفة فوق رأسي مستندة إلى عصاه الطويلة ذات

العقد، فسألتها ماذا تريد، فقالت:

«ساعد يعقوب الذي سيأتي إليك بعد قليل. أعطه ما يريد من الحجارة، وإلا ذهبت عافيتك، وانهدم المقلع على ما فيه»!!.

ولم أدرِ كيف وافقت على طلبها، كما لم أدرِ لماذا جفّ حلقي فنسيت أن أسألها من هي؟!.

ومن أين لها الجرأة حتى تتدخل في شؤوني، وتأمرني بأن أفعل أو لا أفعل. كانت لها مهابة مرعبة، جعلتني أحسبها مقتنعاً بأنها مخلوق ليس من مكان الأرض،هبط قربي فجأة ليأمرني بمساعدة يعقوب، والأخذ بيده.

وعندما جاءتني الجرأة، يا سليمان، وعادت إليّ قدرتي على النطق والحوار والأسئلة كانت العجوز قد مضت! فخرجت وراءها كالمجنون، لكنني لم أجدها، وقد بعث في نفسي الخوف، والقلق، دون أن أعرف لماذا!! ومنذ رحيلها وحتى الآن وأنا بانتظار يعقوب ليأتي، ليأخذ الحجارة. صدقني لو لم يأتِ لكنتُ ذهبت إليه، لأدعوه راجياً أن يحضر ليأخذ الحجارة التي يحتاج إليها. لا أدري لماذا سيطر عليّ هذا الشعور»!!.

وهمّ سليمان عطارة أن يحدث العبوسي بما حدث له مع العجوز ذاتها ليلة أمس أيضاً إلا أن خلوتهما طالت، وصوت يعقوب وسليمان المعماري تعالى مرات عدة منادياً عليهما، فاكتفى سليمان عطارة بقوله:

«أجل، يا عبوسي، كما قلت، هذه العجوز ليست من

سكان الأرض، فأنا أعرفها وقد قابلتها ليلة البارحة، وأرعبتني مثلما أرعبتك تماماً»!!.

الأمر الذي أشعل خوف العبوسي أكثر، وهيّج هواجسه وظنونه على نحو لم يعهد نفسه عليه من قبل. وحين عادا إلى يعقوب وسمعان المعماري وجدا أنهما يتحدثان عن عدد الحجارة ولونها، وهل تمقدار دابة سليمان عطارة وعربته أن تنقلها في يوم واحد. وتداخل الحديث وتوشّع حول البناء، والخان، والمستقبل، وبنات يعقوب، والشتاء القادم، والمحبة، والمساعدة، ولهفة العبوسي على الغريب، وتقديره للعشرة مع سليمان عطارة. ولم يمضِ سوى وقت قصير حتى تعالى صوت ارتطام الحجارة بقاع عربة سليمان عطارة، وقد ترك عمال العبوسي كل أعمالهم، وشرعوا يملؤون العربة بالحجارة؛ حتى العبوسي نفسه راح يحمل الحجارة إلى العربة تماماً مثلما كان يفعل يعقوب وسليمان عطارة وسمعان المعماري، بدا كمن يتخلص من حمل ثقيل أرهقه وعذّبه طويلاً.

لقد فعلت العجوز ليعقوب ما لم يكن يحلم به إطلاقاً. ومن دون أن يدري، فمنذ قدومه وهو يقطف هبات يوم رضاها واحدة واحدة!!.

ولم يمضِ وقت طويل على وصول العربة الأولى من حجارة الخان حتى علا تل كبير من الحجارة المشذبة والمنحوتة قرب أساسات خان يعقوب، ذلك لأن العبوسي راح ينقل في عربته أيضاً حجارة يعقوب كأنها شر لا بدّ من الخلاص منه. وكاد يعقوب يفقد عقله وهو يرى الحجارة تتعالى وتمتدُّ على مساحة واسعة من الأرض قرب أساسات الخان، وقد وصلت الحجارة إليه دون أن يقطع على نفسه عهداً لأحد يقضّ عليه مضجعه، ودون أن يحرج بوعد يقلقه أو ينغص عليه أيامه القادمة!.

كان الفلاحون المتناثرون في (المقاثي) يرون العربات الذاهبة والآيبة ما بين خان يعقوب ومقلع العبوسي، وقد شرع سمعان المعماري يشدُّ الخيطان، وبناء الدور الأول من الخان. كما كان المارون بالجسر يرون بناء الخان وهو يتكامل شيئاً فشيئاً، فيرمون التحية والسلام على سمعان ورجاله، ويباركون ليعقوب البيت الجديد. ويعقوب يشكرهم وينحني لهم، وحين يبتعدون، ويصبحون فوق الجسر تماماً، يراقبهم يعقوب بأسى ويهزُّ رأسه فيشدّه سليمان عطارة من طرف قميصه البرتقالي وينهره:

«ما بالك يا رجل، دعهم يمضون، وانتبه لأمورك»!.

فيقول يعقوب محزوناً:

«يكاد قلبي يحترق يا سليمان، وأنا أرى هؤلاء يروحون ويجيئون من فوق الجسر دون أن يدفعوا شيئاً، إنهم الناجون يا أخي»!!.

ويلفت سليمان عطارة انتباهه إلى نفر من أهالي الشماصنة يقطعون بعض الأشجار والأغصان من غابة النهر، فيعتكر وجه يعقوب وينكمش، وهو يدمدم:

«وهؤلاء أيضاً، يا سليمان، ناجون»!!.

قبيل الغروب، بدت الشماصنة وما حولها، والجسر وما حوله دنيا هادئة، مشبعة بالبرودة والهواء الصافي، والناس في رواحهم وغدوهم، وما من شيء جديد سوى الضجيج المنبعث من غابة النهر، حيث نفرٌ من الأهالي ما زالوا يقطعون بعض الأشجار ويشذبونها، ويرتّبونها حسب أطوالها وحجومها، وذلك الضجيج الذي تتركه وراءها عربات الحجارة الذاهبة والآيبة ما بين خان يعقوب ومقلع العبوسي. لقد بان الخان وعلا فوق مرتفعه المشرف على الشماصنة، والغابة، والجسر. لقد وضع سمعان

المعماري وعماله كل جهودهم لإنجاز بناء الخان بأسرع وقت ممكن، وبنات يعقوب من حولهم يطفن بشراب الشنينة الذي استجره سليمان عطارة من القرية وقد علت رائحة الثوم، ويعقوب غير مصدق أن تحدث كل هذه الموافقات في يوم واحد!! أن يوافق سليمان عطارة على الذهاب إلى المقلع، وأن يوافق العبوسي على إعطائه الحجارة، وأن يوافق سمعان المعماري وعماله على بدء العمل فوراً دونما شروط أو حوار، وأن يقوم سليمان عطارة بتجهيز طعام الجميع وشرابهم في بيته من دون أن يطلب هو منه أو يلح عليه. فقد كان يعقوب يظن أن سمعان وعماله سيأتون بطعامهم وشرابهم معهم من بيوتهم مثلما يفعل الحجارون في مقلع العبوسي، حيث رأى كل عامل ومعه زوادة طعامه وشرابه. لذلك، كان وحين يختلي بسليمان عطارة يحدثه عن أعطيات الرب ورضاه في يومه هذا، وأنه سيقدم للرب وقيدة ليرضى عنه، فيضحك سليمان عطارة، هو يزيد فرحه فرحاً، حين يقول له:

«وماذا لو علمت أن هؤلاء الحطابين في لغابة، يقطعون الأشجار ويعدونها لتكون سقفاً لخانك يا أخي؟؟!.

فيندهش يعقوب فاغراً فمه على وسعه، وتدمع عيناه، ويموج جسده بالحركة، ويحار ماذا يقول، ثم يغمغم وقد وضع كفيه على عينيه:

«يا رب، يا رب»!!.

ويخرّ على الأرض ساجداً وسط دهشة بناته، وسمعان المعماري وعماله.

وفجأة تعالى ضجة بنات يعقوب وهمهماتهن، وقد رأين نفراً من الأعالي يتقدمون نحو الخان، وهم يحملون جذوع الأشجار، يسبقهم صوت غنائهم المتداخل الذي يعلو حيناً وينخفض حيناً، فينفر سليمان

عطارة ويعقوب إلى استقبالهم، بينما يكتفي سمعان المعماري وعماله بالنظر إليهم، وقد سيطر عليهم الذهول لهذه السرعة التي شملت كل أعمال الخان وشؤونه. ولم يبدد سمعان المعماري نظره المعلق فوق خطا هؤلاء القادمين إلا بعد أن هزّ رأسه هزات عدة، هزات مستغربة حائرة!!.

وكأن غروب الشمس لم ينه يوم العمل في خان يعقوب!! فقد اقترح سمعان المعماري على سليمان عطارة ويعقوب أن يستمر في العمل ليلاً بعد أن استشار عماله الذين وافقوا على رأيه فهم لم يشعروا بالتعب فعلاً، وكأن آخرين غيرهم هم من يعمرون الخان لا هم!! هذا الاقتراح جعل يعقوب عاجزاً عن الكلام، وقد شرع ذراعيه في الهواء ثم أعادهما إلى صدره في ضمة شديدة، وجمد في مكانه، وقد راح وجهه يتراقص في رعش طويل، وعيناه تسيلان دمعاً غزيراً دونما استئذان.

بغتة، تخافت الحديث في خان يعقوب حين راح الجميع يراقبون عدداً من أبناء القرية يتقدمون نحوهم وراء عدد من الحمير وسط غباش الضوء الفضي الذي تركته الشمس وراءها، وراء حمرتها القانية، وحين وصلوا إليهم، سلموا، وباركوا ليعقوب مقامه الجديد بينهم، ثم قدموا إليه ولبناته ما جلبوه معهم من (المقاثي) هدية لهم ولعماله، هدية من البطيخ، والخيار، والقثاء، والبندورة، والفليفلة... هدية جعلت سمعان المعماري يقول بصوت مسموع:

«نسنا وحدنا هنا»!!.

وحين أظلم الليل، كان بيت يعقوب وحيداً، صامتاً، مناراً بصيص من ضوء السراج. أما الخان فقد كان ضاجاً بالحركة والأحاديث، ومضاءً بـ (لوكس) سليمان عطارة الشهير الذي يستخدمه في إنارة معصرته حين يضطر إلى العمل فيها ليلاً!!.

كان الخان يقوم قومة الجمل! عندما وصلت العجوز الطويلة الناحلة بشعرها الأبيض الكثيف، وعصاها الطويلة ذات العقد. وصلت وبين يديها زجاجات الشراب التي أخذتها بنات يعقوب منها بهدوء شديد، وأحطن بها، وقد ذهل سمعان المعماري بمرآها، وبهت سليمان عطارة ويعقوب. ولم تمض إلا لحظات فقط، حتى كانت العجوز تبارك الخان وقد بدأ الجميع بشرب ما في كاساتهم، وهم يتمتمون، ويرددون كلمات الشكر للرب. ومثلما جاءت العجوز فجأة، غابت فجأة، وعاد الحديث المتداخل والصاخب، وصوت تكسير الحجارة ونقلها إلى الخان الذي أخذ يستوي كما شاء يعقوب وأراد!!.

حاشية تاسعة:

«في ذلك الليل الطويل، التقى سمعان المعماري ميمونة مصادفة، خلف أحد حيطان الخان وقد كان يود قضاء شأن من شؤونه، أشعرها بوجوده، وهي جالسة لكأنها تقضي شأناً من شؤونها أيضاً، فلم تتحرك أو تندهش، أو تفاجأ، وإنما ظلت على جلوسها. فحاد عنها وابتعد خطوة أو خطوتين، لكنه عاد إليها، وقصدها تماماً، حين سمعها تناديه باسمه لكي يقترب، فاقترب، وبدل أن يبادرها هو بشيء بادرته هي بالحديث المادح، والكلام الناعم. فدهش الرجل. وقد رآها من قبل هي وجوديت تنظران إليه بوله شديد فاقترب منها، ولاطفها بالكلام الحلو، وفوجيء بميمونة تلمس ذراعيه، ثم تتجرأ أكثر، وتمسح على شعر رأسه وصدره، ثم - وكأنها تسيت نفسها - ترمي رأسها في صدره تماماً، وتلفّ خصره بذراعيها، ولم يكن أمام سمعان إلا مجارتها، فأخذها إلى صدره القوي، وبين ذراعيه الملتفتين، فشعرت ميمونة برجولته، وتوحدت به، وراح يقبلها، ويعصرها وقتاً طويلاً خاف أن يكشفه أمام الآخرين، كاد يذوب فيها، وكادت تذوب فيه. ومثلما فاجأته بالمبادرة، انفضت عنه، وابتعدت مثل غزالة نافرة. وعاد سمعان المعماري إلى عمله ثانية، وعيناه تلوبان عليها، ونفسه تتمنى موافقة أخرى مشابهة قبل أن يزول الليل أو ينطوي».

تفصيل صغير:

«لقد عرف سمعان المعماري اللذة في تلك الليلة ليس مع ميمونة وحدها وإنما مع أختيها أيضاً. ولكم ترك الحجارة ليقابل واحدة منهن، ولكم عاد إلى الحجارة ليواصل البناء. وما كان يدري أن هذه المحاضنات السريعة المحمومة هي أجرته فقط»!.

تفصيل آخر:

«طبعاً، لم يكن يدري سمعان المعماري أن عماله الثلاثة أيضاً، نالوا مثلما نال وبعيداً عن عينيه. فانتشوا، وغابوا في لذة لم تكن في بالهم قط»!.

تذييل:

«حتى سليمان عطارة، نال موافقة آسرة مع جوديت التي تسترت بالعتمة، واحتضنته، فارتعش العجوز رعشة العمر المشتهاة، وحسب نفسه بأنه المحظي الوحيد في هذه الليلة المباركة! فوعد جوديت بالكثير، وقد سمحت له بملامسة صدرها، وصفحتي خديها، وبياض جسدها. تماماً كما وعدها سمعان المعماري بأن يكون لها الوفي مدى الحياة، وأن يساعد أباها ما دام قادراً على ذلك، بعدما بعثرته بدفئها العذب، وحنانها البادي اللهوف»!.

الكتاب العاشر

«الوقيدة»

حاولت أن أقدم صفحات هذا الكتاب كاملة للقارىء لكنها غير واضحة تماماً، فقد أصاب بعض جوانبها العليا، والسفلى الماء الذي لا أدري من أين جاء إليها، فصار لونها أخضر، وأسود، مما محا الكلمات وضيع حروفها، لكن وللأمانة، بقية السطور الوسطى من كل صفحة واضحة، وفيها حديث عن شاة يقدمها يعقوب بمعونة العجوز، ومن مال سليمان عطارة، وفيدة للرب، راحت رائحة شوائها تتعالى في السماء، والفضاء، حتى عمت المنطقة كلها، ولم يأكل أحد من لحم الشاة المشوية لا العجوز، ولا يعقوب، ولا سليمان عطارة، ولا سمعان المعماري وعماله، ولا البنات. صار لحم الشاة رائحة تحت النار الملتهبة التي أوقدها الجميع بمساعدة العجوز.

وفي هذه السطور الوسطى، حديث عن عاشقين أحدهما يبكي والآخر مرتخ كالميت. الأول هو الشاب، والثاني هي الفتاة. وبينما يقوم الشاب بمساهرة حبيبته في ليلته الأخيرة، تعثر أصابعه بنتوء لحمي عند كعب قدمها، وقد راح يمسد بيده على جسدها كأنه يودعها الوداع الأخير، وحين ينفك ذلك النتوء، يرى العاشق درجاً طويلاً مضاء في داخل كعب حبيته فيدخل إليه، وهكذا يقوده الدرب إلى قصر أبيض عالٍ، يحرسه كلب كبير يسيل لعابه أمامه مثل النهر...

(ويقطع الكلام)!.

وهكذا تظل هذه السطور الوسطى تتحدث عن جمال العاشقين وحبهما، وقد عاد الشاب من رحلته في كعب حبيبته ليزيل السحر الذي جعل حبيبته تغيب في غيبوبة طويلة، ثم (ينقطع الكلام)..

ونصل بعدئذ إلى سطور تتحدث عن روعة خان يعقوب، الذي نهض، وصار له حضوره، وبوابته، ودرجه الطويل، وسياجه، دربه، كما صار ليعقوب بيت من الحجر بدلاً من كوخي القصب. وقد ظل سليمان عطارة على مساعدته، ووقفته مع يعقوب وبناته. وقد تزوج جوديت التي وفضت أن تسكن في بيته البعيد، المغلق من جميع الجهات، والتي سكنت معه قرب بيت أبيها، ثم (ينقطع الكلام)!!.

ومن أسف أن صفحات هذا الكتاب كثيرة وطويلة وجلها مخرب بالماء والأحبار السوداء، وعفونة الماء المخضرة!.

ووجدت في بعض السطور التي استطعت قراءتها هذا المقطع الذي أنقله بكامله:

ووتملك جوديت الرعب حين دخلت بيت سليمان عطارة وحيدة في المرة الثانية، كانت قد دخلت إليه في المرة الأولى مع أبيها حين تعرّف يعقوب إلى سليمان عطارة. فوجدت الغبار، والأوساخ، وأنسجة العناكب، وعفن الخبز، وذبول النباتات، ويباسها، وقطع الصابون وروائحها، وأكوام حب الزيتون التي ضمرت تحت وهج الشمس، والأحذية القديمة التي يبس عليها وحل الشتاء، وبعض جلود الماشية غير المدبوغة ذات الرائحة الواخزة، وكومة كبيرة من العظام عفنة الرائحة أيضاً، وموقد الخبز الذي تناثر رماده وتوزع.

أحست كأنها في نفق أو مقبرة أو مغارة يعيش فيها وحش لا إنسان. فروث الأبقار، وبعر الغنم والماعز، ووسخ طيور الحمام والعصافير متناثرة وبادية في كل الأمكنة.

وكادت تنفر خارجة بعدما ضاقت الروح عليها وهي تنظر إلى مستقبلها على هذه الصورة، وساءها أن رأت الألوان الكالحة للفراش، والوسائد، والستائر، والمفارش، والأغطية، فودت لو كان بمقدورها أن تتقيأ.

وأحسّ سليمان عطارة بما في داخل نفسها، وشعر بحالتها، لذلك راح يطيّب خاطرها، ويشرح لها سبب هذه الفوضى في بيت يديره رجل. كل شيء فيه ميت. فالبيت السعيد لا يعمر إلا بأنفاس الزوجة الرضية، وصخب الأطفال وحضورهم البهيج.

(قطع في الكلام، ومحو).

خلعت ثوبها الأزرق الواسع، وبقيت في ثوبها القصير الأبيض المشمور وقد شدت خاصرتيها بمنديل طويل، فبان بياض ساقيها، وبدأت تخرج الفراش، والملابس، والأغطية، وتنفض الغبار، وتمسح الأرضية، وسليمان عطارة يحاول ملامستها وملاطفتها واحتضانها كلما قابلها، وقد نقل إليها الماء، ويرغّبها بأنها ستصبح سيدة للبيت، وأملاكه، وروحه أيضاً.

(قطع في الكلام...).

ولم تسلس انقيادها له إلا عندما أخرج من صندوق خشبي كبير مصدف كيساً قماشياً صغيراً فارغاً مشدوداً بخيط من عند فتحته، وضعه في عنقها، وراح يملؤه بالقطع النقدية حتى ملأ الرنين الجميل الساحر أذنيها. لحظتئذ ابتسمت له، وأرخت رأسها على عنقه الذي لم يعد في نظرها عنقاً محمراً مطوّى، وتركت نعومة خدها لزاوية فمه اليمنى التي ما عادت تشعر برطوبة لعابها الذي يسيل كمجرى ماء صغير له لمعته الدائمة!!.

(قطع في الكلام أيضاً).

وأبدى سليمان عطارة من اللطف والعذوبة ما لم تكن تتوقعه منه إطلاقاً. بدا لها رجلاً مختلفاً. بمقدوره أن يصنع حياة ما ولو كانت صغيرة، بسيطة!! رجلاً بمقدوره أن يحرث حقلاً صغيراً على قدّه!!.

(قطع آخر في الكلام أيضاً)!!.

في الصفحات الأخيرة من هذا الكتاب ثمة عطب كثير، لكن المدهش أن صفحتين كاملتين كانتا في نجاة تامة من العطب والتلف، أقدمهما بتمام كلماتهما علماً بأن الصفحتين متباعدتين كثيراً.

«وحالما نهض الخان، وصار زينة للمكان. مضى سمعان المعماري وعماله، ويعقوب وسليمان عطارة إلى الجسر الجاثم وسط أعواد القصب، والحلفاء، والبربير، والسعد، والطيون، ووسط أشجار الزيزفون، والتوت، والكينا، والسنديان، والبطم، والخروب.

اقتربوا من الجسر، وشرعوا يحفرون حفرة واسعة جداً، من أجل إقامة دعامة كبيرة ثابتة من الحجارة لكي يستند

إليها طرف الجسر الشرقي بحيث يصير الجسر ثابتاً من طرفه الغربي، ومتحركاً من طرفه الشرقي، وأن يربط هذا الطرف الشرقي بحبل ويعلق في الهواء، بحيث لا يمر فوقه إلا من يدفع أو من يرضى عنه يعقوب، وحينئذ يشد الحبل، فينزل الطرف الشرقي ويثبت فوق الدعامة الكبيرة، فيمر من يمر، وبعدئذ يُرفع طرف الجسر الشرقي مرة أخرى، ويظل معلقاً في الهواء لا ينزل مرة أخرى إلا بالدفع أيضاً.

لم تمض سوى ساعات حتى تمت الحفرة الواسعة، وحتى نهضت الدعامة الحجرية الكبيرة والقوية جداً، وسط الحفرة، والنباتات، والأشجار الوارفة الظلال، وحتى أصبح طرف الجسر الشرقي معلقاً في الهواء. موصولاً بحبل غليظ؛ حين طار طرف الجسر الشرقي في الهواء، طار يعقوب فرحاً»!

«طوال الليالي التي عاشتها بنات يعقوب قرب الخان، وبداخله، وسمعان المعماري وعماله يبنون الخان، كان رحمون قد افتقدهن، فحوّم حول بيت يعقوب كالوحش الجائع، وبحث عنهن طويلاً قرب الينابيع، وتحت الأشجار، وداخل الغابة نهاراً، واقترب من البيت، ونادى؛ واقترب من الخان أيضاً، وحاول أن يلتقي واحدة منهن لكن كل محاولاته أخفقت. ظل بعيداً عنهن، وظللن هن بعيدات عنه أيضاً.

وحين تجاسر رحمون واقترب كثيراً من الخان، ونادى،

خرج إليه يعقوب، وعاد به، فنظر إلى بنات يعقوب نظرات حائرة قلقة عطشى أيضاً. ومن دون مقدمات قال رحمون:

(مبروك يا يعقوب)!.

ومضى كمن أصيب بحرق لا يلوي على شيء»!!.

حاشية عاشرة:

«وسط الشوك، وقرب الأتربة، والحجارة، وبعيداً عن خان يعقوب الذي نهض مثل قلعة، ثمة مقبرة صغيرة ليس فيها إلا قبر واحد، محجر بالجير الأبيض، إنه قبر واحد من عمال سمعان المعماري، كان قد سقط من فوق الطابق الثاني على رأسه تماماً، بينما كان الجميع يسقفون الخان بالأخشاب، ومن ذلك الحين صار اسم المكان مقبرة الخان»!!.

تفصيل صغير:

«مشاجرات كثيرة حدثت بين يعقوب والناس ليس في الخان (لأنه ظل خاوياً على نفسه لا أحد يدخل إليه أو ينزل فيه، ظلَّ بناء جميلاً لا يستقطب أحداً) وإنما قرب الجسر، حيث تمرد الناس عليه، وأجبروه مرات عدة على أن ينزل الجسر المعلق في الهواء دون أن يدفعوا شيئاً. وكان يعقوب يوافق مرغماً. يقول لبناته اللواتي يراقبن انكساره، ويعايشن وحدته: [مع الأيام سيتعود الناس على الدفع. قبل أن يعبروا سيجهزون ما سيدفعونه. الأيام كفيلة بهم]!!.

حقيقة لم يعتد الناس على الدفع إلا بعد مرور الكثير من الوقت، وبعد مساندة سليمان عطارة، ورجل فراري كان يأوي إلى الجبل، غضموب، ذاق ريق بنات يعقوب، فقبل أن يعيش عنده حارساً، ومأموراً لحركة الجسر، وأصبح

شرساً، لا تمر نملة فوق الجسر إلا وتدفع. وهذا ما أعجب يعقوب، وبناته على السواء، لذلك كان يعقوب يقول له:

«جئت لنجدتي يا عصمان»!!.

وعصمان عقل يابس، أو رأس بلا عقل، أو هكذا بدا للآخرين بجسده الكبير، ورأسه الضخم، وصوته الذي يقطع نياط القلب. كان مرعباً حقاً في الليل والنهار، وللحقيقة كان مرعباً في الليل أكثر.

ولم يعرف الرقة طوال حياته مع يعقوب وبناته على الرغم من معايشته لهم ليل نهار.

الآن بوجود عصمان، ودعم سليمان عطارة صار للجسر هيبته، وحضوره، وحارسه، كما أصبح له ضامن.

هذا ما عرفه الأهالي حقيقة مع مرور الأيام وتداولها»!!.

تذييل:

«بدا بيت يعقوب الحجري الواسع، وبيت سليمان عطارة وجوديت الحجري الواسع أيضاً، وغرفة عصمان القريبة تماماً من الطرف الشرقي للجسر تجمعاً سكنياً جديداً تماماً في كل شيء، نسيجاً آخر في المنطقة، نسيجاً محايداً لا تنقصه إلا الإلفة والانسجام مع ما هو حوله من بيوت، وأمكنة، وظلت غرفة عصمان، على سبيل المثال، مكاناً للخوف، والقسوة، والأسرار، والوحدة المطلقة، فلا أحد يقترب منها أو ينوي دخولها. إنها

مكان للشراسة فقط، أو قل إنها مكان للتعذيب والحجز، مكان؛ الداخل إليه لا يعرف متى يخرج منه، وقد حفّت به الأسرار ووجوه القسوة الشديدة»!!.

الكتاب الحادي عشر

«الحكيم يعقوب»

الأمر الذي لم يكن يتوقعه، يعقوب، هو أن يعمل عملاً مرهقاً طوال يومه في خانه. حيث راح يعالج الحيوانات، ويحذي الخيول والبغال، ويداوي الأسنان الخربة، ويطهر الأولاد في مواسم الربيع خصوصاً، ويقص صوف الأغنام والماعز صيفاً، ويداوي عجز الرجال والنساء غير القادرين على الإنجاب. ويحلق الشعر أيضاً، ويداوي القروح، وحيّات الهواء، والحزازات والثعلبة، ويجيد الحجامة!!.

بدا للجميع من أهالي الشماصنة، وغيرها من القرى المحيطة بها رجلاً عارفاً بأمور الطب، وشؤون الحيوانات، وشؤون الحبل والأولاد، وكتابة الرقى أيضاً! ولكم تعرت نساء ونساء في خانه من أجل أن يقف يعقوب على أسباب عدم حبلهن، ولكم شتم، ووبخ الكثير من الرجال الذين لم يحالفهم الحظ في حرث حلالهم، أو القدرة على الإنجاب. كان يشتم ويوبخ ويعطي الوصفات، ويرسم الطرائق؛ طرائق المعاشرة، ويحدد أوقاتها، ولكم أدخل على النساء العرايا رحمون، الذي عمل عنده في الخان سايساً للخيل التي لم تأتِ بالمسافرين بعد!!، والحق إن رحمون عمل سايساً للنساء الغريبات اللواتي جئن إلى يعقوب من القرى البعيدة واللواتي عدن ومعهن حملهن، أو أجنة المواليد القادمين بهجة وسمعة وتأييداً لقدرات يعقوب الخارقة، يعقوب الذي صار اسمه آنذاك، وبعد ذيوع صيته وشهرته، الحكيم يعقوب!!.

كان يعقوب يثور، وينفعل، ويهيج، ويأخذه الغيظ، وهو يرى كل ذلك الجمال الأنثوي الجواني بادياً أمامه.. مثل غابات وحشية راحت تبدي جمالها جزءاً جزءاً وبهدوء ولطف شديدين. بهجة الدنيا وسعادتها، رؤيتها الحلمية العذبة، أسرارها ومفاتنها، دفؤها وشهواتها، طراوتها ونداها، بكورتها وبداءاتها الأولى، طزاجتها ورؤاها الوردية.. كلها كانت منثورة نهاراً أمام يعقوب، وهو يرى تلك النسوة اللواتي جئن إليه طلباً للذرية التي تبقي عليهن، والتي ستكون سبباً من أسباب السعادة المرجوة بجوار أزواج لا قدرة لهم على المعاشرة. كانت النساء اللواتي يأتين إليه للمرة الأولى يتقدن لطلباته (وقد تجهم وجهه وعبس، وعلا صوته يشتم حظه العاثر الذي قاده إلى هذه المهنة المعذبة)، ببطء شديد، تبدأ الواحدة منهن بالرجاءات الكثيرة والطويلة أن لا ينزع الثياب عنها، وأن يداويها من بعيد، أن لا يلمسها أو يدنو منها، وقد سال ندى أنفه، وسح ريق فمه، بشعره المنفوش، وعرجه البادي. وهنا يثور يعقوب يلعن، ويشتم، ويضرب نفسه، ويدعو المرأة أن تخرج فوراً إذ لا مكان لها عنده، ولا دواء، وقد بدأت اللقاء معه بالمعاندة، فكيف سيمنحها برجها رضاه؟! وكيف سيخصب ما بداخلها؟! بل كيف ستقبض على طرف الأيام الجميلة وتشدها نحوها بلين ورفق؟! ولحظتئذ، تشرع المرأة برجاءات من نوع آخر، تطلب مغفرة الحكيم يعقوب، ومودته، وتهمس، وتصرخ مرات ومرات بأنها ستلبي كل أوامره، وستنفذ كل تعاليمه، وهو غير مكترث بها، وكأنها غير موجودة، وقد مضى في الهمهمة التي لا تفصح عن شيء. يتشاغل عنها بالكتابة المتداخلة الحروف والأشكال، أو بترتيب زجاجات الأدوية، أو بمزج الماء بالالوان، أو بتقطيع قطع القماش الأبيض إلى أحجام صغيرة متساوية. وحين تدنو المرأة منه تهزّه، وترجوه، فلا يستجيب لها، ويأمرها مرة ثانية بالانصراف، فعنده في خارج الخان من ينتظر، ويرجو الله، على مسمع منها، أن يتوب عليه، وأن يتشفع له، ويلهم الأسياد أن

يعفوا عنه، فيترك هذا العمل المر الذي لا يسبب للنفس إلا الألم، والذي لا يعود عليها إلا بالمواجع والرؤى الراعبة. والمرأة تدنو، وترجو، ثم تتمسح به، وتضمه، ثم تقبله، تأخذ ندى أنفه بأطراف أصابعها، تمسح ريق فمه اللامع. لكن يعقوب لا يهدأ إلا بعد وقت طويل، لا يهدأ إلا عندما يوقن بأن كل أمر من أوامره سينفذ دونما مناقشة حتى ولو قام بقلع عين المرأة، فهو حكيم، ويعرف واجبه تماماً.. لحظتئذ... تبدأ المطالع بالانكشاف، يبدو الجمال الأنثوي الذي لم تره الشمس يوماً، يبدو الجسد الآن الذي لم يره الزوج بعد، والذي لن يراه ولو عاش مئة سنة. فتتحايل المرأة بتغطية هذا الجزء منه أو ذاك لكن من ذا الذي يحجب الشمس بغربال. تبدو المرأة مكشوفة تماماً، مكشوفة أكثر مما ينبغي، ويعقوب في حالة لا مبالاة، وكأنها لم تتعرَ أو تتكشف. يبدو أمام بياض الجسد، بكل شهوته واندفاعاته كتلةً لا حياة فيها ولا أحاسيس، ثم يبدأ بلمس الجسد، ومخاطبته بالبصر وقتاً هو من يفتتحه وهو من يغلقه، كثيرات هن النسوة اللواتي كن يتكشفن أمامه بكل سحرهن وجمالهن.. وقد اكتفين بتغطية عيونهن بالأيدي حيناً، أو بقطعة قماش حيناً آخر. يستسلمن للحالة، يتركن الأمر للحكيم، يتصرف بهن كما يشاء، ويدخل عليهن متى يشاء، ويحكي ما يشاء أيضاً. ولكن في أكثر الأحيان يشاهدنه وقد غسلت الدموع وجهه، فتظن الواحدة منهن بأن اتصاله بالخوارق والنجوم والأبراج هو ما يبكيه، لكن الحقيقة هي أن يعقوب كان يبكي هذا الجمال الممدود أمامه، والذي لا يقدر عليه.

مرات، ومرات، كان يعيد النسوة اللواتي يأتين بصحبة الرجال، يقول لهن لقد فسد الدرب بخطوات الرجال. ولكن يعاودن المجيء وحيدات مثل الطيور الشاردة، وفي خانه يتجمعن واحدة بعد واحدة فوق فراش يعقوب الوضيع،وفي غرفته الخاصة.

لقد اعتادت النسوة طبعه، وتصرفاته، وأحاديثه، ولمساته، ودموعه، وأحزانه.

وكان المهم عندهن... الأولاد أولاً؛ هؤلاء الذين يسميهم الحكيم يعقوب بـ (الأكران)، ومحبة الأزواج ثانياً.

الحاشية الحادية عشرة:

«حاول يعقوب مراراً أن يقوم بمهمة رحمون لكنه عجز عن ذلك، وسلّم بأن قدراته موجهة نحو جمع المال فقط، وأن عملاً مثل هذا لا يليق به سوى رحمون أو من شابهه، لكنه وفي مرات عديدة، وحين تهجم الشهوة المتنحية، يهيج مثل الثور المخصي، ودونما نتيجة»!.

تفصيل صغير:

«بنات يعقوب، جوديت، وميمونة، ودينة كن يعرفن تماماً ما يجري في الخان، وكن راضيات بذلك ما دامت متعهن دائمة، وما دامت الأموال تتوالى بكثرة وراحة، مرة عن طريق الخوف، ومرة عن طريق الإقناع والسمعة الجيدة»!.

تذييل:

«لم يخيب رحمون الظن فيه. كان كتوماً جداً، ينهل من الملذات اليومية دونما ضجيج أو صخب أو افتعالات، ويأخذ أجرته التي تذهب في آخر الليل إلى أكياس بنات يعقوب، وصناديقهن المقفلة، وهن يحققن لرحمون رغباته الخاصة وسعادته الكاملة التي لا تأتي إلا معهن»!!.

تذييل أخير:

«أبداً، لم يضطر يعقوب ولا مرة واحدة للمجيء بعصمان حين يغيب رحمون لأسباب غامضة (بالمناسبة كان رحمون يغيب من أجل أن يرتاح من شقاوة العمل وقسوته)».

كان يعقوب يؤجل المواعيد مع النساء والرجال معاً تحت حجة عدم مناسبة البرج ومواتاته في ذلك اليوم، ويقتنع الجميع. كان من السهل جداً أن يقتنعوا، وهم بين يدي خبير، يعرف عن الأمراض الكثير، وعن أسرار الحيل ومواقيته، وعن حركة الأبراج ودورانها... الكثير أيضاً!!.

الكتاب الثاني عشر

«موت يعقوب»

هذا الكتاب في سبعين صفحة كلها غير مقروءة، عدا أسطر قليلة تشير بوضوح إلى موت يعقوب في خانه، بيد رجل من الأهالي: رماه بحجر كبير فهرس رأسه دونما شفقة لأنه وجده فجأة عارياً قرب زوجته العارية في إحدى غرف الخان التي دخل إليها مصادفة، والأسطر هي التالية، أوردها على الرغم من سوء وضوح الكلمات وهي تظهر خشونة يعقوب تجاه الرجل الذي فقد أعصابه أمام زوجته وقد اختلى بها. كان في البداية يعالج الرجل، ثم وبعد أن أخرجه، عاد إلى معالجة زوجته، وقد حاول يعقوب مرات عديدة أن يعيد واحداً منهما إلى القرية، وأن يبقي لديه أحدهما فقط، لكنه فشل لأسباب اقتنع بها، هذا ما فهمته من الأسطر الأولى في هذا الكتاب وهي أسطر ساح حبرها، وأصابها العفن. وها هي الأسطر السليمة، والمقروءة.

«أنّبه يعقوب، وقسا عليه، والرجل بجسده الكبير، ووجهه العريض، وشاربيه الكثين يبلع الإهانات واحدة واحدة، سبّه يعقوب مرات عدة وأغلظ له، ونعته بأنه كرّ، وظهره فارغ، لا حياة فيه. وأنه سيعالج زوجته الملأى بالأطفال، لكي تهيأ أوقات القبول للمعاشرة، ليأتي هؤلاء الأطفال، وتركه خلفه، ودخل إلى الغرفة المواجهة له تماماً، ومن داخلها نادى زوجته الجميلة لتدخل إلى غرفة تقع وراء الرجل الغاضب مباشرة، والذي راح يندب حظه، بعدما انكشف عجزه أمام الحكيم، ودونما تصد

منه، وعقله شارد، دفع الباب الخلفي بقوة، ودخل، وإذ به يقف أمام زوجته التي صارت عارية تماماً وبقربها يعقوب وقد تعرى أيضاً، وهو يشير موجهاً إلى مواضع وأمكنة في جسده وجسدها. يعقوب يشير ويهمهم. والمرأة تهز رأسها وتوافقه. وبخفة رأت زوجها أمامها سارعت إلى تغطية جسدها بيديها ثم بأثوابها المرمية قربها. وحين التفت يعقوب نحو الرجل استشاط غضبه. فنهره وسبه. أما الرجل فقد ذهل تماماً وقد رأى ما رأى ولم يدرِ كيف التقط حجراً كبيراً وضرب به رأس يعقوب بقسوة شديدة فهرسه تماماً. وسط صراخ امرأته وعريها الفاضح، ووسط صياحه هو، وحالة الهيجان التي استولت عليها.

وحين أيقن أن يعقوب مات، تقدم بكل ثبات وهرس رأس زوجته الملأى بالأطفال أيضاً، وضرب كفاً بكف كأنه أنهى أمراً كان لا بد منه، ثم حمل الاثنين وهما بتمام عريهما ورماهما في النهر وسط صياح بنات يعقوب، وبكائهن. وصراخهن الشديد، ووسط لغط وأصوات، ودهشة الأهالي الجالسين أمام الخان المنتظرين لأدوارهم للمعالجة عند الحكيم يعقوب. خرج الرجل بالجثتين المدماتين بمشهد مرعب، وغير إنساني، وقد استوحش، وصوته الصارخ، الضاج، الهادر يرعب الآخرين، الذين ما تجاسروا على الاقتراب منه وقد ظهرت شراسته فبدا وحشاً حقيقياً!! وعند ضفة النهر رمى الجثتين في الماء، ثم غسل يديه من دمهما وكأن شيئاً لم يكن، ودون انتباه منه، خرج إليه عصمان، وتقدم منه بكل ثقة، وقتله غرقاً في ماء النهر، ظل عصمان قابضاً عليه تحت الماء حتى خرجت روحه. بدا وكأنه استسلم لقوة عصمان، أو أنه استسلم لموته وراحته المنشودة بعدما فعل ما فعل.

وبعد صفحات عديدة، نقرأ:

«ودفن يعقوب، والمرأة، وزوجها في مقبرة الخان، بعدما

انتشلهم الأهالي، وبعدما رفض أهالي قرية الرجل وزوجته استقبال الجثتين ودفنهما في مقبرة القرية...»!!

وإلى هنا ينقطع الكلام، فلم تبق أسطر مقروءة في هذا الكتاب، ولم نعثر على حواشيه أو تفصيلاته، أو ذيوله. فقد أتت العفونة عليه بقسوة شديدة. وأظن، على كثرة ما قمت به من نظر في تلك الأسطر الباهتة، أنها تتحدث عن حالة الحزن التي عمّت المنطقة، وحالة الأسى التي لفت بنات يعقوب، وطقوس النواح التي أقمنها قرب قبره. وتعطيل حركة الخان وفعاليته بعدما عاشت بنات يعقوب أياماً عديدة في أطياف الحزن والبكاء... فقد رحل يعقوب السياج البري الذي كان لهن بكل ما فيه من شوك كثير وأثمار قليلة، رحل ولا بدَّ من تعويضه بآخر، إذ لا بد للبساتين من أسيجة!!.

الكتاب الثالث عشر

«الأجنّة»

بعد موت يعقوب، الخيط الناظم لبناته، وللمكان الجديد، انطلقت بناته في غرف الخان، كل واحدة تبني مشروعها الخاص، وحياتها الخاصة، تظل تعمل طوال النهار في الخان، وطوال الليل أيضاً، ولكن ليس في طهور الأولاد، أو معالجة الأسنان الخربة، أو حذي الخيل، أو فك العقم، وإنما في خدمة الزبن الكثيرين الذين صاروا يتوافدون على الخان نهاراً بتقديم الطعام والشراب والراحة، وبالمعاشرة والمؤانسة ليلاً.

وبات لكل واحدة منهن صندوقها الخاص، وكيسها الخاص، ومشاريعها الخاصة. كن لا يلتقين إلا في ساعة محددة من الليل، يتركن الخان ومن فيه، ويخرجن إلى المقبرة وسط ضجيج الطواحين، وصخب المياه، ونداءات الحيوانات المبهمة، ووحشة الليل. يخرجن إلى المقبرة ليس من أجل طلب المغفرة من أبيهن، أو طلب المغفرة له، وإنما من أجل بكاء أولادهن؛ الأجنة التي لم تصبير مواليد، والتي أجهضنها بالتعاون فيما بينهن، بين حين وآخر.

كانت الواحدة منهن كلما ظهر بطنها، تلجأ إلى أختيها لمساعدتها على رمي ما فيه كائناً ما كان الذي تحمله! فتتعاون الأختان مع الأخت الثالثة، ومن أجلها، وباستعمال كل الوسائل، كصرر الخرق، والحجارة الصغيرة المربوطة بالقماش، والدق على الظهر والبطن وبابتلاع أقراص

الفحم والقفز من فوق الأشياء المرتفعة، وبرفع الأخت الحامل من تحت إبطيها ودقها إلى الأسفل دقاً عنيفاً، أي إلى أن يهبط الجنين، وساعتئذٍ يُحمل في مهابة ويدفن في المقبرة وسط نشيج خافت من بكاء مرّ محموم.

كن يركضن في المقبرة كالمذعورات، ويبكين بصمت شديد أولادهن الذين لم يركضوا فوق الجسر؛ والذين لم يلعبوا فوق المروج النجيلية الخضراء الواسعة، والذين لم يندفعوا ركضاً إلى أحضانهن، والذين لم يقطفوا الزهور، أو يلوثوا أيديهم بالوحل والأتربة، الذين لم يسمعوا مناغاة الأمهات، ولم يروا دلالهن، ولا غضبهن الحنون، والذين لم يستمتعوا بهدهدة الأمهات وحكاياتهن ليناموا في سرير الطمأنينة، كن يبكين المستقبل الذي لم يعد يبنّ بعد!!.

كن زاهدات بالأطفال، حتى جوديت التي وقفت على عجز سليمان عطارة، لم تفكر بأن يكون لها ولد تسجله على اسم سليمان عطارة لتأخذ أملاكه باسم الأمومة، كانت هي الأسرع بين أختيها للخلاص من الجنين؛ فتحمل الأشياء الثقيلة وتقفز بها ليهبط الجنين، أو تعطي ذراعيها لأختيها لتبدأا الشد إلى الأعلى بينما هي تشد جسدها إلى الأسفل بقوة واندفاع، إلى أن يسقط الجنين كتلاً صغيرة من الدم.

كن راغبات بالمحافظة على جمال أجسادهن التي عذّبت الآخرين كثيراً، والتي جاءت بالرجال من البعيد البعيد؛ الرجال الذين جاؤوا مرات عديدة إلى محرقة الأجساد اللاذعة، اكتووا بها، فأحبوها، أعطوها صفو أيامهم، وزهو وجوههم بعدما سمعوا بأخبار البنات الدائرة في كل مكان، عرفوا لطاقتهن الآسرة، وعدم صدودهن أو تجاهلهن للرغبات المطلوبة.

ومع الأيام أصبحت بنات يعقوب حبيبات للعصاة، والفرارية، وقطاع الطرق والمجرمين الذين كانوا في أكثر الأحيان، وحالما يتمكنون من اجسادهن لا يدفعون شيئاً. كانوا يجبرون البنات على قضاء الليل معهن مرغمات وكن لا يستسلمن بسهولة، فقد أوجدن لهن حماة وحراساً أكثر شراسة وعدوانية، ومع الأيام صار الخان مأوى لأصحاب السطوة والنفوذ، فعرف الغمّ والهمّ والحزن الطريق إلى نفوس البنات، فقلّت شهوتهن تجاه الحياة، وتراخت أجسادهن، وبهت الجمال الآسر، وانكشفت أسرار أجسادهن، وقد باتت معروفة، ومرئية مرات عديدات. وخانت البنات المقدرة على صدّ أي طالب لرغبة أو متعة جسدية منهن، بدون كمن أدمن الشراب، فراح بطلبه ويسعى إليه عند أيٍّ كان، وفي أي مكان، أو زمان. فسلمن أجسادهن وقوفاً للرجال، وفي أمكنة الطبخ، وقرب الأدراج، ووراء الأبواب، وفوق الأرض الوسخة، وفوق المفارش، وتحت الشبابيك، وقرب النهر، وداخل الماء، كن غير عابئات بمن يرى، أو يهمس، أو يقول بعدما فقدن السياج.

كان همهن محصوراً في جمع المال وتكديسه بعدما ولت المتع الكبيرة، والشهوات النادرة وبعدما تخلين عن فكرة الإنجاب وتأسيس الأسر، وبعدما مرّ الزمان سريعاً فلم تتمكن أيّ منهن اختيار الرجل الحلم الذي تريده.

كن يعملن لأن الحياة باقية، ولأن العمل يأتي بالمال. يعملن بلا متعة أو أمل، صابرات على معاشرة وحوش لهم إهاب الرجال، وعارفات بطلقوس القسمة التي تدار وتقام كل يوم في النهار والليل. عارفات بأن بعضاً من مالهن يسرق، وأن بعض العصاة بدؤوا يؤسسون ممالكهم الصغيرة بهدوء، وروية، وصمت.

كان الناظر إليهن يستغرب القصص الكثيرة التي حكاها عشاقهن

عن جمالهن الأخاذ، وعن لذاذات الحياة قربهن، وعن رقتهن، ورهافة سلوكهن، والمتع التي لا تنسى التي يولّدنها.

يستغرب ذلك كله، وقد ولى الجمال، وانحنت الظهور، وصارت كل الذكريات، والمتع، والليالي الأنيسة حاضرة في ثلاثة أجساد ممصوصة لثلاث بنات لرجل كان اسمه يعقوب. ما زال الحديث عن جمالهن الباهر الذي كان، وأسرارهن الكثيرة، نافراً... مثل الخيول البرية، أو الغيوب الجامحة في السماء الوسيعة العالية؛ وعلى الرغم من كل ما حدث، وما صار، لا يزال عنوان إقامتهن قرب الجسر، الجسر الذي صار اسمه جسر بنات يعقوب!!.

الحاشية الثالثة عشرة:

«صارت المقبرة المجاورة للخان، والتي كانت بعيدة عنه، ممتلئة بالقبور الظاهرة، بعدما تقاتل نزلاء الخان وتشاجروا مرات عديدة عبر الليالي، والنهارات من أجل الاستحواذ على جمال بنات يعقوب. تلوثت الحيطان بالدم البشري، تماماً كما تلوثت درجات الجسر وسلالمه بالدم البشري الذي أراقه عصمان مرات عديدة، وهو ينهر الناس ويهددهم بالقتل إذا لم يدفعوا ما يريد.

ولم يمت عصمان بيد أحد من الأهالي، وإنما مات بالشراب، قيل إنه وفي ليلته الأخيرة، وقد كانت باردة جداً، شرب كثيراً فما عاد يميز ما بين الأرض المستوية وصفحات الماء الرقراقة. قاده الشراب رويداً رويداً إلى قاع النهر مستسلماً كأن يداً غير مرئية تقوده إلى رغبته الأخيرة!! وبعده عاد الأهالي وثبّتوا طرف الجسر الشرقي فوق الدعامة الكبيرة، وهدموا بيت عصمان، وأعادوا الجسر إلى ما كان عليه قبل مجيء يعقوب وبناته. وقد وجدوا وراء عصمان أموالاً كثيرة، وأسلحة، وفؤوساً، وبلطات، وطعاماً مختلف الألوان»!!.

تفصيل صغير:

«في تلك الليالي الطويلة بمتعها، كانت العجوز الطويلة الناحلة، تبارك ما تفعله بنات يعقوب عبر ظهورات مختلفة. وكانت البنات يجعلن من رضاها اندفاعاً جديداً نحو منح المتع والأخذ منها، ونحو جمع الكثير من المال الذي ذهب نصفه إلى العجوز الساهرة على رعايتهن»!!.

تذييل:

«بدا كل شيء مثل الحلم، أو الكابوس الطويل. حلم له متعه ومخاوفه. حلم مثل المنجم فيه الثمين والبخس أيضاً. منجم واكتشف تماماً، لم يبقَ منه سوى الحجارة السوداء والمقبرة، وآثار الخطا التي مشت تلك الدروب. منجم لم يصرف أهالي الشاصنة عن مواصلة الحياة قرب النهر، وفي السهول، والأودية، مع الماشية، والأرض، والطواحين، ومعاصر الزيت وكأن ما حدث لم يكن مطلقاً، أو لكأنه لم يحدث أصلاً»!!

صدر للمؤلف

أولاً ـ القصص:

1 ـ اثنا عشر برجاً لبرج البراجنة ـ قصص ـ م. ت. ف. 1983 .

2 ـ ممارسات زيد الغاثي المحروم ـ قصص ـ دمشق 1985 .

3 ـ زعفران والمداسات المعتمة ـ قصص ـ دار طلاس ـ 1986 .

4 ـ دويُّ الموتى ـ قصص ـ وزارة الثقافة 1987 .

5 ـ طار الحمام ـ قصص اتحاد الكتاب العرب 1988 .

6 ـ أحزان شاغال الساخنة ـ قصص ـ دار المنارة ـ 1989 .

7 ـ قرنفل أحمر... لأجلها ـ قصص اتحاد الكتاب العرب 1990 .

8 ـ مطر وأحزان وفراش ملوّن ـ قصص ـ اتحاد الكتاب العرب ـ 1992

9 ـ هناك... قرب شجر الصفصاف ـ اتحاد الكتاب العرب ـ 1995 .

10 ـ حمّى الكلام ـ قصص ـ اتحاد الكتاب العرب ـ 1998.

ثانياً ـ الروايات:

1 ـ السواد أو الخروج من البقارة ـ دار الأهالي ـ 1988 .

2 ـ تعالي نطير أوراق الخريف ـ اتحاد الكتاب العرب ـ 1993 .

3 ـ جسر بنات يعقوب ـ اتحاد الكتاب العرب ـ 1996 .

ثالثاً ـ الدراسات:

1 ـ ألف ليلة وليلة ـ شهو الكلام / شهوة الجسد ـ دار ماجدة ـ 1996 .

2 ـ البقع الأرجوانية في الرواية العربية ـ اتحاد الكتاب العرب ـ 1999.

جسر بنات يعقوب

في هذه الرواية لا يقتفي حسن حميد آثار غيره، فله منظوره الفكري الخاص به، وله تصوره الأدبي الذي سيولّد منه صوره، فالرواية تتيح لنا، من جديد، أن نتأمل الوجود اليهودي والوعي الفلسطيني ومآل الصراع بينهما.

د. فيصل درّاج

حقاً، إن لغة رواية (**جسر بنات يعقوب**) لغة جميلة في كثير من توجهاتها فهي كثيراً ما تلامس الشعرية في مستواها الأعلى وتتجلى قدرة الكاتب الكبيرة في الوصف للأمكنة وكأنه يوصف



إنجازاً حقيقياً، وهو بذلك يذكرنا بازدهار الوصف في النصوص السردية للرواية الغربية في عهودها الذهبية مثل رواية (مدام بوفاري) لفلوبير، وبلوحات الطبيعة التي يرسمها تذكرنا بالأدب الرومنسيكي... أتمنى أن تتاح الفرصة لهذه الرواية فتظهر في شريط سينمائي.

د. عبد الملك مرتاض

كل كاتب يجب أن يكون عمره خمسة آلاف عام على الأقل. وهذا هو عمر حسن حميد في رواية (**جسر بنات يعقوب**)، فهو مثل قدامه مايزال يحمل صليب آلامه بسبب اللاويين على رجاء القيامة. إنه كاتب يتابع تقاليد الفلسطينيين القدامى.

حنّا عبود

دار السوسن
سورية - دمشق - المزة - ص.ب: 9063
هاتف/فاكس: 6623027 - 6619334